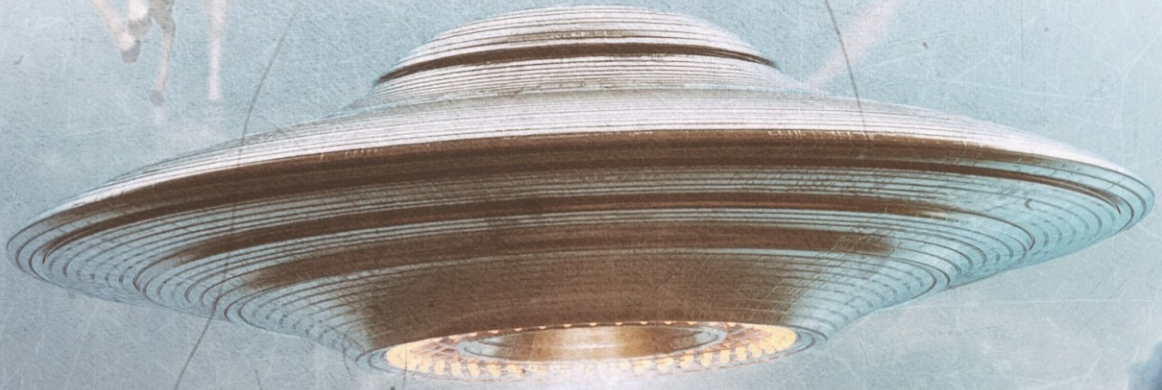


د. نبيل فاروق

# ويأتي الغد



دار كَوْن

ويأتي الغد

د. نبيل فاروق: ويأتي الغد: كتاب

طبعة دار دوّن الأولى: فبراير ٢٠٢١

رقم الإيداع: ١٣٨٥٠/٢٠٢٠ - الترقيم الدولي: 8 - 232 - 806 - 977 - 978

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة

بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

© دار دوّن

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

www.Dardawen.com

د. نبيل فاروق

ويأتي الغد

دَوْنُ



لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيْعِ

## فلسفة الخيال

مع مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، غرقت الإمبراطورية الصينية في حروب طاحنة للحفاظ على أمنها وضمان وحدتها والدفاع عن أرضها ضد غزاة جذبتهم حضارتها من كل أركان الأرض..

وفي عام ١٢٣٢م، بلغت تلك الحروب ذروتها، وحاصر الأعداء الإمبراطورية الصفراء، وهموا باقتحامها واحتلالها، و..

ولكن التاريخ يحمل لنا مفاجأة مدهشة في ذلك العام بالتحديد..

فأول مرة، استخدم الصينيون ما وصفته كتب التاريخ بأسهم النار الطائرة..

ولكن بعض العلماء يؤكدون أن تلك الأسهم لم تكن سوى أول صواريخ عرفها البشر..

فأكثر ما امتاز به الصينيون، في تلك الفترة، بعد براعتهم الكيميائية، كانت قدرتهم على الخيال والابتكار.. وخيالهم مع كيميائهم صنعا أول الصواريخ..

وفي عام ١٨١٢م وأثناء حرب البريطانيين مع الأمريكيين، طوّر البريطاني (ويليام كونجرين) صواريخ تحمل موادًا متفجرة..

وكانت مفاجأة للأمريكيين..

ونقطة تفوق للبريطانيين..

ولكن صواريخ (كونجرين) لم تكن بالقوة الكافية لتريح (بريطانيا) الحرب؛ لذا فقد طواها الزمن، ونساها الأمريكيون مع فرحتهم بالاستقلال، فاخفتت في خيال العلماء حتى عام ١٩٠٣م، عندما خرج مدرس الثانوي الروسي (كونستانتين تسيبو لكوفيسكي) بأول نظرية علمية صحيحة لإطلاق الصواريخ..

وكانت هذه هي البداية العلمية الحقيقية..

ولكن القاعدة الأساسية في التاريخ كله تؤكد أن الخيال يسبق العلم دومًا..

ويلهمه..

ويدعمه..

ففي عام ١٨٧٠م وقبل نظرية (تسيبو لكوفيسكي) بربع قرن تقريبًا، نشر أبو الخيال العلمي (جول فيرن) (١٨٢٨ - ١٩٠٥م) روايته الخالدة (حول القمر)..

وفي روايته وقبل أن ينشأ علم الفضاء، تخيّل (فيرن) الصواريخ وإطلاقها ومناطق انعدام الوزن والمسارات الكونية.

كل هذا توصل إليه خياله، وصاغه قلمه المبدع في روائع ما زالت متداولة حتى يومنا هذا..

وروائعه هذه هي التي ألهمت قرينه البريطاني (هربرت جورج ويلز)، (١٨٦٦ - ١٩٤٦م) ليضع بدوره رائعته (حرب الكواكب)، و(أوصل من وصل القمر) (١٨٩٨م)..

الاثنان سبق خيالهما عصرهما بسنوات عدة..

وبمراحل عدة..

فبخيالهما صعدا إلى القمر، قبل أن يأتي الأمريكي (روبرت جودارد) ليصنع أول صاروخ بطاقة دفع في عام ١٩٢٦م، ويصبح بهذا أبا الصواريخ..

ولكن التطوير الفعلي والحقيقي للصواريخ التي نعرفها الآن، وُلِدَ على يد الألماني (فون براون) في الحرب العالمية الثانية، ليمنح النازية صاروخها المدمرين (ف - ١)، و(ف - ٢) اللذين دمّرا نصف (لندن)، وكاد يمنحها تحفته (ف - ٣) القادرة على عبور المحيط وضرب الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، لولا أن سقط الرايخ الثالث وخسرت النازية الحرب فانقل (فون براون) مع ألفي رجل من علماء الصواريخ إلى (أمريكا)؛ ليبدأ هناك عصر الفضاء..

الأمر كله بدأ بخيال إذًا..

وهنا تكمن الفلسفة..

فلسفة الخيال..

فالحضارات العظيمة والمخترعات الرائعة والمذهلة لم تكن في بدايتها سوى فكرة..

إلهام..

خيال..

ومن الخيال تنبت دومًا بذرة واقع..

وتتمو..

وتكبر..

وتمتد فروعها في كل مكان..

والعلم يتأثر دومًا بالخيال ويسعى خلفه ويؤمن بأنه ما من لمحة وثبتت إلى عقلٍ ما إلا وهناك وسيلة لتحويلها إلى حقيقة..

حقيقة علمية..

ومادية..

وموجودة..

الغوّاصة أيضًا بدأت بكرة معدنية مصممة ابتكرها عقل الهولندي (كورينليوس فان درييل) عام ١٧٧٥م، ثم حوّلها الأمريكي (روبرت فولتن) إلى حقيقة بسيطة عام ١٨٠٠م ألهمت عقل (فيرن) وجعلته يسعى لتطويرها ويصنع منها سلاحًا رهيبًا يقوده قبطان نصف مجنون مهووس بالسُّلطة والعلم وهو الكابتن (نيمو)..

وفي رائعته (عشرون ألف فرسخ تحت الماء) التي نشرها فيرن عام ١٨٧٠م منح غوّاصة سمات بدت خيالية مغرقة في الخيال في حينها ومنحها اسم (نونتليوس)..

وجاءت الحروب العالمية وأصبحت الغوّاصة سلاحًا خطيرًا وفعالاً، إلا أنها لم تبلغ قط ما تخيله (فيرن) في روايته..

لم تبلغه إلا عندما أصبحت غوّاصة نووية عام ١٩٥٤م..

والمدهش أن الغوّاصة النووية وحدها أمكنها أن تحقّق ما تخيله فيرن في غوّاصته قبل ثمانية عقود من الزمان..

المدهش أكثر أن الأمريكيين منحوها أيضًا الاسم نفسه..

(نوتيليوس)..

حتى الصاروخ عندما بنوه استلهموا هيئته من الرسم على غلاف رواية (فيرن)..

وكل هذا مجرد أمثلة بسيطة لما بدأه الخيال..

ولما أنجزه العلم..

ولما ألقناه في عالمنا..

ولكن فلسفة الخيال لا تنتهي أبدًا..

فالعلماء تساءلوا: ما داموا قد حوّلوا الغوّاصة والصاروخ إلى حقائق وما دامت مبتكرات ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ - ١٥١٩م) قد سبقت عصرها بمئات السنين عندما تخيّل الطائرة والهليكوبتر والمدفع الرشاش وزِي الغوص وغيرها؛ فلماذا لا يسعون خلف صور الخيال الأخرى أيضًا؟!

وهكذا اتخذ العلماء من الخيال ركيزة انطلقوا منها إلى محيطٍ هائلٍ من الابتكارات والاختراعات..

ودون تردّد يمموا وجوههم شطر آلة الزمن..

والرجل الخفي..

والرجل الذئب..

وكل خيالٍ جامعٍ آخر..

ومع مُضي الزمن أدرك العلماء قاعدة مدهشة جديدة..

كل خيال يمكن أن يتحوّل إلى واقع..

كل خيال..

بلا استثناء..

وخلال العقد الأخير من القرن العشرين أثبتت منجزات العلم أن هذا لم يكن خيالًا مبالغًا منهم..

بل كان مجرد طموح..

طموح قادهم إلى ما يفوق حتى قدرتنا على الخيال..

أما الغد والذي أعلن عن بدايته مع مطلع القرن الحادي والعشرين فقد بشرهم بالمزيد..

والمزيد..

والمزيد..

فخيالات الأمس واليوم أصبحت حقائق..

أو توشك أن تصبح كذلك..

وكل ما بهر عقولنا يوماً سيصبح بين أصابعنا..

وفي بيوتنا..

وملك أبنائنا..

عندما يأتي الغد..

\* \* \*

## لعبة جينات

في العام الأخير من القرن العشرين وفي نهاية ولايته، خرج الرئيس الأمريكي (بيل كلينتون) ليعلن للعالم كله ما أطلق عليه اسم (أعظم كشف القرن)..

وكان بهذا يعني خريطة الجينوم البشري..

الخريطة التفصيلية للجينات والمورثات البشرية التي تمنح الإنسان (أي إنسان) كل ما يتمتع به من صفات وسمات..

هيئته..

لون عينيه..

درجة ذكائه..

حالته الصحية..

وحتى عيوبه الوراثية..

ولقد كان (كلينتون) على حق تمامًا فيما وصف به هذا الكشف المدهش القادر على تغيير الخريطة البشرية نفسها مع مرور الوقت..

والواقع أن ما أعلنه الرئيس الأمريكي لم يكن البداية..

بل كان مجرد مرحلة..

جولة في لعبة طويلة بدأها الراهب النمساوي (جريجور جوهان مندل) (1822 - 1884م) في حديقة دير القديس (توماس) في (برون) في (النمسا) والتي أصبحت (برنو) الآن في (تشيكيا) عندما راح يزرع زهور البازلاء ويراقبها ويسعى لتهجينها ومتابعة نتائجها ليضع أول القواعد (البسيطة) لعلم الوراثة..

وعلى الرغم من كل الأبحاث التي أفنى فيها (مندل) عمره والتي نشرها عام 1866م، إلا أن أحدًا لم ينتبه إلى علم الوراثة في حينه.. ربما لأنهم ظنوا أنه مجرد راهب..

ولكن الواقع أن (مندل) كان أكثر من هذا بكثير؛ فالدير لم يكن مركزًا دينيًا فحسب وإنما كان مركزًا علميًا التقى فيه (مندل) بالعديد من علماء الرياضيات والفيزياء.

وفي عام 1851م أرسل الدير (مندل) في بعثة؛ لدراسة العلوم والرياضيات في جامعة (فيينا)، وعاد إلى الدير عام 1853م ليدرس علم الأحياء والفيزياء في مدرسة عليا محلية طوال أربعة عشر عامًا.

وفي عام 1900م عثر العلماء على البحث الذي نشره (مندل).. وقرأوه..

ودرسوه..

وانبهروا به..

ومعه وُلِدَ أخطر علم في عالمنا المعاصر..

علم الوراثة..

فما توصل إليه (مندل) من كون الجينات الوراثية والكروموسومات هي المسؤولة عن نقل السمات الوراثية من جيل إلى جيل كان مجرد بداية..

وكعادة العلم انطلق من تلك البداية..

بلا حدود..

في النصف الأول من القرن العشرين كله كانت الدراسات منصبة على فهم طبيعة الجينات الوراثية والعوامل التي يمكن أن تؤثر على انتقالها..

أو حجبها..

أو تشوّهها..

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية وبالتحديد بعد نتائج انفجار قنبليتي (هيروشيما) و(ناجازاكي) عام 1945م، بدأ التفكير في الاستفادة من هذا العلم في إصلاح التشوهات وبلوغ حد جديد من التطور والعلاج..

ولم يكن هذا بالأمر اليسير..

فالعلم على الرغم مما لحق به من تطوّر في نصف القرن التالي ظلّ عاجزًا عن التوصل إلى جواب عددٍ من الأسئلة..

وحل العشرات من الألغاز..

ولأنه من غير المنطقي إجراء تلك التجارب على البشر دون التكهّن بالنتائج، ولأن البشر يحتاجون إلى زمن طويل للحمل والولادة والنمو، كان من الطبيعي أن يتجه العلماء إلى إجراء تجاربهم على النباتات..

وفئران التجارب..

وكما بدأ (مندل) بالنبات، واصل العلماء اللعبة في المضمار نفسه، ولكن على نحو مختلف، وبتكنولوجيا أكثر تطوراً.

حاولوا في البداية البحث عن الجينات المسؤولة عن غذاء النبات وبالتحديد عن احتياجه للماء العذب في نموه.. كان هدفهم هو إنتاج سلالة جديدة من النبات يمكنها أن تنمو وتزدهر في أراضٍ شديدة الملوحة.. أو حتى قليلة الملوحة..

ولكن لأنهم يعملون بأسوأ طريقة يمكن أن يتقدّم بها العلم ألا وهي التجربة والخطأ، كان من الطبيعي أن يستغرق هذا سنواتٍ..

وسنواتٍ..

وسنواتٍ..

وفي عام 1980م توصل العلماء إلى أول نبات من سلالة جديدة، ورسوموا أول خطوط خريطة الجينوم البشري..

بل وبدأوا علماً جديداً..

ومبهرًا..

علم هندسة الوراثة..

لم يعد الهدف هو كشف وظيفة الجينات أو إنتاج نبات محسّن فحسب..

بل الاستفادة من الجينات..

إلى أقصى حد ممكن..

وإلى أقصى حد مدهش..

فملا بسنا مثلاً كلها ألوان.. ألوان زاهية أو هادئة متأققة أو خافقة متداخلة أو منفرد، ولكن المشكلة أن كل هذه الألوان عبارة عن أصباغ تختلف في تركيباتها وأنواعها ودرجات وضوحها وثباتها، ولكنها كلها مواد كيمائية تلامس أجسادنا طوال الوقت شئنا أم أبينا، وتتعامل مع جلودنا على نحو مباشر أو عبر حواجز رقيقة، وقديماً في العصور البدائية كان البشر يرتدون ثياباً من جلود الحيوانات.. ثياباً طبيعية..

من مواد طبيعية..

ولهذا لم يكن الإنسان الأول يصاب بالتهاب الجلد..

أو أمراضه..

أو حساسياته..

لم يكن يعاني من التهاب الجيوب الأنفية التي تشم ما لا ندركه من روائح الأصباغ والكيمائيات.

ولم يكن يُعالج من حساسيات الصدر التي انتشرت في العصور الحديثة على نحو لم يسبق له مثيل..

بل ولم يُصَب بها قط..

وهذا ما أدركه العلماء..

وما انتبهوا إليه مؤخرًا..

وما أصبح بالنسبة لهم ولنا مشكلة صحية كبرى..

ففي كل شيء في حياتنا تقريباً انتشرت الألوان الصناعية..

في ملابسنا..

وطعامنا..

وشرابنا..

وحتى في حلوى أطفالنا..

الخطورة تتضاعف وتزايد حتى إن العلماء قد بدأوا منذ مطلع ثمانينيات القرن العشرين حرباً طاحنة على الألوان..

## كل الألوان الصناعية..

في البداية كانت حربهم ضد الألوان الصناعية في الحلوى والمشروبات..

وعبر حملة دعائية كبرى نجحت الجهات الصحية في تحجيم استخدام الألوان الصناعية في الأطعمة، وتم استبدال مجموعة من الألوان الطبيعية بها كلها مستخلصة من مصادر حيوية مثل الفواكه والخضراوات والأشجار والألياف، وكان هذا انتصاراً صحياً..

ولكن بقيت ألوان وأصباغ الملابس..

فالألوان الطبيعية التي تمنح الحلوى والمشروبات زهوها لا تصلح لصبغة الملابس ولا للحفاظ على ثباتها إذ إن معظمها إما يذوب في الماء أو يفسد بسرعة مع الاستخدام المتكرر..

لذا فقد راح العلماء يبحثون عن وسيلة أخرى لصبغة الملابس؛ حاولوا أولاً استنباط مواد صبغية ثابتة من مستخلصات طبيعية..

وربما حققوا نجاحات محدودة في هذا الشأن..

ولكنها لم تكن كافية..

أبداً..

ثم فجأة ومع تطور هندسة الوراثة توصل أحد العلماء إلى نتيجة مذهشة لم تخطر ببال أحد منذ البداية..

لقد بدأ سلسلة من الأبحاث والتجارب منذ أوائل تسعينيات القرن العشرين حول زراعة القطن وبذرة القطن..

في البداية كان عمله كله يختصر في تزويد القطن بصفات وراثية جديدة تتيح له مقاومة الدودة ودفعها إلى الانصراف عنه إلى نباتٍ آخر..

ثم ظهرت في القطن بعض بقع ملونة..

وتحوّل مسار الأبحاث كلها..

وبعد عشر سنواتٍ في العمل الشاق ومئات التجارب والاختبارات والنتائج بدأ الأمر يؤولي ثماره..

بدأ القطن ينمو في الحقول ملوناً..

نعم.. لم تعد هناك حاجة إلى أصباغ كيميائية أو ألوان صناعية..

فالقطن سينمو بالألوان التي نريدها..

ووفقاً لمتغيرات الموضة..

ففي هذا العام سيزرع الفلاحون قطنًا أزرق..

وفي العام التالي برتقاليًا..

وفيما يليه بنفسجيًا..

وستصبح حقول القطن نفسها متعة للناظرين مع اختلاف الألوان من حقلٍ إلى آخر..

وكل هذا بالعلم..

وبالعلم وحده..

وفي عام 1982م سجلت هيئة الدواء الأمريكية أول عقارٍ طبي اعتمد على هندسة الوراثة.

وكانت البداية..

فخلال الأعوام العشرين التالية ظهرت عقاقير أخرى تعتمد على هندسة الوراثة..

وكان المفترض أن يؤدي هذا إلى انخفاض سعر الدواء..

إلا أن هذا لم يحدث..

فالتطوير وأبحاثه كانا يحتاجان إلى تكنولوجيا..

ومعدات..

واعتمادات..

وأموالٍ سائلة لا حصر لها..

فالعلماء وضعوا نصب أعينهم الانطلاق إلى مرحلة جديدة..

مرحلة إنتاج كائنات جديدة..

أو بمعنى أدق مرحلة العبث بالهندسة..

هندسة الوراثة..

\*\*\*

في الأساطير القديمة تطالعنا كائنات مدهشة تجعلنا ننبره بهذا القدر من الخيال الذي تمتع به الأقدمون..

ففي أساطيرهم نجد (البيجاسوس) وهو ذلك الجواد الجميل المدهش ذو الجناحين الكبيرين والذي خرج من دماء (الميدوزا) وهي امرأة بشعة الخلقة شعرها أفاع قاتلة سامة ونظرتها تحوّل البشر إلى حجر..

وفي الأسطورة استخدم الشاب (برسيوس) درعًا لامعة مصقولة ليعكس وجه (الميدوزا) ففتحول هي نفسها إلى حجرٍ، وبعدها قطع عنقها؛ فخرجت دماؤها ليبرز منها ذلك الجواد..

وفي أسطورة أخرى نشاهد كائنًا نصفه بشر ونصفه جواد..

وفي ثالثة نجد عرائس بحر قاتلة تجمع بين البشر والأسماك.. وحتى في أساطيرنا نجد أبا الهول..

كائن له رأس إنسان وجسم أسد..

وكلها خيال..

في خيال..

في خيال..

أو كنا نتصوّر أنها كذلك..

فعلم الوراثة الحديث يقول: إن هذا الخيال يمكن أن يتحوّل إلى حقيقة في غضون عقدين من الزمان فحسب..

ويا له من عبث!

ففي عالم هندسة الوراثة بدأ العلماء تجاربهم على النباتات تمامًا مثلما فعل (مندل) ونجحوا في استنباط أنواع وسلالات جديدة ونباتات مزدوجة لم يكن لها وجود في الطبيعة..

وفي عام 1986م تم تسجيل حقوق الابتكار لأول نبات مستحدث أنتجته هندسة الوراثة، وتم ضمه إلى المراجع وموسوعات النبات العلمية..

وبعدها بدأ العلماء يكشفون سر الجينات..

والعبث بها..

في البداية أضافوا الجين المسؤول عن الحجم الكبير إلى النباتات الصغيرة وصفقوا جذلاً عندما نجحت تجاربهم..

فالفراولة أصبحت في حجم البرتقال..

والطماطم في حجم الرمان..

والخيار تجاوز كل خيال..

ولكنهم أدركوا فيما بعد أن خداع الطبيعة أمر غير وارد..

والنجاح فيه مستحيل..

فالطبيعة تصرّ دوماً على إحداث التوازن..

مهما حاول البشر..

ومهما تفوّقوا..

أو تصوّروا هذا..

فبالنسبة للطبيعة لا بُدَّ وأن تحصل منك على مقابل لكل ما تأخذه منها..

فالفراولة أصبحت في حجم البرتقال..

ولكنها فقدت الطعم الشهي، والرائحة الجذّابة..

والطماطم فقدت حلاوتها..

والخيار فقد طراوته..

باختصار لم يعد أي شيء كما كان..

وعلى الرغم من هذا فالعلماء لم يتعلموا الدرس، ولم يتوقفوا عن المحاولة..

وهذا عيب العلم.. وميزته..

لقد واصلوا محاولاتهم لإنتاج خضروات وفواكه كبيرة الحجم ولذيذة الطعم في آنٍ واحدٍ..

وما زالوا يحاولون..

وفي خلال مشوارهم هذا أنتجوا عبر هندسة الوراثة عشرات النباتات الجديدة..

والمحسنة..

وبينما نكتب هذه السطور يسعون هم لإنتاج سلالة نباتية جديدة تنمو كنبات الطماطم فوق التربة، في حين تمتد جذورها لتتبتت ثمرة بطاطس في النبات نفسه..

وليس من العسير أن نجحوا في هذا..

وفيما يفوقه أيضًا..

عندما يأتي الغد..

وهذا التطور في عالم النبات يواكبه تطوّر أكثر إثارة في عالم الحشرات والحيوان؛ ففي البداية وأثناء مرحلة التجارب العشوائية وتحديد ماهية جينات بعينها بدأ العلماء تجاربهم على الحشرات، وعلى الصراصير المنزلية بالتحديد..

ومن خلال عملية قص ولصق الجينات نجحوا في استنباط سلالة جديدة منها..

وبكل شغف العلماء راحوا يدرسون سمات السلالة الجديدة..

كانت أكبر حجمًا، وأكثر قدرة على احتمال التقلبات المناخية..

هذا ما بدا ظاهريًا..

حتى حدثت مصادفة مخيفة..

مصادفة أشبه بأفلام الرعب..

فذات ليلة قاد سوء الطالع فأرًا إلى الصندوق الزجاجي الذي يضم سلالة الصراصير المنزلية الجديدة..

ولأنه اعتاد تفوقه؛ فقد تجاهل تلك الحشرات التي بدت له مألوفة عديمة الضرر.. ولكن السلالة الجديدة كانت تختلف..

لقد انقضت عليه..

وحاصرته..

والتهمته..

نعم.. المصادفة أثبت أن السلالة الجديدة آكلة لحوم..

مفترسة..

ومع حالة الهلع التي أصابت العلماء أدركوا مدى خطورة ما أنتجوه خاصة لو نجح زوج من الصراصير المفترسة في الفرار من المعمل عبر بالوعة ما..

ستصبح حتمًا كارثة..

لذا تم اتخاذ قرار بإعدام السلالة الجديدة كلها..

بلا رحمة..

أو بمنتهى الحرمة.. بالبشر..

التجربة كانت رهيبة..

ومخيفة..

ومحبطة..

ولكنها لم توقف العلماء..

وواصلوا تجاربهم..

وأخطأهم..

ويتعلمون منها كل جديد..

وفي المرة التالية أنتجوا فئرانًا عملاقة..

ثم زواحف مائية..

وأدركوا أنهم قد كسروا الحاجز وأصبحوا على الطريق الصحيح أخيرًا..

ومع نجاحهم تفجّرت أحلامهم إلى أقصى حدودها..

حلموا بإنتاج كائنات جديدة..

ومثيرة..

وأسطورية..

ولكن واجهتهم عقبة رئيسية كبرى..

صعوبة المزج بين جينات مختلفة من كائنات غير متماثلة..

وكانت هذه العقبة تحد من أحلامهم..

وخيالاتهم..

وطموحاتهم..

ولكن العلماء أبدًا لا ييأسون؛ لذا فقد واصلوا المحاولة بكل الإصرار حتى تجاوزوا الحاجز في منتصف تسعينيات القرن العشرين..

وهنا بدأت مرحلة جديدة من لعبة الجينات..

مرحلة أكثر أهمية وخطورة..

بكثير.

\*\*\*

في عام 1940م وعندما اشتعلت أوروبا كلها بالحرب العالمية الثانية، وعشق الشعب الألماني (أدولف هتلر) ورفعته إلى مصاف الآلهة، وضع عالم ألماني مغمور نظرية علمية طبية جديدة أطلق

عليها اسم (الاستنساخ)..

كان هدفه الأوّل من نظريته تلك هو البحث عن وسيلة لتخليد الزعيم أو الفوهرل العظيم كما كانوا يطلقون على (هتلر) آنذاك عن طريق صنع عشرات أو حتى مئات النسخ من شخصيته المسيطرة..

ولقد بدت تلك النظرية منطقية أيامها..

ولكنها غير قابلة للتنفيذ..

مما سيفعله ذلك العالم وفقاً لنظريته هو أن يأخذ خلية منوية من الفوهرل ويقوم بزرعها في بويضة بشرية، ثم قتل صفاتها الوراثية بتعريضها إلى الأشعة فوق البنفسجية..

وداخل البويضة سيسعى الحيوان المنوي للانقسام بعد أن يفشل في إيجاد سمات جينية يتزاوج معها..

وهكذا سينمو جنين جديد بصفات وراثية منفردة..

صفات الأب وحده..

والأب هنا هو الفوهرل: (أدولف هتلر)..

وكان من الطبيعي أن تروق الفكرة للزعيم النازي؛ فكرة إنتاج جيش كامل يدين له بولاء لا ينفصم..

ولاء المتل..

ومن المؤكّد أنه قد حلم بألمانيا كلها هتلر..

الشكل نفسه..

والهيئة..

والسمات الجسدية..

والعقلية..

بل والطموح نفسه..

ومع نرجسيته التي تخلفها الزعامة في المعتاد أصدر (هتلر) أوامره بتحويل النظرية إلى حقيقة..

وانطلق الكل لتنفيذ أوامر (هتلر)..

العلماء درسوا الفكرة..

وحسبوها..

وحللوها..

وأثبتوا أنها ممكنة جدًا..

ليس عبر خلية منوية، وإنما من خلال أية خلية من خلايا الجسم البشري باستثناء كرات الدم الحمراء..

وسعد (هتلر) جدًا بنتائج دراساتهم..

ثم كانت الصدمة..

فالنظرية صحيحة تمامًا وممكنة نظريًا.. وليس عمليًا!

التكنولوجيا المتوفرة لا تكفي لصنع هذا، ولا حتى لبلوغ بداياته..

وغضب الفوهرل..

وانعكس غضبه على كل من حوله، وحتى على قراراته العسكرية..

لذا كان من الضروري إرضائه بأي ثمنٍ كان.

وراح العلماء يعيدون دراسة الموقف مرة ثانية..

وثالثة..

ورابعة..

وعلى الرغم من أن استحالة تنفيذ الفكرة لم تتغيّر إلا أنّ العلماء أخبروا الفوهرل أنهم قد وجدوا الحل..

وعادت السعادة إلى الفوهرل وأصدر أوامره مرة أخرى بالتنفيذ..

بل ومنح المشروع رعايته ومبلغًا ضخماً كتمويل مستمر..

ولعام كامل تابع (هتلر) الأبحاث والعلماء يخدعون..

ويخدعونه..

ويخدعونه..

ولكن تمويله وأبحاثهم وضعاً معاً اللبنة الأولى لأخطر علم في العصر الحديث؛ علم الاستنساخ.

واحتدم وطيس المعركة..

ونسي (هتلر) أمر الاستنساخ..

وسقط الرايخ الثالث..

وانهارت (ألمانيا)..

وانتحر (هتلر) وقادته..

وبقي الاستنساخ كقنبلة موقوتة غفلَ عنها العالم لعقود طويلة، قبل أن تتفجّر فجأة في تسعينيات القرن العشرين..

وبعنفٍ.

\*\*\*

فجأة أعلن العلماء أنهم قد توصلوا إلى استنساخ حيوان ثديي..

واتسعت عيون العالم كله في انبهار..

ففي تلك التجربة تم تخصيب بويضة أنثى حيوان بخلية منتزعة منها شخصياً ما أسفر عن إنباب نسخة طبق الأصل من الأم..

وبدون أب..

وهنا بلغ العبث بالكائنات الحية مبلغه..

وولد علم جديد..

مثير..

وخطير..

إلى أقصى حد..

والخطورة هنا تكمن في أنه ولأول مرة في التاريخ ينشأ كائن حي من أنثى فقط..

وبدون ذكر..

ولقد احتقت الجمعيات النسائية بهذا الخبر على نحو مدهش ومثير للعجب أيضًا وكأنما ما حدث انتصار للإناث على الذكور وإثبات أنهن أصل الحياة، على الرغم من أن الأصل هو آدم وليس حواء!

وبغض النظر عن أيهما المنتصر وأيهما المهزوم فهي هزيمة للجنس البشري كله وليست انتصارًا..

إلا للعلم..

العلم الذي منح الأمل لبعض من حُرِّموا من نعمة الإنجاب..

بعض الأمل..

فعمليات الاستنساخ لا تنجح دومًا بنسبة مائة في المائة بل إن أكثر النتائج تفاؤلاً تشير إلى أن نسبة نجاحها واحد لكل ثلاثين..

هذا لو نجحت..

ففي كثير من الأحيان ترفض البويضة الانقسام بعد تخصيبها بالخلية الحية ولأسباب غير معروفة..

على الأقل لهم..

ولقد أثبت الاستنساخ أنه من الممكن علميًا الاستغناء عن الرجل إذا ما حتمت الظروف لاستمرار الجنس البشري..

ولكن العالم سيصبح عندئذ بلا ذكور..

على الإطلاق..

وربما يُرضي هذا الجمعيات النسائية!

ربما..

ولكنه يثير هنا عددًا من القضايا الشائكة..

وشديدة التعقيد..

وأول قضية مطروحة هي علاقة الجنين بالأم التي ستتجبه!

أهو توأم لها..

أم ابن..

أم ماذا؟!!

كيف يرثها؟!!

وما الاسم الذي سيحمله؟!!

قضية مربكة تحتاج إلى آراء علمية وفقهية واجتماعية عجز الكل عن إجابتها، ما دعا كل الدول إلى إصدار دساتير وقوانين طبية خاصة تمنع استنساخ البشر..

مهما كانت هويتهم..

ومهما كان الثمن..

ولكنها قوانين محكوم عليها بالفشل..

أو هكذا نتصوّر..

\*\*\*

تصوّر معي طاغية يحكم دولة ديكتاتورية بالحديد والنار، وكل من حوله يؤلّفه ويغرس في نفسه أنه المُلهم والمعلم وأنه لا حياة لبلاده من دونه..

وتصوّر معي أنه يمتلك سُلطة مطلقة..

وإمكانيات بلا حدود..

وتكنولوجيا تستنزف كل دخل دولته..

فهل تعتقد أنه سيلتزم بقوانين حظر استنساخ البشر؟!!

الواقع أن الجواب هو حتمًا كلا..

وألف كلا..

إنه سيفعل نفس ما فعله هتلر، وسينشئ أكبر وحدة استنساخ في التاريخ ليصنع من خلاياه جيشًا كاملاً يدين له بالولاء..

السؤال الآن هو: هل يمكن أن ينجح في هذا؟!!

من ناحية العلم البيولوجي والتكنولوجيا، لا يوجد ما يمكن أن يمنعه من هذا..

ولكن هناك عقبتان كبيرتان أمامه..

الأولى اجتماعية بحتة..

فالإنسان ليس نتاج جيناته وحدها..

إنه نتاج بيئته أيضًا..

وبمعنى أوضح قد تقلح عملية استنساخ الجيش بيولوجيًا..

ولكن تفشل اجتماعيًا..

فالنسخ التي ستنشأ ستنمو في بيئة مختلفة تمامًا عن البيئة التي نشأ الأصل فيها.

وهذا يعني أنها ستعرض لمؤثرات مختلفة..

ومتغيرة..

ومتعددة..

ومن المحتمل جدًا أن تنشأ بسمات وصفات مغايرة للأصل، أو حتى متعارضة معه..

ثم إن الإنسان وفقًا للدراسات الاجتماعية ليس وليد الوراثة والبيئة فقط وإنما هناك ما يعرف أيضًا بالتفاعل مع البيئة..

وكل شخص حتى ولو تشابهت وتطابقت جيناته مع الآخرين، يمر حتمًا بتجارب وخبرات شخصية تُغيّر نظام تفاعله مع البيئة المحيطة..

إذا فالجيش الذي سيستسخه الديكتاتور لن يصبح نسخة طبق الأصل منه..

ولن يدين له بالولاء التام كما يتصور..

بل قد ينقلب عليه..

وبمنتهى العنف..

وقد يصبح السبب في سقوطه..

وانهياره..

ومصرعه أيضًا..

وهذا جزاء عادل للعبث بالطبيعة..

وهذه ليست العقبة الوحيدة بل هناك عقبة أكثر خطورة..

عقبة بيولوجية و..

ولهذا حديث مستمر.

\*\*\*

مشكلة المشاكل في لعبة الاستساخ هذه هي أننا نتعامل مع خلايا حية..

خلايا لها طبيعتها..

ونظامها..

وذاكرتها أيضًا..

فالخلية البشرية تمتلك في مكان ما منها ذاكرة قوية للغاية..

ليست الخلايا البشرية وحدها بل كل الخلايا الحية..

فنحن ننزع الخلية من كائن ما ونزرعها في بويضة ويتم تخصيبها..

وتتمو..

وتتمو..

وتصبح كائنًا جديدًا..

ويولد ذلك الكائن أيًا كانت ماهيته وخلاياه تحمل ما اكتسبته من خلية الأصل..

وذاكرتها..

والمشكلة هنا ليست في أن الكائن الجديد سيتذكر كل أو بعض ما كان يعرفه القديم، وإن أثبتت التجارب على الفئران المستنسخة هذا، ولكن المشكلة الأكبر في أن الخلايا الجديدة ستحمل ذاكرة الخلايا القديمة..

ذاكرتها العُمرية..

وبمعنى أكثر وضوحًا؛ فالكائن المستنسخ الجديد سيُولد على نحوٍ طبيعيٍّ..

ويبدأ في النمو كذلك على نحوٍ طبيعيٍّ..

ثم فجأةً تتذكر الخلايا عمرها الأصلي..

وهنا يشيخ الكائن الجديد..

ويشيخ..

ويشيخ..

ولو أنه كائن بشري فربما يعاني من أمراض الشيخوخة في العشرينات؛ لمجرد أن خلية الأصل قد أخذت من رجل في الخمسين!

وهذا التدهور يحدث فجأةً ودون مقدمات..

الكائن يبدو في ريعان شبابه اليوم..

ثم يبدأ شيخوخته غدًا..

وعادة ما تتدهور الحالة بسرعة، حتى إن الوفاة قد تحدث في أوائل الثلاثينيات..

وبالشيخوخة..

ولقد فوجئ علماء الاستنساخ بهذه الحقيقة المرة بعدما تصوروا أنهم قد سيطروا على الخلية البشرية وأمكنهم تطويعها لأمرهم..

وكانوا يستحقون هذا..

ولكن عيب ومزية العلماء هي أنهم لا يستسلمون أبدًا..

ولا يعرفون لليأس سبيلًا..

لذا فهم يقاومون..

ويدرسون..

ويطوّرون..

ويدركون الآن أن العبث بالطبيعة ليس أمرًا سهلًا مهما أوتوا من العلم..

وحتى يتوصلوا إلى علاج لذاكرة الخلية؛ مما قد يعني فتحًا في علم مقاومة الشيخوخة بشكل عام؛ فقد بدأوا دراسات جديدة حول موضوع الاستنساخ نفسه من منطلق آخر..

فلماذا يسعون لاستنساخ كائن كامل؟!

لَمْ لا يحاولون استنساخ ما يريدونه منه فقط؟!

وخاصة في عالم يعاني من نقص الأعضاء وتطور علم ذراعتها..

لذا فمع تساؤلهم بدأوا مشروعًا جديدًا يحتاج إلى حديث آخر..

\*\*\*

بعد كل المصاعب التي واجهها العلماء في سبيل تطوير علم الاستنساخ، ومع القوانين الصارمة التي أقرتها معظم الدول بشأن منع استنساخ البشر، ولأن فضول العلماء يفوق دومًا كل القوانين والمحاذير؛ فقد فكر العلماء في وسيلة ما للالتفاف حول المحظورات وتطوير معارفهم وقدراتهم..

ولأن تجارة الأعضاء رائجة جدًا في هذه الأيام فقد وانتهم فكرة جديدة..

ومدهشة..

لماذا يحاربون القوانين لاستنساخ بشري كامل؟!

لماذا لا يستسخون ما يحتاجون إليه منه فحسب؟!

خاصة وأن القانونيين كانوا حائرين للغاية في توصيف الكائن المستنسخ ومحاولة معرفة وضعه وقانونية وجوده، وهل سيعتبر توأمًا لصاحب الخلية الأصلية أم ابنًا له أمًا ماذا؟!

حتى مشكلات الميراث والتقسيم التركات أصبحت تمثل مشكلة ما دمنا نعجز عن توصيف الوريث وتحديد صلته بالمورث..

الحل يكمن إذاً من وجهة نظرهم في استنساخ الأعضاء البشرية وليس البشر الكاملين..

وبدأت التجارب بالفعل..

في البداية راحوا يسعون لاستنساخ الأكباد؛ نظرًا لما تتمتع به خلاياها من خاصية النمو؛ فأخذوا خلية كبدية واحدة واستخدموا مستحاثاتهم لدفعها إلى التكاثر والتضخم والتحول إلى كبد كامل جديد..

ونجح العلماء..

واستنسخوا الأكباد..

ولأن الأكباد المستنسخة تحمل نفس السمات والجينات الوراثية للكائن الأصلي، فقد نجحت عمليات زرعها في أصحابها نجاحًا ساحقًا..

وصرخ العلماء بهجة وحبورًا..

وبسرعة انتقلوا إلى الخطوة التالية..

القلوب..

ففي عالم الأعضاء تعتبر الأكباد والقلوب البديلة هي السلع الأكثر طلبًا والأكثر ندرة.. والشخص الذي يحتاج إلى عملية زرع قلب يضطر للانتظار سنواتٍ من الألم والمرض حتى يتوفر قلب بديل.. أما مع الاستنساخ الجزئي فالانتظار لن يدوم طويلًا..

خلية واحدة من قلبه ستكفي لاستنساخ قلب جديد.. وسليم..

قلب سيتعرفه الجسد بيسر وسهولة، وسيتعامل معه دون مضايقات أو عقبات؛ لأنه بالفعل جزء منه..

جزء مستنسخ..

ولكن القلب ليس كالكبد..

إنه عضوٌ شديد التعقيد..

ذاتيَّ الحركة..

كثير الحجرات..

لذا فتجارب استنساخ القلوب لم تتجح بعد، ولم تؤت ثمارها..

ولكن العلماء لا ييأسون ولا يستسلمون أبداً، ولا يعينهم الوقت ما داموا يسعون خلف نتائج هامة..

السؤال الوحيد الذي يؤرقهم حقاً هو: هل ستتذكر خلايا الأعضاء المستنسخة تاريخها أيضاً؟!!

لو حدث هذا ستكون كارثة..

وستنهار كل الأحلام مرة أخرى..

أحلام التفوق على الطبيعة وهزيمة الزمن والانتصار على العمر والشيخوخة..

أحلام الاستمرار..

والاستقرار..

والاستنساخ.

\*\*\*

## ثقب في الزمن

في عام 1905م أي قبل ما يزيد عن قرنٍ كاملٍ وضع العالم الفذ ألبرت أينشتاين قواعد أقوى نظرية فيزيائية في التاريخ..

نظرية قلبت علم الفيزياء رأسًا على عقب..

نظرية النسبية..

كانت مجموعة من المعادلات التي بدأت بنظرة فلسفية، وانتهت بنظرية مدهشة حار العلماء أنفسهم في فهمها وسبر أغوارها ومناقشتها مع واضعها لعدة أشهر، قبل أن تتسع عيونهم في إعجابٍ وانبهار ويعترفون بأن ذلك الضئيل الصموت الأشعث الشعر الذي يبدو وكأنه نسي وجود الحياة نفسها قد قلب قوانين الكون المعروفة – آنذاك - رأسًا على عقب، وأنه قد بدأ عصرًا علميًا جديدًا بلا منافس..

وبكل شغف العلماء راحوا يدرسون نظريته وينبهرون بها وبمعادلاتها أكثر وأكثر..

وكلما تعمقوا فيها كان انبهارهم يتضاعف أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

ومعارفهم تتزايد..

وتتضاعف..

وتتضخم..

وتقوى..

وصفق العلماء لألبرت أينشتاين واعتبروه معجزة العصر، وتأكدوا من العديد من معادلاته ثم توقفوا أمام نقطتين عسيرتين في نظريته..

انحناء الضوء..

والسفر عبر الزمن..

فالقاعدة الأساسية في علم الفيزياء في ذلك الحين كانت تؤكد أن الضوء يسير في خطوط مستقيمة مهما طال أو امتد وأياً كان الوسط الذي يمر به..

ولكن نظرية أينشتين خالفت هذا..

بل ونسفته نسفاً..

فوفقاً للنظرية يمكن أن ينحني الضوء لو مرَّ إلى جوار مصدر إضاءة شديد القوة..

ولتوضيح هذا أكد أينشتين أننا لو قمنا برصد مواقع النجوم أثناء ظهور الشمس فسنجد أنها ستتغير بمقدار حدده في معادلاته؛ لأن ضوءها سينحني مع مروره بالشمس التي هي أقوى مصدر ضوئي معروف..

وكان من العسير التيقن من صحة نظرية أينشتين ومعادلاته مع استحالة رصد مواقع النجوم في وجود الشمس..

ولكن العلماء وجدوا طريقة لهذا..

ففي أثناء كسوف كلي للشمس في جنوب أفريقيا، قام فريق من العلماء برصد مواقع النجوم..

وأثناء وجود الشمس..

وكانت أكبر مفاجأة..

لقد أثبت رصدهم أن الضوء ينحني بالفعل عند مروره بالقرب من الشمس..

وصحت نظرية أينشتين وتغيرت مواقع النجوم وأدركنا كم هو مبهر أن نقرأ منذ أربعة عشر قرناً من الزمان قول الله (سبحانه وتعالى) في سورة (الواقعة) من كتابه الكريم بسم الله الرحمن الرحيم: «فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسام لو تعلمون عظيم» صدق الله العظيم.

وانبهر العلماء أكثر وأكثر وأجلوا أينشتين الذي حصل على جائزة نوبل في العلوم عن نظريته العبقريّة..

والتي بقي جزء منها دون تفسير أو تطبيق وإثبات عملي..

السفر عبر الزمن..

فالفكرة مبهرة وجذابة ومثيرة للخيال إلى أقصى حد، خاصة وأن آينشتين قد اعتبر الزمن هو البعد الرابع للمادة..

ولأنه بُعد، ولأن كل الأبعاد يمكن التحرك فيها أمامًا وخلفًا؛ فوفقًا لنظريته يمكننا أن نسافر عبر الزمن إلى المستقبل القريب..

أو البعيد..

أو حتى إلى الماضي السحيق..

ومجرد التفكير في هذا فجّر خيال الأدباء والعلماء والفنانين..

وحتى العامة..

وجاء رد الفعل مدهشًا للغاية عند كل منهم و..

ولهذا رواية أخرى.

\*\*\*

أول من طبق فكرة السفر عبر الزمن هم الأدباء كالمعتاد؛ لأن الخيال يبدأ دومًا قبل الواقع، ويمكنه أن ينطلق إلى أبعد الحدود بقفزة واحدة دون الحاجة إلى سنوات من الدراسة والتجارب والجهد والعذاب..

ولهذا كان (هـ.ج. ويلز) أول من سافر عبر الزمن في روايته الشهيرة (آلة الزمن) التي تنبأ فيها بما يمكن أن يكون عليه العالم في المستقبل البعيد..

وفي روايته استخدم (ويلز) ما أسماه بآلة الزمن دون أية تفاصيل علمية دقيقة بالفعل..

وأطلق خيال العلماء بلا حدود..

فمن الناحية العلمية كانت لديهم نظرية قوية تؤكد أن السفر عبر الزمن ممكن، وإلى المستقبل أو الماضي. أما من الناحية الفلسفية؛ فقد كان هذا يزعج العديدين ويربكهم ويدفعهم إلى رفض الفكرة بمنتهى العنف وكأنهم يدافعون عن وجودهم هم وليس عن مبدأ علمي يتبنونه!

ولكن العلم لا يدحضه إلا العلم..

ولا يوقفه الغضب أو التعنت أو حتى الثورة..

لذا فقد ألقى العلماء كل الاعتراضات خلف ظهورهم وراحوا يبحثون عن قواعد ونظريات السفر عبر الزمن، وعبر ما أطلقوا عليه اسم (الزمكان)؛ أي عبر الزمان والمكان معًا..

ولم يكن هذا بالأمر السهل أو البسيط..

لقد استغرق منهم سنوات..

وسنوات..

وسنوات..

وخلال تلك السنوات تقجّر خيال الأدباء والفنانين، وبلغ ما لم يحلم به حتى أعلم العلماء..

لقد سافروا عبر الزمن إلى الماضي والمستقبل وعبثوا بالتاريخ وغيروا وبدلوا الأحداث ونسبوا إلى البعض فضل ما نحن عليه..

والعلماء يتابعون هذا في صمت..

ودأب..

وإصرار..

وفي بداية التسعينات حقّقوا أول إنجاز عملي في هذا المضمار عندما أطلقوا إلكترونًا واحدًا عبر الزمن ليسجل وصوله إلى الهدف قبيل انطلاقه من المصدر بأجزاء من الثانية..

وكانت تلك الأجزاء من الثانية فتحًا ضخماً في عالم الفيزياء، ليس لأنها مجرد أجزاء من الثانية، ولكن لأنها الدليل العلمي والعملي الأوّل الذي يثبت أن السفر عبر الزمن ممكن..

وإلى الماضي أيضًا..

وفي العلم لا يهم كم جزءًا من الثانية فزت به، بل المهم هو هل يمكنك هذا أم لا.

فمن وجهة نظر العلم أن الطائرة الأولى قد ارتفعت عن الأرض؛ لتثبت أن الطيران ممكن، وبعدها راحت تتطوّر وتتطوّر حتى بلغت سرعتها ثلاثة أضعاف سرعة الصوت، وبلغت إمكاناتها ألف ضعف لما كانت عليه..

المهم إذًا هو البداية..

والمبدأ..

ولقد تحققا..

ومع الوقت ستتطور أجزاء الثانية هذه إلى ثوانٍ كاملة..

ثم دقائق..

وساعات..

وربما أيام وأسابيع وشهور وسنوات فيما بعد..

ولا تجعل هذا يدهشك أو يثير استهجانك أو استتكارك فهذا هو العلم..

الاستنساخ بدأ لنا يوماً أشبه بخرافة غير قابلة للتصديق ثم أصبح حقيقة واقعة تحيط بنا ونسمع ونقرأ عنها كل يوم..

بل كل لحظة..

ومن يدري؟! ربما يصبح هذا حال السفر عبر الزمن أيضاً في يوم قريب.. أو حتى بعيد..

والواقع أن العلم ومنذ تاريخ إطلاق ذلك الإلكترون اليتيم إلى الماضي قد تطور على نحوٍ مدهش في مجال السفر عبر الزمن، ووضع عدة نظريات جديدة، ووجد أيضاً عدة سُبل جديدة على الأرض..

وفي قلب الفضاء..

\*\*\*

في أفلام الخيال العلمي القديمة كنا نفغر أفواهنا مبهورين عندما يقرّر قائد سفينة الفضاء الضخمة نقل أحد أفراد طاقمه إلى مكان آخر فيوقفه داخل أسطوانة وهمية ويهبط عليه من أعلاها شعاع ناقل؛ فيختفي ليظهر فوراً في محطة الوصول..

كلنا رأينا هذا..

وكلنا انبهرنا به..

أما العلماء فلم يكتفوا بالانبهار..

لقد درسوا الفكرة وناقشوها وطرحوا سؤالهم الشهير الذي يعتبر دومًا أول الخيط في طريق التقدم العلمي..

أهذا ممكن؟!!

فما نراه نحن مجرد خيال يتوقفون هم أمامه طويلًا ويحاولون ربطه بعدد من النظريات العلمية المعروفة أو ابتكار نظريات جديدة غير معروفة يمكن أن تتوافق معه..

ولأنه هناك بعض الدول التي لا تتردد في رصد ميزانيات ضخمة للبحث العلمي حتى ولو كان حول فكرة ظاهرة الخيال فقد وجدت مجموعة من العلماء نفسها أمام مشروع بحثي كبير أطلق عليه اسم (الانتقال الآني)..

والمصطلح يعني انتقال الأجسام والأجساد من مكان إلى آخر عبر مسافات شاسعة في التو واللحظة..

أو بمعنى أكثر بساطة الانتقال الآن وفورًا من بقعة إلى أخرى مهما بلغت المسافة بين البقعتين..

والفكرة تبدو للوهلة الأولى خيالية أكر من اللازم لو نظرنا إليها من خلال عالم ثلاثي الأبعاد..

ولكن ماذا عن عالمنا الرباعي الأبعاد؟!!

فعلميًا ووفقًا لنظرية (ألبرت آينشتين) التي حصل بسببها على جائزة (نوبل) عام 1915م يتكون عالمنا من الأبعاد الثلاثة الأساسية.. الطول والعرض والعمق إضافة إلى البعد الرابع وهو الزمن..

والزمن كما يقول (آينشتين) نسبي تمامًا ويمكننا أن نتحرك فيه في كل الاتجاهات أمامًا وخلفًا و..

وربما عمقًا أيضًا..

وعبر فكرة الانتقال الزمكاني العمقي وجد العلماء أن الانتقال الآني ليس خيالًا محضًا..

إنه حقيقة علمية..

حقيقة لم يحسمها الزمن بعد..

ومن هنا بدأ مشروعهم العملاق في منتصف سبعينات القرن العشرين..

في البداية حاولوا صنع الجهاز القادر على تكبيك ذرات أي جسم ونقلها عبر الهواء أو عبر وسيط آخر من نقطة الانطلاق إلى نقطة الهبوط..

أياً كانت المسافة بينهما..

واستغرق هذا سنوات..

وسنوات..

وسنوات..

وعبر كل تلك السنوات لم تتوقف تجارب العلماء لحظة واحدة..

وفي النصف الأول من تسعينات القرن العشرين أي بعد ما يقرب من عشرين عاماً تمت أول تجربة ناجحة في مجال الانتقال الآني..

قطعة صغيرة من النحاس في حجم عملة بسيطة نجح العلماء في نقلها من حجرة إلى أخرى مجاورة خلال لحظة واحدة وعبر أنبوب من الألياف الزجاجية مفرغ من الهواء تماماً..

ويومها تنفس العلماء الصعداء..

فنجاح تلك التجربة البسيطة كان يعني أن نظرياتهم صحيحة..

وأن الفكرة قابلة للتطبيق..

وكما يحدث دوماً في تاريخ العلم ما أن يلتقط العلماء طرف الخيط حتى تتزايد سرعتهم بحركة تصاعدية ممتدة..

لذا ففي 1996م نجحت أول تجربة في نقل عملة من البرونز بكل ما عليها من نقوش ورسوم عبر مبنى كامل من خلال الأنابيب المجوّفة خالية الهواء..

في البداية كانت العملة تنتقل مشوّهة أو معكوسة!! ولكنها في تلك التجربة ولأول مرة انتقلت سليمة..

وكان هذا أفضل ما حققه العلماء في مشروع الانتقال الآني..

حتى هذه اللحظة..

فكل تطوير لذلك النجاح الأولي باء بفشل ذريع..

كل محاولات نقل أجسام مركبة انتهت بكارثة إذ إن أجزاء الجسم المنقول تتداخل وتتشابك أو تتحوّل إلى كتل معدنية غير متميّزة..

وهذا أوصل العلماء إلى حقيقة واحدة..

الانتقال الآني ناجح فقط بالنسبة للأجسام البسيطة المصنوعة من معدن أو خامة واحدة..

نقل الآلات مستحيل!..

ونقل الكائنات الحية غير وارد..

على الأقل في زمننا هذا..

ولكن العلماء لا يتوقفون..

ولا يستسلمون..

فقد كسروا القانون بقانون جديد ولن يتوقفوا حتى يضعون قواعد قانونهم الجديد خاصة وأن أخطاء تجاربهم قد قادتهم إلى كشف أكثر إبهاماً..

أكثر بكثير..

\*\*\*

العالم الروسي (شيرنوبروف) كان أحد أفراد فريق العلماء الذين بذلوا الكثير من الجهد والعرق واستنزفوا عسارة عقولهم؛ للتعامل مع مصطلح (الزمكان)..

و(الزمكان) هذا ليس مصطلحاً جديداً وإنما يعود عمره إلى مائة سنة عندما قدم (ألبرت آينشتين) ذلك العالم اليهودي الديانة الألماني المولد الأمريكي الجنسية نظريته الشهيرة المعروفة باسم النسبية الخاصة..

فلأول مرة أيامها وعلى عكس كل من سبقوه أكد (آينشتين) أن الزمن ليس شيئاً مطلقاً وإنما هو نسبي..

والنسبية هنا معنى دقيق وعسير ومعقد للغاية لذا فقد وصفه (آينشتين) في عبارة اجتماعية أدبية عندما قال: «اجلس نصف ساعة فقط فوق موقد مشتعل وامنحني نفس الفترة مع فتاة حسناء وانظر كيف سيمر الوقت على كل منا!!».

عبارته كانت طريفة ومعادلاته صحيحة مركبة ونظريته صدمة للعالم كله..

ثم بدأت التجارب تثبت صحتها..

وبدأ العلماء ينتبهون إلى الزمن..

وكما يحدث دومًا بدأ الأبد اللعبة براوية (آلة الزمن) للمبدع (ه.ج. ويلز) والتي تحدث فيها عن عالم اخترع آلة سمحت له بالقفز آلاف السنين في المستقبل ليشاهد ما تطوّر إليه العالم من منظور اجتماعي بحت..

ووفقاً لنظرية النسبية وعبر معادلاتها المحضة فهذا شيء يمكن حدوثه (علمياً) إلا أنه لم يطبق عملياً قط..

بل ولم يحاول مخلوق واحد تطبيقه خلال عشرات السنين..

حتى جاء ذلك العالم الروسي (شيرنوبروف)..

في البداية راح (شيرنوبروف) يدرس فكرة الزمن ويضع ما يعرف باسم (فلسفة السفر عبر الزمن)؛ حيث وجد أنه لو نجح مخلوق ما في التجوّل عبر الزمن بنفس الصورة التي تحدث في أفلام الخيال العلمي فسيعني هذا امتلاكه لقدرات شبه إلهية..

هذا لأن ذلك الشخص (الوهمي) سيجد نفسه وسط أحداث تعتبر بالنسبة لزمّنه الفعلي مجرد تاريخ..

وستكون لديه القدرة على متابعتها..

والتدخل فيها..

وتغييرها..

وهنا تكمن الخطورة..

بل الكارثة..

فلسفياً سينهار التاريخ كله وتتغيّر أحداث جسام ويتوغل أصحاب النفوذ والسطوة عبر الزمن ليفسدوا كل شيء فيه وليجندوا تاريخه لحسابهم ولحساب مصالحهم..

ورغباتهم..

وطموحاتهم..

لذا فقد توصل (شيرنوبروف) من خلال فلسفته فقط إلى حقيقة تخالف نظرية النسبية نفسها..

فالسفر إلى زمن مضي.. مستحيل!..

صحيح أن التجارب المعملية قد نجحت منذ عشر سنوات في إطلاق إلكتروني واحد عبر الزمن وبسرعة تفوق سرعة الصوت ثانية واحدة إلى الماضي، حتى إنه قد أصاب هدفه (وفقاً لما سجلته الأجهزة بالغة الدقة) قبل أن ينطلق فعلاً من مصدره!!

وبالطبع سيدهشك هذا..

ويزعجك..

وربما يقلقك أيضاً..

ولكنه حدث..

ويحدث..

وسيظل يحدث..

فهكذا الحقائق العلمية ما إن تجد طريقها على خريطة الحياة حتى لا تتراجع مرة ثانية قط..

ربما تتطور..

وتتحسن..

وتتجمل..

ولكنها تظل حقيقة..

وعلمية..

لذا فالسفر إلى الماضي عبر نظرية النسبية أصبح حقيقة..

ولكن لإلكترون منفرد وحيد..

ولقد درس (شيرنوبروف) هذه التجربة..

وقيمها..

وراجعها ألف مرة..

ثم طرحها جانباً..

فوفقاً لفلسفته ولقوانين (آينشتين) نفسها والتي تربط السرعة الفائقة بانخفاض الحجم وزيادة الكثافة فالجسم الحي.. أي جسم حي لا يمكن أن يحتمل السفر عبر الزمن..

أبدأ..

لذا فقد بدأ (شيرنوبروف) تجاربه من منظور جديد..

تماماً.

\*\*\*

عندما بدأ العالم الروسي (شيرنوبروف) تجاربه حول الزمن كان يدرك جيداً أنه يعرض مصداقيته كلها للخطر..

صحيح أن العلم قد أثبت قدرة إلكترون منفرد على السفر إلى الماضي..

ولكن هذا لا يكفي..

ولا حتى لبداية نظرية جديدة..

وفي تكتم تام بدأ (شيرنوبروف) تجاربه من منظور جديد تماماً..

فقد راح يصنع آلة..

آلة الزمن..

وآلته تلك كانت تختلف تماماً عن كل ما رأيناه على شاشات السينما وما قرأنا عنه في روايات الخيال العلمي المثيرة..

كانت آلة تتعامل مع الكثافات المختلفة للمادة..

وفي معمل صغير أنتج (شيرنوبروف) أول آلة تختلف كثافة مادتها من الداخل عن كثافتها من الخارج، وتتعامل مع مجالات كهرومغناطيسية قوية مركزة..

وداخل آله وضع عددًا من الساعات الذرية..

ثم أدارها..

وانتظر..

وبعد ساعة واحدة بالضبط أوقف (شيرنوبروف) آله، وأخرج تلك الساعات الذرية منها..

ثم صرخ بكل فرحة وسعادة الدنيا..

فقد كان على حق..

الساعات داخل الآلة تأخرت أربعين ثانية عن الساعات خارجها..

أي أنها قد ربحت أربعين ثانية..

وسافرت عبر الزمن..

إلى المستقبل..

وعلى الرغم من كل ما يمكن أن تثيره أربعون ثانية في نفسك من سخرية، فإنها كانت أعظم فارق زمن في تاريخ العلم كله..

فارق أثبت أن السفر عبر الزمن ممكن..

أو أن التحكم في الزمن نفسه ليس مستحيلًا..

وبالنسبة للعلم كان هذا طرف الخيط فحسب..

فما دام السفر عبر الزمن ممكنًا من الناحية العلمية؛ فكل المطلوب هو مط الفارق الزمني..

وتحسينه..

وتطويره..

ونقله إلى مرحلة جديدة..

مرحلة سفر أجسام مركبة مثل آلات التصوير..

أو أجهزة الرصد..

أو الميكروكمبيوتر..

وبعدها ربما بربع قرن فقط ستأتي مرحلة نقل الكائنات الحية إلى المستقبل القريب..

ربما لعام كامل..

أو حتى بضعة أشهر..

المهم أن الحاجز بيننا وبين الزمن قد انكسر..

وفي مؤتمره العلمي عام 1997م أعلن (شيرنوبروف) عن اختراعه لأول آلة زمن..

وقوبل إعلانه هذا بمشاعر متضاربة للغاية..

بالدهشة..

والانبهار..

والاستنكار..

والتكذيب..

والإتهام أيضاً..

ولكنه عرض نظريته..

ومعادلاته..

وآلته..

وصفّق الحاضرون بقوة وهم يدركون أن العلم يبدأ مرحلة جديدة، وعهداً قد يغيّر مفاهيم الكون كله..

ولكن الآلة بدت لهم ضخمة للغاية..

والفكرة مثيرة أكثر مما ينبغي..

لذا فقد تدخلت السُلطات العسكرية، وقرّرت الاستيلاء على الفكرة (كالمعتاد)؛ بحجة حماية الأمن القومي..

ولكن (شيرنوبروف) نشر فكرته ونظرياته عبر شبكة الإنترنت في نفس الوقت الذي راح فيه فريق من العلماء يسعى لتطوير آله الزمنية عبر تكنولوجيا جديدة للغاية و...

و(شيرنوبروف) ليس الوحيد المرتبط بتجارب السفر عبر الزمن، وإنما هناك أيضًا العالم الأمريكي (بول دافيز) (Paul Davis) الذي توصل إلى وسيلة علمية جديدة ومختلفة تمامًا عن وسيلة (شيرنوبروف) للسفر عبر الزمن..

ففي جزء هامّ من نظريته النسبية تحدّث (ألبرت آينشتين) عن نظرية السفر في الفضاء بسرعات تُقارب سرعة الضوء لمسافات طويلة وذكرَ في معادلاته أنه لو كان لدينا توأمان متماثلان وأمكنا أن نرسل أحد التوأمين في رحلة فضائية طويلة بسرعة تقارب سرعة الضوء لسنة ضوئية واحدة؛ فسيعود من رحلته ليجد أن عمره قد زاد سنة واحدة في حين أن عمر توأمه قد زاد ثمانية عشر عامًا دفعة واحدة!

ونظرية (آينشتين) هذه سليمة تمامًا رياضيًا، ويوافق عليها كل علماء الفيزياء في وقتنا الحالي؛ لأنها تربط عمر الإنسان بالسرعة التي ينطلق بها جسده باعتبار أن الزمن داخل مركبة الفضاء التي سيستخدمها لقطع هذه المسافات الرهيبة سيظل بالنسبة إليه عاديًا ولا شأن له بالزمن على الأرض التي تدور حول محورها وتدور حول شمسها فحسب في إيقاع هادئ منتظم منذ ملايين السنين..

نظرية معقّدة وعسيرة الفهم والاستيعاب، ولكنها سليمة علميًا تمامًا..

وهي نفس النظرية التي اعتمد عليها (بول دافيز) في موقعه على شبكة الإنترنت والذي يفاجننا فيه بأن بناء آلة الزمن ممكن..

والواقع أن ما يقوله (دافيز) هو خدعة علمية إذ إن آله الزمنية لن يمكن تفعيلها إلا عندما ينجح العلم في إطلاق سفن الفضاء بسرعات تقارب سرعة الضوء!

وهذا ما زال مستحيلًا من الناحية التقنية.. بل والعلمية أيضًا..

إذًا فالعالم الوحيد الذي يستحق التوقف عنده علميًا هو ذلك الروسي (شيرنوبروف) وحده..

وهو الأمل العلمي الوحيد في تحقيق السفر عبر الزمن الذي تنبأ به (هربرت جورج ويلز) منذ قرن وبضع سنوات..

ولكن العلماء لم يتوقفوا عند فكرة الزمن عند حدود الأرض فقط..

بل انطلقوا بها أيضًا إلى الفضاء ..

ولهذا حديث آخر ..

\*\*\*

الفضاء ..

مصطلح يُطلق في العقول والأذهان ألف خيال وخيال ..

وألف ألف فكرة ..

ومنذ الأزل شغف الإنسان بالفضاء من قبل حتى أن يعرف ماهيته إذ بدت له السماء بنجومها الزاهرة في الليل تحفة للأبصار والأفئدة، تطلع إليها وكتب فيها الأشعار وتصور بمفهوم وثني- أنها موطن الآلهة ومستقر الأرباب ..

وعبر النجوم رأى الأقدمون طالعمهم وتابع الأحداثون أبراجهم في أعمدة الصحف والمجلات ..

وسمعنا وقرأنا عن المنجمين ..

وتساءلنا ما الذي تخفيه لنا النجوم ..

وما زلنا نتساءل ..

ولكن بمفهوم جديد تمامًا ..

فمنذ عهد كوبرنيكس تغيرت نظرة الإنسان للنجوم والفضاء وصار أكثر اهتمامًا بالبحث عن ماهيتها وطبيعتها وأسرارها ..

ومع منظار جاليليو كانت هناك فرصة للتقريب والتدقيق .

والملاحظة ..

ولأول مرة أدرك الإنسان أن القمر ليس مضيئًا وفضيًّا كما كان يتصور، وإنما هو تابع جامد مليء بالحفر والفوهات، وينعكس عليه ضوء الشمس فيضفي ذلك الجمال الذي طالما تغزل فيه الشعراء ..

ثم بدأ الإنسان يتطلع إلى ما هو أبعد من القمر فرصد الكواكب ..

الزهرة..

والمريخ..

والمشتري..

وانبهر بما علمه أكثر.. وأكثر.. وأكثر..

وكان من الطبيعي أن يُولد علمٌ جديدٌ؛ للتفرقة بين الكوكب والتابع ورصد النجوم والكواكب وحصر التوابع و..

وبدأ عصر الفضاء..

وأدرك العلماء أي عظمة تلك التي كانوا يتطلعون إليها يوماً لمجرد التأمل ومغازلة الحبيب..

ومع تطوّر علم الفضاء ومحاولات سبر أغواره، جاء ألبرت آينشتين فجأة ليقلب المنضدة على الرؤوس ويفجّر عبقرية جديدة وأفكاراً لم تخطر لبشر من قبل..

ولأول مرة ظهر مصطلح الزمكان، وربط العلم ليس بين الفضاء والمسافة فقط..

بل والزمن أيضاً..

فوفقاً لنظرية أينشتين ينكمش الزمن كلما زادت السرعة اقتراباً من سرعة الضوء التي اعتبرها في نظريته السرعة القصوى التي لا يمكن تجاوزها (وهو ما ثبت عدم صحته فيما بعد مع رصد سرعات تفوق سرعة الصوت لجسيمات كونية مختلفة)..

إذا فالسفر بسرعات فائقة في الفضاء هو سفرٌ عبرَ الزمن أيضاً!

ويا لها من حقيقة بسيطة مذهشة..

ولكنها ليست الحقيقة العلمية الوحيدة في هذا الفضاء الشاسع المتعلقة بالسفر عبر الزمن..

فهناك في غياهب الفضاء والمجهول تكمن حقيقة فضائية أخرى ما زالت تمثل تحدياً فائقاً للعلماء، ولغزاً حيّرهم سنوات عديدة..

وطويلة..

ومجهدة..

حقيقة أن الفضاء السرمدي اللامتناهي ممتلئ في واقعه وأعماقه بثقوب..

ثقوب سوداء رهيبة مخيفة و..

ولهذا حديث..

قادم.

\*\*\*

النجوم لا تبقى إلى الأبد..

فكُلُّ شيء في الوجود تكبر وتشيح و..

وتموت..

ولكن موت النجم ليس كأي موتٍ آخر..

إنه ينكمش..

ويصغر..

ويتضاءل..

وتتضاعف كثافته وجاذبيته إلى حدٍ رهيبٍ..

حد يصبح معه نقطة جذب هائلة تفوق كل تصوّر لكل ما يقع في مجاله من نجوم وكواكب ونيازك وكويكبات وشظايا..

وحتى الضوء نفسه..

ولأن شعاعًا واحدًا من الضوء لا يمكنه الإفلات منه ليصل إلى عيوننا ومرآصدنا؛ فهو يبدو لنا أشبه بثقبٍ أسودٍ شديد السواد على نحوٍ لا يدانيه أو حتى يقاربه أيُّ جسمٍ آخر في الكون كله..

ومنذ تمّ رصد أول ثقب كوني أسود طرح العلماء على أنفسهم سؤالاً محيرًا للغاية..

أين يذهب كل ما يجذبه ذلك الثقب؟!!

أين تذهب كل تلك المواد التي يواصل التهامها طوال الوقت في شراة ونهم ليس لهما من مثيلٍ دون أن يتوقف ولو لفيمتو ثانية؟!!

وفقاً للنظرية الأساسية لا شيء يفنى أو يُستحدث من عدم..

إذا فكل ما يلتهمه الثقب لا يفنى وإنما يتحوّل بدوره إلى طاقة..

ولكن الطاقة تتطبق عليها النظرية نفسها، والثقب شديد الجذب حتى إنه لن يسمح لها بالإفلات أيًا كانت صورتها..

المفترض إذاً مع اختزان الثقب لكل تلك الطاقة أن يكبر ويتعمق..

ولكنه على العكس، ينكمش..

وينكمش..

وينكمش..

هناك لغزٌ عجيب وراء هذا إذاً.. لغز تعجز القوانين الفيزيائية العادية عن تفسيره ما يعني أنه يستلزم البحث عن نظرية جديدة..

وطوال سنوات طرح العلماء عددًا من النظريات التي حاولت تفسير لغز الثقوب السوداء..

ومن بينها كانت نظرية الزمكان..

ففي تلك النظرية افترض العلماء أن الثقب الأسود هو ثقبٌ بالفعل عبر الزمان والمكان؛ أي أننا لو نجحنا في عبوره بمركبة فضائية مجهزة على نحوٍ خاصٍّ جدًا فسنجد أنفسنا في نقطة أخرى ربما تبعد آلاف السنوات الضوئية عن نقطة البداية..

وبقفزة واحدة..

باختصار أبسط: افترضت النظرية أن الكون أشبه بكرة، بدلاً من أن تقطع مسافة طويلة عبر سطحها يمكنك عبور ثقب أسود فيها لتمر عبر مادتها إلى نقطة وصول بعيدة، مخترقًا الزمان والمكان..

أصحاب هذه النظرية يؤمنون بها بشدة بل ويرون أنها قد تفسر التساؤل حول كيفية وصول كائنات عاقلة أخرى إلينا من مناطق بعيدة جدًا في الكون إذ يرون أنها فقط قد سبقتنا في رسم الخريطة الزمكانية للثقوب السوداء..

ولقد قدّم هؤلاء معادلات رياضية مقنعة جدًّا تؤيد نظرياتهم، إلا أن الآخرين.. وبالذات من يرفضون حتى الآن إمكانية السفر عبر الزمن عمليًّا، يعارضون الفكرة كلها ويؤكدون أنه لا توجد حتى أدلة قاطعة على وصول أية مخلوقات عاقلة إلينا..

وكلُّ فريق يتشبث برأيه ويقاوم لإثباته..

ووسط كل هذا، ظهر فريق ثالث تجاوزَ حالة الثقوب السوداء وراح يرصد ظواهر أخرى عجيبة ومدهشة في الكون..

ظواهر قد تشير إلى أن السفر عبر الزمكان أمرٌ ممكنٌ ليس إلى المستقبل فحسب ولكن إلى الماضي أيضًا و..

ولهذا حديث آخر.

\*\*\*

ظواهر عديدة كشفتها الأبحاث في أعماق الفضاء.. ظواهر قد تبدو أشبه بفيلم مُغرِق في الخيال إلى أقصى حدٍّ يمكن أن يقبله عقل..

ولكنها حقائق..

وحقائق علمية.. جدًّا..

ومن أشهر تلك الظواهر ما يُعرَف باسم الأنفاق الدودية..

وتلك ليست أنفاقًا بالمعنى الحرفي، ولكنها مناطق تخلخل فضائي ذات مسارات متعرجة أشبه بدودة تسير على سطح غير منتظم.. ومن هنا جاء الاسم..

ومنذ رصد العلماء تلك الأنفاق الدودية استعادوا شغفهم الشديد بفكرة السفر عبر الزمن..

هذا لأن معادلاتهم أخبرتهم أن هذا ممكن..

عبر الأنفاق الدودية..

وليس إلى المستقبل فحسب..

ولكن إلى الماضي..

والماضي السحيق..

جدًا..

فالأنفاق الدودية تحوي ما يسمى بالطاقة السلبية..

ولتبسيط الأمر أكثر، دعنا نفترض أن نقطة انعدام الطاقة هي «س»، وأن أي دفق من الطاقة يحتاج إلى إضافة علامة «+» خلف تلك الـ «س» وبعدها رقم من 1 إلى مليار مثلاً..

وكل رقم من هذا يمثل مقداراً من الطاقة الإيجابية..

أما في حالة الطاقة السلبية؛ فنحن نستبدل علامة «+» بعلامة «-»..

وهنا ستصبح الطاقة التي لدينا سلبية وليست إيجابية..

وهذا أمرٌ عسير على الفهم والاستيعاب بالنسبة للشخص العادي، إلا أنه أمرٌ واضحٌ ومفهومٌ وعلمي تماماً بالنسبة لأي دارس لعلم الفيزياء..

والطاقة السلبية هذه هائلة، ويحتاج توليدها إلى جهدٍ يفوق بآلاف المرات ما يحتاجه توليد طاقة إيجابية، مما يمنحها هذه السمة المميزة لنقلنا عبر الزمن إلى الماضي..

ولكن الأمر ليس بالبساطة التي حملتها هذه الأسطر القليلة..

فكل الأجسام المعروفة في عالمنا هذا لا يمكنها احتمال الطاقة السلبية..

لا البشر ولا الآلات ولا حتى أقوى المعادن..

فكلُّ شيءٍ هنا يحوي طاقةً إيجابية..

ولكي يستمر وجوده لا بُدَّ وأن يحتفظ بتلك الطاقة الإيجابية..

والمرور عبر نفق من الطاقة السلبية سيمتص حتماً كل الطاقة الإيجابية في أي جسم..

وهذا يعني فناءه..

وربما تلاشيهِ..

إلى الأبد..

وللوهلة الأولى سيبدو هذا وكأننا نؤكد استحالة عبور الأنفاق الدودية إلى الماضي..  
ولكن العلماء يقولون ويؤكدون أن الأمر ليس كذلك على الإطلاق..  
فمنذ قرن واحد كان أمام العلم التحدي نفسه بالنسبة لعبور الغلاف الجوي والخروج إلى الفضاء..  
ولكن العلم تصدى للمشكلة..  
وواجهها..  
وبحثها..  
ثم انتصر عليها..  
والعلماء الآن يدرسون كيفية التغلب على امتصاص الطاقة، وعبور الأنفاق الدودية..  
ويومًا ما سينتصرون..  
وسيعبرون..  
وربما يسافرون إلى الماضي أيضًا..  
وهنا ستنشأ مشكلة جديدة..  
مشكلة فلسفة السفر عبر الزمن و..  
ولهذا حديث آخر.

\*\*\*

دعونا نفترض أن السفر عبر الزمن صار حقيقةً وأمرًا معتادًا مثل السفر عبر الفضاء..  
وأنا نستطيع السفر إلى المستقبل..  
أو إلى الماضي..  
فهل سيبقى عالمنا على ما هو عليه؟!  
من المؤكد أن الإجابة هي لا..

وألف ألف لا..

فلو امتلكتُ جهة ما القدرة على السفر عبر الزمن؛ فسيعني هذا أنها ستمتلك قدرات وصلاحيات لا حدود لها ولا حل لمواجهتها..

أبسط ما في الأمر هو أنها تستطيع السفر إلى المستقبل لتستورد تكنولوجياه التي ستفوق تكنولوجيا الحاضر بكثير ما يجعلها مؤهلة للسيطرة على العالم كله بأسلحة قد لا تخطر حتى لأبشع كوابيسنا..

ولكن الأخطر من هذا أن يمكنها السفر إلى الماضي..

فلو حدث هذا وتحقق ستصبح تلك الجهة قادرةً على أن تحكم الكون..

أسلحتنا الحالية تكفي حتمًا لسحق كل الإمبراطوريات القديمة مهما بلغت قوتها في زمنها..

بل إن ربع قرن فحسب إلى الماضي تعني الحرب بسلاح الحاضر ليهزم أعتى الجيوش..

ثم إنه هناك ما هو أخطر..

القدرة على تغيير التاريخ نفسه..

فماذا لو نجح أمريكي واحد في السفر عبر الزمن إلى لحظة مولد أدولف هتلر وقتله في مهده..

من المؤكد أن هذا سوف يغيّر مسار التاريخ كله..

لن تنتشب الحرب العالمية الثانية..

ولن يخترع الأمريكيون القنبلة النووية..

ولن..

ولن..

ولن..

احتمالات لا حصر لها، ولا يمكن حتى أن نحصيها أو نتخيلها..

ولكن من المؤكد أن هذا التغيير البسيط في أوائل القرن العشرين سينتج عالمًا يختلف تمامًا عما نعرفه الآن في القرن الحادي والعشرين..

والعكس أيضاً صحيح..

فلو أن هتلر هو الذي توصل إلى آلة الزمن أولاً، لَكُنَّا كلنا من أقصى العالم إلى أقصاه نرتدي اليوم شعار النازية ذا الصليب المعقوف..

ولكان اليهود قد فنوا عن آخرهم..

ولما ولدت إسرائيل..

أرأيت كم احتمالاً يمكن أن ينشأ من العبث بالتاريخ، فقط لأن فرداً واحداً أمكنه السفر عبر الزمن!

ثم إنه هناك أمور عديدة تحتاج إلى التوقف والتفكير..

ماذا لو سافر شخصٌ ما إلى الماضي في زمن يعقب لحظة مولده؟!!

هل ستوجد منه عندئذ نسختان؟!!

نسخة قديمة وأخرى حديثة؟!!

أم أن جسده سيتلاشى ليفسح المجال للجسد الأساسي؟!!

ثم ماذا لو سافر عبر الزمن إلى عصر يسبق مولده ثم مات هناك؟!!

هل ستحمل شهادة وفاته تاريخاً يسبق تاريخ شهادة ميلاده؟!!

يا لها من أسئلة محيرة ومربكة وتبدو مغرقة في خيالٍ خصب بلا حدود!!!

المشكلة أن العلم لم يعتبر كل هذه التساؤلات مجرد إفراط في الخيال؛ فما دام السفر عبر الزمن ممكناً؛ فلا بُدَّ من دراسة كل الاحتمالات المتعلقة به..

تماماً مثل السفر عبر الفضاء..

ومن هنا نشأ ذلك العلم الجديد المثير..

فلسفة السفر عبر الزمن و..

ولهذا حديثٌ.. طويل.

\*\*\*

دعونا نبدأ حديثنا هذه المرة بافتراض أننا قد صنعنا آلة زمن بالفعل، وسنبدأ أولى رحلاتنا إلى الماضي..

ولنبدأ بدراسة كل الاحتمالات التي يمكن أن تواجهنا..

وأول احتمال هو أن نصل إلى زمنٍ يلي مولدنا ويسبق زمن رحلتنا..

في هذه الحالة ستصل إلى زمن نتواجد فيه بالفعل..

فهل يمكن أن نتواجد في هينتين؟!!

فلسفة السفر عبر الزمن تقول: إن هذا غير ممكنٍ وإن المادة الواحدة لا يمكن أن تتواجد مرتين في زمنٍ واحدٍ..

إذا فالسفر إلى زمنٍ ماضٍ يعقب مولدك هو أمرٌ مستحيلٌ تمامًا..

يمكنك أن تسافر إلى زمنٍ يسبق مولدك فقط..

وحتى هذا تعترض عليه فلسفة السفر عبر الزمن..

فإمكانية السفر إلى الماضي تعني القدرة على تغيير الأحداث والتاريخ، ما يعني تغيير كل ما درسناه وعشناه..

وقد يبدو هذا غير ممكن، ولكن بعض فلاسفة السفر عبر الزمن يقولون إننا لا نعرف عن عالمنا وتاريخنا إلا ما عهدناه؛ فلو كان أحدهم قد سافر إلى الماضي وغير التاريخ بالفعل؛ فمن المستحيل أن نعلم هذا؛ لأننا سنحيا ذلك التغيير لحظةً بلحظة دون أن يكون لدينا ما نقارنه به لنعلم ما إذا كان هناك تغيير أم لا!!!

فكرة معقدة..

وكذلك هي الفلسفة..

فلسفة السفر عبر الزمن..

وفي ذلك العلم تتركز الفرضيات في معظمها، على فكرة السفر إلى الماضي إذ إن السفر إلى المستقبل لا يمثل العقبات نفسها التي يعرفها السفر إلى الماضي..

وحتى في علم الفيزياء نفسه، وجد أن السفر إلى الماضي يحتاج إلى طاقة سلبية هائلة تقل كثيرًا عما يحتاج إليه السفر إلى المستقبل..

والعودة من رحلة إلى المستقبل ستعاني المشكلة نفسها..

وفي أحد اتجاهات فلسفة السفر عبر الزمن يرى فريق من العلماء أننا يمكن أن نرسل شخصًا إلى المستقبل، ولكن من العسير إن لم يكن من المستحيل أن نستعيده..

ومن هنا تأتي ناحية أخرى من نواحي فلسفة الزمن..

فلأن السفر إلى الماضي يبدو عسيرًا ومعقدًا، ولكنه مقبول من الناحية العلمية النظرية في الوقت ذاته افترض العلماء حالة خاصة وجدوا فيها الحل العملي والمنطقي لهذا لتناقض العلمي..

فالعالم سينجح يومًا ما في إرسال شخصٍ ما إلى الماضي..

ولكن كمشاهد وليس كمشارك..

سيمكنه إذاً أن يرصد ما حدث في الماضي..

ودراسته..

وربما تصويره أيضًا..

ولكن ليس المشاركة فيه..

سيكون في الماضي شخصًا غير منظور..

أو ملموس..

أو محسوس..

أو ربما يبدو أشبه بالشبح بالنسبة لمن يحيا وينتمي إلى زمن محطة الوصول..

وربما كان هذا تفسيرًا لمشاهدات الأشباح في المناطق المهجورة والتي ستعتبر بالطبع أفضل محطة هبوط لمسافر عبر الزمن؛ نظرًا لما تمثله من خصوصية وانعزال..

ربما وربما وربما..

ألف احتمال واحتمال وكلها فلسفية وعلمية وتمثل ثقباً محيراً في العلم..

والعقل..

والزمن.

\*\*\*

## التجربة الرهيبة

كل شيء كان يبدو هادئاً في ذلك الصباح المشرق في صيف عام 1954م عندما أوقف (جون كاربنتر) الصحفي في جريدة محلية صغيرة في (بوسطن) سيارته أمام مقهى شعبي بسيط على مشارف ولاية (نيوجيرسي) الأمريكية ليتناول قهواً من القهوة قبل أن يكمل رحلته الطويلة لحضور حفل زفاف شقيقه الوحيد (ألبرت) في مدينة (دوفر)..

وداخل المقهى كان هناك ثلاثة من كبار السن يتناولون إفطارهم في هدوء ويتبادلون أحاديثاً هامسة وكأنهم يخشون أن يرتفع صوتهم فيحطم ذلك الصمت الساكن الذي يلف المكان كله..

وبصوتٍ خافتٍ صنعه إحساسه بالمكان طلبَ (جون) قهواً بدون سكر و..

وفجأة اقتحم ذلك الرجل المكان..

رجلٌ تجاوز الأربعين من عمره بعام أو عامين على الأكثر، ويوحى بنيانه بأنه كان يمارس يوماً عملاً شاقاً منتظماً يحتاج إلى قوة بدنية عالية في حين يمنحه شعره الذي امتزج سواده ببياضه مظهرًا أقرب إلى الوسامة المعتدلة التي كان من الممكن أن يتمتع بها وجهه كله لولا نظراته الزائفة ولهجته الجادة إلى حدٍّ ما وهو يهتف بصوت مرتفع بدا وكأنه قد شق السكون والصمت في قسوة:

- من صاحب تلك السيارة الصغيرة في الخارج؟!

كان من الواضح أن كل الحاضرين يعرفونه جيّداً؛ فقد أداروا أبصارهم إليه لحظة في إشفاقٍ ثم لم يلبث كل منهم أن عادَ إلى ما يشغله وكانهم لم يسمعوا حتى ما هتفَ به ذلك القادم..

أما (جون) فقد انتفض جسده مع الهتاف المباغت الذي أفسد ما شعر به من استرخاء في المكان؛ فاستدار إلى صاحبه وهمَّ بإبلاغه أنه صاحب السيارة الصغيرة في الخارج، وأن المكان متسعٌ؛ بحيث لا يمكن أن يتصورَ أن سيارته هذه يمكن أن تسبب لأي مخلوق أية مشكلة من أي نوع.. ولكنه لم يكن قد نطقَ بحرفٍ واحدٍ بعد عندما اتجه الرجل نحوه مباشرة ولوّح بسبّابته في وجهه هاتفاً:

- أنت صحفي.. أليس كذلك؟!

ازدرد (جون) لعابه وهو يجيبه:

- بلى.. هل من خدمة يمكنني أن..

قاطعته الرجل قبل أن يتم سؤاله:

- إنك تعتقد أنني مجنون.. أليس كذلك؟! -

لم يدر (جون) بم يمكن أن يجيب سؤالاً كهذا، وشعرَ بحرجٍ شديدٍ في أعماقه وهو يتطَلَّعُ إلى الرجل مغمغماً:

- الواقع أن...

مرة أخرى قاطعه الرجل وهو يميل نحوه قائلاً في توتر بالغ:

- هذا ما يريدونه بالضبط.. أن نبدو كالمجانين.. أن يظن الكل أننا فاقدو العقول.. أتعلم لماذا؟!!

لم يفهم (جون) مَنْ هؤلاء، ولا ما الذي يريدونه، إلا أنه تمتم في خفوت وهو يتطَلَّعُ إلى الرجل مباشرة:

- لماذا؟!!

أشار الرجل إلى رأسه وهو يميل نحوه أكثر قائلاً بلهجة عجيبة:

- حتى لا يصدّقنا أحدٌ.

تضاعفت حيرة (جون) وهو يتطَلَّعُ إلى وجه الرجل الذي اعتدل بحركة واحدة وهزَّ رأسه مستطرّداً في أسى شديد:

- ولقد نجحوا في هذا.. لم يصدّقنا أحدٌ.. لقد عشت التجربة بنفسي ورأيت ما يمكن أن يصيب أكثر الناس عقلاً بالجنون ولا أحد يصدقني.

بدا الضيق والتبرُّم على وجه صاحب المقهى وهو يقول في شيء من الخشونة والغلظة:

- عد إلى منزلك يا (فيليب).. الوقت ما زال مبكراً على ما تفعله.

لوح (فيليب) هذا بذراعه كلها صائحاً:

- الوقت ما زال مبكراً؟! أي قول هذا يا رجل.. أتظنني مخموراً؟! إنني لم أتناول قطرة واحدة من الخمر هذا الصباح ولكن الصحافة ينبغي أن تعرف الحقيقة.. كل الحقيقة.

جذبت العبارة انتباه (جون) بشدة وخاصة عندما حملت الكلمتين اللتين تعنيان عنده كل شيء..

الصحافة.. والحقيقة..

وفي حدة واضحة كرّر صاحب المقهى:

- عد إلى منزلك يا (فيليب).

ولكن (جون) أشار إليه بالهدوء وهو يسأل الرجل في اهتمام:

- أية حقيقة يا سيّد (فيليب)؟!!

أجابه الرجل في سرعة:

- (دوران).. اسمي (فيليب دوران).. خاطبني باسم السيّد (دوران)..

سأله (جون) مرة أخرى في اهتمام أكثر:

- فليكن.. ما الحقيقة التي تعنيها يا سيّد (دوران)؟!!

التقط (فيليب) نفساً عميقاً قبل أن يميل نحوه قائلاً بلهجة خاصة توحى بأهمية وخطورة الأمر:

- حقيقة السفينة (DE-173)..

وبح صوته مع انفعاله الجارف وهو يميل أكثر مكملاً:

- لقد رأيتها تختفي أمام عيني.. بكل ما عليها ومن عليها.

لم يفهم (جون) ما يعنيه هذا بالضبط، ولكنه تمتم:

- تختفي؟! أتقصد تغرق؟!!

هزّ (فيليب) رأسه في قوة وهو يلوّح بذراعه هاتفاً:

- لا.. لم تغرق.. اختفت.. تلاشت.. أحاط بها بخار رمادي خفيف ثم اختفت..

وارتفع صوته بغتة كما لو أن نوبة من الجنون قد أصابته وهو يتابع:

- تمامًا مثل فيلم (الرجل الخفي).. هل تذكره؟!!

اتسعت عينا (جون) عن آخرهما وهو يحدّق في وجه (فيليب) في حين صاح صاحب المقهى في غضب:

- (فيليب).. لقد حذرتك من القدوم إلى هنا وترديد تلك الخزعلات.. هيا.. انصرف.. عد إلى منزلك وإلا..

صاح (فيليب) في ثورة:

- ليست خزعلات.. لقد رأيتها بنفسي.

اختطف صاحب المقهى بندقيته وصوب فوهتها إلى (فيليب) صائحا في خشونة شديدة قاسية:

- عد إلى منزلك.

مطَّ (فيليب) شفثيه في يأسٍ وهزَّ رأسه مستسلما ثم أدارَ وجهه إلى (جون) وكرَّر في إصرارٍ:

- لقد رأيتها تختفي.

ثم استدار وغانر المكان بخطوات متناقلة مرهقة جعلته يبدو وكأنه يفوق عمره الحقيقي بثلاثين عاماً على الأقل في حين أعادَ صاحب المقهى بندقيته إلى موضعها وهو يقول في غلظة:

- لا تلقي بالألأ لحدثه هذا.. إنه مجنون بالفعل.. كان مجننا في مشاة البحرية خلال الحرب العالمية الثانية وخرج منها عام 1944م بسبب جنون صنعه الخوف وقضى ما يقرب من ثماني سنوات في مصحة للأمراض النفسية، والعصبية ومنذ سمحوا له بالخروج منها وهو يردُّ هذه السخافات.

تألقت عينا (جون) على نحوٍ أدهش صاحب المقهى نفسه وهو يسأله في لهفة شديدة:

- كان أحد جنود مشاة البحرية؟! قل لي يا رجل: هل تعلم أين كانت وحدته بالضبط؟!!

رمقه صاحب المقهى بنظرة حذرة وهو يُجيب:

- في (فيلادلفيا) حسبما أذكر.

وهنا تضاعف تألق عيني (جون) وهو يهتف:

- (فيلادلفيا).. آه.. كنت أتوقَّع هذا.

ثم اندفع خارج المقهى في محاولة للحاق بالرجل وهو يهتف:

- سيِّد (دوران).. انتظرنى.. أريد أن أتحدِّث إليك.. صحفياً.

واتسعت عيون الجميع في دهشة مستتكرة وقد بدا لهم لحظتها أن (جون) هو المجنون الحقيقي في هذا الأمر..

ولم يخطر ببال أحدهم لحظة واحدة أن (جون كاربنتر) قد وضع يده في تلك اللحظة التاريخية على طرف الخيط الذي سيقوده إلى كشف أخطر تجربة بحرية عسكرية أجرتها الولايات المتحدة الأمريكية في تاريخها كله..

تجربة (فيلاذلفيا)..

الرهيبة..

\*\*\*

منذ وضع نظريته النسبية عام 1905م سجّل (ألبرت آينشتين) اسمه في تاريخ العلم الحديث كواحد من أكثر العلماء عبقرية وجرأة، خاصة وأن نظريته المدهشة قد صنعت منعطفًا هائلًا في مسار العلم الفيزيائي كله..

ولأن طبيعة العلماء تدفعهم دومًا للبحث والدراسة مهما حققوا من نتائج ومن نجاحات؛ فقد انشغل العالم الفذ منذ أوائل عام 1916م في دراسة ما أطلق عليه اسم (نظرية الحقل الموحد)..

ففي ذلك الحين راودت (آينشتين) فكرة ألا تكون الجاذبية الأرضية قوة على الإطلاق بل مجرد خاصية من خواص ما أسماه (الزمكان) أو ارتباط طاقة الزمن بالمكان..

وتمادى (آينشتين) في بحثه هذا إلى درجة قوله: بأن ما نطلق عليه اسم المادة ليس أكثر من منطقة حدث فيها تركيز بالغ القوة لطاقة ذلك الحقل الموحد بحيث صارت ملموسة ومحسوسة..

باختصار أراد صاحب النظرية النسبية أن يثبت أن المادة هي صورة من صور الطاقة وليس العكس..

وعلى الرغم مما يتمتع به (ألبرت آينشتين) من مصداقية واحترام في الأوساط العلمية والفيزيائية، إلا أن نظريته الجديدة هذه قوبلت بشيء من التحفظ والحذر باعتبار أن كل قواعد العلم تؤكد أن المادة والطاقة يتواجدان جنبًا إلى جنب في الحياة، وأن المادة يمكن أن تتحول إلى طاقة بالاحتراق أو التبخر مثلًا في حين تقول نظرية (آينشتين) الجديدة أن كل ما يحدث هو أن الطاقة تعود إلى حالتها الأولى فحسب عندما تتحلل في صورتها المادية..

وعلى الرغم من الاعتراضات العديدة، واصل (آينشتين) العمل في نظريته هذه وفي محاولاته لإثبات أن الجاذبية ليست قوة في حد ذاتها، وإنما هي تأثير من تأثيرات الاندماج أو التناغم بين عدة

قوى أخرى على رأسها المجالات الكهرومغناطيسية الأرضية..

وفي عام 1927م بدأ (آينشتين) يمزج نظريته هذه مع نظرية تبادل الطاقة التي تقول: إن كل نوع من الطاقة يمكن أن ينشأ من نوع آخر منها تمامًا، كما يمكن توليد الكهرباء بواسطة مغناطيس في المولدات الكهربائية العادية في نفس الوقت الذي يمكن فيه توليد المغناطيسية من الكهرباء كما نجد في المغناطيس الكهربائي..

وهنا وضع العالم الفيزيائي العبقري يده على حقائق (نظرية الحق الموحد)..

وهذا الحقل هو ما ينشأ من مزج الطاقة الكهربائية بالمجال المغناطيسي للأرض والجاذبية الأرضية والأشعة الكونية والنوية معًا..

وطوال عمره الذي تجاوز السادسة والسبعين ظلَّ (آينشتين) وحده في هذا الملعب يسعى لإثبات (نظرية الحق الموحد) في حين يصرُّ باقي العلماء على أنه يلاحق هدفًا وهميًا في محاولة عابثة لإيجاد قواعد لنظام الفوضى (على حدِّ قولهم)..

ولكن هناك بعض الأدلة التي تُشير إلى أن (آينشتين) قد أجرى بالفعل تجربة عملية على تأثير الحقل الموحد هذا..

وأنها كانت تجربة رهيبة..

إلى أقصى حد..

ففي (نيوجيرسي) عام 1954م، وعندما لحق الصحفي (جون كاربنتر) بذلك الرجل (فيليب دوران) الذي يتصوَّرُه سكان بلده مجنونًا وجمعتها جلسة واحدة هادئة قال (فيليب):

- كان هذا في أكتوبر 1943م عندما أخبرونا أنهم سيجرون تجربة خاصة جدًا على سلاح جديد لو نجح فسيؤدِّي إلى سحق الأسطولين الألماني والياباني معًا بأقل خسائر ممكنة.. وفي ذلك اليوم اجتمع كبار القادة في (فيلادلفيا).. في القاعدة البحرية هناك، وجاء بعض المدنيين أحدهم كان طويل الشعر أشبَّهه صاحب شارب كث آثار سخرية البحارة، وكان من الواضح أنهم يولونه جميعًا اهتمامًا بالغًا وهو يشرف على تركيب بعض الأجهزة التي لم أرَ مثلها قطَّ ثم جاءت السفينة (DE-117).

راح (فيليب) يلهث على نحوٍ عجيبٍ من فرط الانفعال عندما بلغ هذه النقطة فناوله (جون) قدحًا من الماء وهو يسأله في اهتمامٍ:

- هل تعرف اسم ذلك المدني طويل الشعر؟!!

هزَّ (فيليب) رأسه نفيًا وهو يجرع قدح الماء ثم أجاب:

- أظنني رأيته في مكانٍ ما، ولكنني لستُ أذكر أين بالضبط!؟

أوماً (جون) برأسه متفهماً وسأله:

- ماذا حدث بعد قدوم السفينة (DE-117)؟!؟

تتهَدَّ (فيليب) في عمقٍ قائلاً وقد عاوده ذلك اللهاث الانفعالي:

- كانت هناك سفينتان أخريان على جانبي (DE-117) وعلى متنها تلك الأجهزة العجيبة ولقد راحتا تبتان طاقةً ما نحو السفينة.. في البداية بدا الأمر أشبه بأزيز ينتشر في الهواء ثم تحوّل إلى طنين قوي، وبعدها أصبح ارتجاجاً عنيفاً جعلني أغلق عيني في قوة ورأسي يكاد ينفجر، وعندما فتحتهما ثانية كان هناك ضباب رمادي خفيف يحيط بالسفينة (DE-117) ثم لم يلبث ذلك الضباب أن أصبح شفافاً، واختفت داخله السفينة تماماً حتى لم يعد يظهر سوى أثرها على سطح الماء.

اتسعت عيناه وكأنما يستعيد ذكرى تلك اللحظات الرهيبة وهو يلوّح بكفيه في الهواء متابعاً في انفعال:

- كنت أسمع صراخاً رهيباً ينبعث من الفراغ الذي تركته السفينة خلفها وكأنما يعاني بحارتها عذاباً يفوق احتمال البشر، ولكن الكل أكّدوا أنهم لا يسمعون شيئاً، وأنني أتوهم فحسب، حتى عادت السفينة للظهور وتلاشت تلك السحابة الرمادية وعرفنا ما حدث.

كان الهلع محفوراً على ملامحه وهو ينطق الجملة الأخيرة مما دعا (جون) إلى أن يسأله في لهفة:

- وماذا حدث!؟

اتسعت عينا الرجل أكثر وهو يلوّح بذراعيه كلها مجيباً:

- أمور رهيبة.. رهيبة إلى حدّ لا يمكن وصفه.

ثم مال نحوه مضيقاً في ارتياح:

- الرجال أصيبوا بصدمة هائلة.. بعضهم شعر بالأم مفزعة في كل خلية من أجسادهم، والبعض الآخر شاهدوا أشباحاً، والبعض الثالث فوجئوا بمخلوقات عجيبة تهاجم.. المهم أنهم عانوا جميعاً من عذابٍ لا مثيل له خلال الدقائق القليلة التي اختفوا فيها مع (DE-117)..

اتسعت عينا (جون) عن آخرهما وهو يُحدّق في وجه (فيليب) الذي شحب حتى نافس وجوه الموتى من هول ما تستعيده ذاكرته..

ولم تكن هذه أوّل مرة يسمع فيها الصحفي (جون كاربنتر) بأمر تجربة (فيلادلفيا) الرهيبة هذه..

ففي عام 1953م التقى بضابط سابق من البحرية همسَ في أذنه بأنه قد سمع من بعض القادة القدامى أن تجربة علمية مدهشة قد أجريت في منطقة أمنية خاصة في ساحة البحرية في (فيلادلفيا) لإخفاء مدمرة كاملة كوسيلة لابتكار سلاح سري خفي قادر على مباغته الأسطول الياباني في عرض المحيط الهادي..

ومنذ ذلك الحين ترامى إلى مسامعه الكثير من الأحاديث حول التجربة الرهيبة، ولكنها كلها لم تحمل لمحة تأكيد واحدة؛ مما جعله يتجاهل الأمر برمته ولا يوليه الاهتمام الكافي باعتبار أن كل ما يسمعه مجرد شائعات أو أمور أسيء فهم مدلولاتها كما يحدث في كثيرٍ من الأحيان..

حتى التقى بذلك الرجل (فيليب دوران)..

فعلى الرغم من أن الكل يعتبر (فيليب) هذا مجنوناً، إلا أن كونه أحد مشاة البحرية خلال الحرب العالمية الثانية في منطقة (فيلادلفيا) بالذات كان يمنح حديثه شيئاً من المنطقية..

ثم إنه كان أوّل شاهد عيان على ما حدث..

وبحركة مفاجئة هبَّ (جون) من مقعده واندفع نحو كومة مهملة من الصحف والنقطة من بينها صحيفة قديمة وضعها أمام (فيليب) وهو يشير إلى صورة في واجهتها متسائلاً:

- هل يمكنك أن تجد ذلك الأسيب طويل الشعر كث الشارب هنا؟!!

ألقي (فيليب) نظرة ممعنة على الصورة قبل أن يشير إلى أحد الأفراد فيها وهو يُجيب في ثقة وحزم:

- إنه هذا الرجل.

وتألقت عينا (جون كاربنتر) في شدة..

فالرجل الذي تعرّفه (فيليب) في الصورة باعتباره ذلك الذي كان يشرف على الأجهزة في تجربة (فيلادلفيا) لم يكن سوى (آينشتين)..

(ألبرت آينشتين).. شخصياً.

\*\*\*

على الرغم من أن الصحفي (جون كاربنتر) قد حصل على قصة مدهشة حول تلك التجربة الرهيبة التي قامت بها البحرية الأمريكية في (فيلادلفيا) في أكتوبر 1943م لإخفاء السفينة الحربية (DE-

173) والتي تسببت في كارثة بشعة لكل من كان على ظهر السفينة؛ إلا أنه كان يدرك جيّدًا استحالة نشر القصة بخاصة وأن الشاهد الوحيد الذي روى ما حدث يعتبر - من الناحية القانونية - مجنونًا..

ولقد حار (جون) طويلًا في إيجاد حلّ لهذه المشكلة قبل أن يتفتّق ذهنه عن حل جيّد..

ففي الصفحة الثالثة من جريدته المحلية وأسفل أخبار الحوادث المحدودة، روى (جون) كل ما حدث أثناء رحلته إلى (دوفر) لحضور حفل زفاف شقيقه (ألبرت)..

وبأدق التفاصيل..

ثم انتظر..

كان كل ما يأمله هو أن تُجري البحرية الأمريكية اتصالًا به لتتفي القصة تمامًا..

ولكن هذا لم يحدث أبدًا..

لقد تجاهلت البحرية الأمريكية الموقف تمامًا وكأنه لم يكن، ولم تحاول النفي أو التكذيب أو حتى الاستنكار، بل تصرّفت كما ينبغي أن تفعل لو أن هذه مجرد ترهات مخبول..

ومن المؤكّد أن هذا التجاهل كان مدروسًا بمنتهى الدقة من قبل البحرية الأمريكية؛ إذ أن التجاهل التام كفيل بإنهاء الموقف كله، في حين أن أي رد فعل إيجابي آخر مهما كان هدفه سيمنح (جون) فرصة الرد والتعليق وربما التمادي أيضًا وصنع قضية ترغب القيادة كلها في إغلاق كل أبوابها إلى الأبد..

والواقع أن هذا قد أغضب (جون) بشدة..

أغضبه؛ لأنه يفسد خطته كلها وينسفها من أساسها؛ فمن غير المنطقي أن يواصل نشر أية مقالات حول الأمر نفسه دون ردود أفعال واضحة من جهة ما، خاصة وأن معظم من قرأ القصة لم يولها الكثير من الاهتمام، باعتبار أن راويها مجنون وأن القصة نفسها عسيرة التصديق..

وبدأ (جون) يشعر باليأس، وفكّر في تجاهل الأمر كله ونسيان ما سمعه من (فيليب دوران) و...

وفجأة وصل ذلك الخطاب..

خطاب يحمل توقيع (باتريك ماسي) المتخصّص والباحث في مجال الكهرباء والذي قال فيه بالحرف الواحد:

- «مررت بتجربة غير عادية أثناء الحرب العالمية الثانية عندما كنت أخدم في صفوف البحرية في أواخر 1945م، عندئذ كنت في موقع ما أثناء خدمتي في (واشنطن) وأتيت لي أن أشاهد جزءاً من فيلم خاص جداً كان يشاهده بعض ضباط البحرية من كبار الرتب، وكان يدور حول تجربة ما تجري في البحر، ولأن مهامي الأمنية لم تكن تسمح لي بالجلوس ومشاهدة الفيلم إلا أنني استطعت أن ألمح جزءاً منه؛ حيث كانت هناك سفينتان تبتان نوعاً من الطاقة نحو السفينة الوسطى، وأظنها كانت موجهاً صوتية، إلا أنني لست واثقاً في هذا.. المهم أن السفينة الوسطى قد اختفت داخل ضباب شفاف على نحوٍ بطيء؛ بحيث لم يعد لها من أثر سوى ما تركته على سطح الماء قبل أن تعود إلى الظهور في بطن، وبعد الفيلم سمعت القادة وهم يناقشون ما رأوه، وكان أحدهم يقول: «إن سبب المشكلة التي أصابت أفراد طاقم السفينة هو استمرار الحقل الموحد لفترة طويلة..».

إلى هنا انتهت رسالة (باتريك) التي يمكن اعتبارها نسخاً لشهادة (فيليب) باستثناء أمرًا واحدًا فحسب..

أنها أول مرة يذكّر فيها اسم (الحقل الموحد)..

ولأن (جون) كان دارساً جيداً للعلوم فقد جذب المصطلح انتباهه واهتمامه فراح يبحث عنه في كل الموسوعات العلمية المعروفة وكل المجالات العلمية المتخصصة حتى عثر أخيراً على مقال يهاجم فيه أحد العلماء تلك النظرية التي حاول (آينشتين) إثباتها منذ ما يقرب من أربعة عقود من الزمن..

نظرية الحقل الموحد..

وهنا أيقن (جون) من أن حديث (فيليب) لم يكن مجنوناً بل كان حقيقياً إلى أقصى حدّ..

ونشر (جون) خطاب (باتريك) إلى جوار رأيه الشخصي حول الأمر كما ربط كل هذا بنظرية (آينشتين) حول الحقل الموحد للطاقة..

وهنا تقجّر الموقف إلى أقصاه..

وانهالت الخطابات والتعليقات على الجريدة..

وتحوّل الأمر فجأة إلى قضية كبرى، حتى إن ثلاثاً من الصحف الكبرى في الولايات المتحدة الأمريكية أعادت نشر مقالي (جون) لتقرأ (أمريكا) كلها قصة تجربة (فيلادلفيا)..

وهنا أصبح السكوت مستحيلاً..

وعلى الرغم من أن البحرية الأمريكية لم تُصدر بياناً رسمياً حول الأمر، إلا أن أحد قادتها صرّح في مؤتمر صحفي غير رسمي أن ما نشر مجرد خزعبلات، وأنه من المضحك أن يقال إن إخفاء

سفينة حربية كاملة يمكن أن يكون حقيقة واقعية ..

وبدلاً من أن يُهدى هذا التصريح الموقف فإنه أشعله بشدة ..

وبدأ (جون) يجري تحرياته على نطاق واسع بتمويل من إحدى الصحف الكبرى في (واشنطن) كما اضطر للاستعانة بثلاثة من معاونين لفرز كل ما يصله من خطابات ورسائل وبرقيات لاختيار ما تلوح الجدية من بين سطورهِ واستبعاد محاولات الشهرة والجدل العقيم ..

ولقد تأكد (جون) من أن (فيليب دوران) كان يعمل في قطاع الأمن في مشاة البحرية الأمريكية في (فيلادلفيا) في أكتوبر 1943م كما حصل على وثائق تثبت عمل (باتريك ماسي) كخبير في الكهرباء وانتدابه في البحرية إلى القيادة في (واشنطن) خلال عام 1945م مما يمنح شهادة الرجلين مصداقية لا بأس بها ..

ثم توصل إلى حقيقة أخرى مدهشة ..

فما يقرب من 66% من أفراد طاقم السفينة الحربية (DE-173) تم إيداعهم مصحات نفسية وعصبية خلال الفترة من نوفمبر 1943م وحتى ديسمبر 1945م، وبعضهم ظل هناك حتى منتصف الخمسينيات ..

وتساءل (جون كاربنتر) في مقاله التالي:

- أمن المنطقي أو المعقول أن يُصاب كل هذا العدد من رجال البحرية من سفينة واحدة باضطراب عقلي مشترك دون سببٍ واضحٍ؟!

وجاء السؤال كطعنة في الصميم لقيادات البحرية الأمريكية التي واصلت عدم التعليق رسمياً ولكنها أخفت - في الوقت ذاته - كل الأوراق والوثائق الخاصة بالسفينة المنكوبة ..

وعلى الرغم من توالي الشهادات من كل صوبٍ على مكتب (جون كاربنتر)، ومن أن العشرات من بحارة طاقم (DE-117) قد قصوا القصة نفسها وأيدوا ما قاله (فيليب) و(باتريك)، إلا أن جميعهم كانوا يحملون شهادة طبية رسمية تؤكد أنهم ليسوا في حالتهم الطبيعية مما جعل شهاداتهم بلا سند قانوني مؤكد ..

وربما كان هذا هو السبب الرئيسي الذي دفع قيادات البحرية إلى إيداعهم هذه المصحات خلال فترة الحرب وما بعدها ..

وفي رسالة أحد البحارة وهو (مايكل جريج) المسئول الثاني عن الدفة قال الرجل:

- كنا على ظهر السفينة نعلم جيّدًا أنهم سيقومون بتجربة سلاح ما، وكان معظمنا مفعّمًا بالحماس، ثم بدأت تلك المولدات الضخمة في العمل وشعرنا وكأن رؤوسنا ستنفجر، وكادت قلوبنا تثب من صدورنا مع عنف خفقاتها وبعدها أحاط بنا ضباب أخضر كثيف وأظلمت الدنيا من حولنا وكأننا قد فقدنا أبصارنا فاستولى الرعب على معظمنا وراح الكل يعدو بلا هدف في كل مكان وكل اتجاه وتصوّرت أننا قد غرقنا في عالم آخر أو أن عقولنا قد أصابها الجنون مع تلك الهالوس التي تراءت لنا؛ فصديقي (ميجور) أقسم إنّه يرى زوجته الراحلة والضابط (براد) راح يضحك في جنونٍ والقبطان (رود) أخذ يدير الدفة في حركات هستيرية وهو يصرخ أنه من الضروري أن نخرج من بحر الظلمات هذا أما أنا فلقد التقيت بمخلوقات من عالم آخر أو هي وحوش أو لعلها مجرد هالوس مجنونة.. المهم أن ما عايناه هناك لم يكن عاديًا أبدًا بل كان يستحق أن نصاب بجنون حقيقي.

كان أوّل خطاب من أحد بحارة السفينة المنكوبة، وإن كان إثبات هذا أمرًا مستحيلًا بعد أن أخفت البحرية كل الوثائق الرسمية، وواصلت إصرارها على رفض التحدّث عن الأمر على الرغم من سيل الخطابات واهتمام الرأي العام..

ثم وصل إلى (جون) فجأة خطابٌ خطيرٌ..

خطير إلى أقصى حد..

هذا لأنه كان كافيًا؛ ليقلب الأمور كلها رأسًا على عقب..

وبعنف.

\*\*\*

استمر صراع (جون كاربنتر) طويلًا في محاولته لإثبات قيام البحرية الأمريكية بتلك التجربة الرهيبة التي حاولت فيها إخفاء سفينة حربية كاملة لولا أن أصيب طاقمها بأضرار فادحة حتمت إيقاف التجربة وعدم تكرارها..

وعلى الرغم من سيل الخطابات والرسائل ومن شهود العيان الذين وصفوا ما حدث على سطح السفينة ظل الأمر كله أشبه بلعبة عبثية، مع غياب الدليل المادي الحاسم على حدوث تلك التجربة؛ خاصة وأن كل الشهود كانوا من نزلاء المصححات النفسية السابقين ومن بحارة السفينة أيضًا..

ومع مواصلة البحرية صمتها العنيد بدأ الموقف ينحسر وراح اهتمام العامة يقل تدريجيًا و..

وفجأة وصلت رسالة بالغة الخطورة..

رسالة تحمل توقيع العالم الفيزيائي المعروف (ألند)..

وفي رسالته قال (ألند):

- «لن يمكنكم أن تتصوّروا عظمة تجربة (آينشتين) التي لم يعترف بها أحد.. لقد دفعت يدي حتى المرفق داخل حقل الطاقة الفريد هذا بمجرد أن بدأ في التدفق في عكس اتجاه عقارب الساعة حول السفينة البحرية (DE-173) ولقد شعرت به يعبر يدي المحدودة داخله.. أما الهواء حول السفينة؛ فقد تحوّل في بطءٍ إلى لونٍ قائمٍ قبل أن يتكوّن سديم رمادي ضبابي أشبه بالسحاب الخفيف أظنه الجسيمات الذرية أو الهواء المتأين حول السفينة التي راحت تختفي تدريجياً عن الأعين البشرية.. هذا الحقل يوحي بأنه هناك كهربية صافية تحيط به بمجرد تدفّقه، ولقد كان من القوة بحيث كاد يبتلع جسدي كله عندما بلغت كثافته أقصاها إذ راح يتحرّك بغتة في اتجاه عقارب الساعة، وأظن أن هذا الانعكاس في الحقل هو سبب فشل التجربة..»

رسالة كهذه من عالم له مكانته مثل (ألند) كانت تكفي لكسر حاجز صمت البحرية بعنفٍ ما أجبر قيادتها على الإدلاء ببيان رسمي قالت فيه باختصار أقل ما يُوصف به هو أنه ضلّ وغير مُشبع:

- لا يوجد في ملفات البحرية كلها ما يحمل اسم (تجربة فيلادلفيا).

ولقد فجّر هذا البيان المختصر موجةً من السخط والغضب في كل الأوساط..

بل وموجةً من السخرية أيضاً؛ فقد كتب (جون) في مقاله التالي أنه لم يسمع أو يقرأ في حياته كلها بياناً أكثر سخافة وسذاجة من بيان قيادة البحرية هذا؛ إذ إنه ليس بالضرورة أن تحمل البحرية في ملفات البحرية اسم (تجربة فيلادلفيا) الذي أطلقه هو على الأمر، وأنه من المحتم أن يكون لها كودٌ سري خاص مثل (الرجل الخفي) أو (ال فراغ) أو أي اسم آخر..

ثم عاد ينشر شهادة العالم البروفيسور (ألند) وكأنه يتحدّى بها كل قيادات البحرية..

وانتقلت العدوى إلى عشرات الصحفيين الآخرين الذين راحوا يتساءلون بدورهم عن صحة التجربة من عدمها، في نفس الوقت الذي سعوا فيه للقاء البروفيسور (ألند) والتأكد من حقيقة ما ذكره في رسالته..

وقبل حتى أن يُعلن (ألند) صحة ما ورد في رسالته وصلت رسالة أخرى من عالم آخر إلى مكتب (جون كاربنتر)..

من البروفيسور (فالنتين) أحد أشهر علماء الطاقة في الولايات المتحدة الأمريكية كلها..

وعلى عكس رسالة (ألند) لم يكن (فالنتين) شاهداً على ما حدث، وإنما كان ينقل حديثاً دار بينه وبين عالم آخر شهير وهو الدكتور (جيسوب)..

وفي رسالته قال (فالنتين):

- (جيسوب) أخبرني أن التجربة قد أجريت بواسطة مولدات مغناطيسية من النوع المستخدم في البحرية والمعروفة باسم (معادل المغناطيسية)، ولقد أصدرت تلك المولدات ذبذبات عالية للغاية ورنيناً مرتفعاً لخلق حقل مغناطيسي هائل حول السفينة..

كان من الواضح أن (فالنتين) على علم بالتجربة في حينها، وأن (جيسوب) أحد المشاركين فيها ما أثار مشاعر الكل، ودفع سيلاً من الصحّيين ورجال الإعلام نحو (فالنتين) الذي فوجئ بهذا الجيش حوله، وبآلاف الأسئلة التي تخترق أذنيه وعقله وكيانه كله؛ فارتبك واضطرب وحاول نفي معرفته بالأمر، على الرغم من اعترافه بإرسال تلك الرسالة إلى (جون) وكل ما قاله أمام الصحّيين هو:

- كل ما أعلمه هو أن الأمر يحتاج إلى ثلاثة من حقول الطاقة المختلفة لنتناسب مع مستويات الفراغ الثلاثة، وأن الأمر يرتبط بالرنين المغناطيسي الفائق على نحوٍ ما..

وعلى الرغم مما قاله (فالنتين) فإن (جيسوب) أصرّ على الصمت التام ولم ينفِ أو يؤيّد ما قاله زميله، ورفض تماماً الإدلاء بأية أحاديث صحفية أو حتى إجابة سؤال واحد..

وهكذا فقدَ (جون) دليلاً قوياً كان يمكن أن يحسم الأمر تماماً..

ولكن حملته نجحت في تقجير القضية، وفي دفع العقول إلى التفكير في صحة ما حدث..

بل ودفعت فريقاً من العلماء أيضاً إلى دراسة احتمالات حدوث تلك التجربة عملياً..

وجاءت النتائج مذهشة..

معظم العلماء أكّدوا أن الأمر قابل للحدوث من الناحية العلمية إذا ما أمكن توليد حقل كهرومغناطيسي فائق حول جسم ما مع الاستعانة بقوة الجاذبية الأرضية والرنين البالغ، ولكن هذا لا يمكن أن يصلح من الناحية العلمية بالنسبة للبشر والكائنات الحية..

فالهدف من التجربة هو كسر الانعكاسات الضوئية والوصول بمعامل الانكسار إلى الصفر بحيث تعبر الأشعة من خلال الجسم مباشرة على نحو يجعله غير مرئي..

ولو حدث هذا مع البشر فيسعني أن الضوء لن يسقط أو يستقر عن شبكية العين..

وهذا يعني أن يصاب الإنسان بالعمى التام، فلا يرى من حوله سوى ظلام دامس..

بل وكتب أحد العلماء مقالا يؤكد فيه أن النظرية نفسها تجعل قصة (الرجل الخفي) للكاتب الشهير (هربرت جورج ويلز) مجرد عبث غير علمي باعتبار أن ذلك الرجل سيصبح أعمى يحتاج إلى من

يمد له يد المساعدة خلال فترة اختفائه..

وخلال تلك الفترة انتبه (جون كاربنتر) إلى حقيقة مدهشة لم يحاول استغلالها قط وهو يشن حملته هذه لإثبات حدوث تجربة (فيلادلفيا) الرهيبة..

(ألبرت آينشتين)..

فشهادة (فيليب دوران) في بداية الأحداث كانت تشير إلى أن (آينشتين) بنفسه كان يشرف على تلك المولدات المغناطيسية في ساحة البحرية في (فيلادلفيا) أثناء إجراء التجربة واسم شهير مثله كفيل بإثارة الموقف كله على نحوٍ مختلف تمامًا..

وهنا وحتى لا يتورط (جون) فيما يمكن أن يدينه قانوناً، راح يجري بعض الأبحاث حول حياة وعمل (ألبرت آينشتين)..

وكانت النتائج رائعة..

ففي عام 1940م نشر (آينشتين) نظرية (الحقل الموحد) لأول مرة ثم تمّ تعيينه في البحرية الأمريكية كعالم له شأنه في 31 مايو 1943م وحتى 30 يونيو 1944م وكأنما كانت البحرية تحتاج إلى وجوده الرسمي في هذه الفترة بالتحديد..

والأهم أن (آينشتين) قد نقل مكتبه في البحرية إلى (فيلادلفيا) كما تقول الوثائق الرسمية من 18 سبتمبر 1943م وحتى 30 أكتوبر من العام نفسه..

ولكن الأكثر خطورة هو أن (آينشتين) قد أعلن منذ عامين فحسب ردّاً على بعض معارضي نظريته أن لديه نتائج تجريبية مقنعة للغاية عن العلاقة بين القوى الكهرومغناطيسية والجاذبية الأرضية، وإن لم يجد بعد دليلاً رياضياً على هذا مما يوحي بأنه قد شاهد تجربة عملية تؤكد هذا..

ووفقاً للتواريخ والملابسات لا بُدَّ وأن تكون هذه هي تجربة (فيلادلفيا)..

ومع نشر هذا الأمر قامت الدنيا ولم تقعد؛ نظراً لوجود اسم (آينشتين) هذه المرة مرتبطاً بالتجربة الرهيبة..

واندفع جيش الصحفيين نحو (ألبرت آينشتين) هذه المرة وهو يمني نفسه بالحصول على سيل من المعلومات من هذا العالم العبقري البسيط..

ولكن كانت في انتظارهم جميعاً مفاجأة..

مفاجأة مذهلة..

ومؤلمة.. بحق.

\*\*\*

ما إن ظهر اسم (ألبرت آينشتين) في مقالات (جون كاربنتر) حول تجربة (فيلاذلفيا) حتى انتعش الأمر مرة أخرى في العقول والقلوب، واندفع الصحفيون ورجال الإعلام يبحثون عن العالم العبقري؛ لسؤاله عن دوره في تلك التجربة التي حاولت البحرية الأمريكية من خلالها إخفاء سفينة حربية كاملة بكل معداتها وكامل طاقمها عن الأعين المجردة، وعن تلك النتائج غير المتوقعة التي كادت تصيب الطاقم كله بالجنون..

ولكن (آينشتين) لم يجب أي سؤال من أسئلتهم؛ لأنه عندما وصلوا إلى منزله كان قد غادر الحياة كلها ومات في هدوء في عام 1955م..

ومع رحيل (آينشتين) في هذا التوقيت الدقيق جدًا خبا الحماس فجأة بشأن تجربة (فيلاذلفيا)، ولم يعد أحد يتابع أخبارها أو حتى المقالات الحماسية التي يكتبها (جون) عنها..

ومع الوقت نسي (جون) نفسه الأمر، وبدأ يستغل شهرته في إلقاء المحاضرات وإقامة الندوات وسرعان ما تزوج وانشغل بعائلته الجديدة عن الأمر كله..

وفي أوائل الستينيات فوجئ الكل بعالم فيزيائي جليل وهو (فرانكلين راينهارت) يقول في حديثٍ تليفزيوني مذاع على الهواء مباشرة:

- (آينشتين) كان يعرف جيدًا تجربة (فيلاذلفيا)، وكان يعمل فيها منذ عام 1940م مع البروفيسور (رودلف لارنبرج) ولقد طلبا مني معاونتتهما في مشروع يتعلق باستخدام الحقول الكهرومغناطيسية القوية لإحاطة السفن والمدمرات الحربية بغلافٍ واقٍ يؤدي إلى انحراف الطوربيدات بعيدًا عنها.. ولقد بدأنا العمل في ذلك المشروع بالفعل، ثم لم نلبث أن طورنا الفكرة إلى إطلاق الحقل الكهرومغناطيسي في الهواء بدلًا من الماء؛ لإخفاء السفن بصريًا، وكل ما كان يقلقنا هو الآثار الجانبية التي قد تحدث نتيجة للتجربة، وكان من ضمنها احتمال غليان الماء أو تأين الهواء حول السفينة أو أي من تلك الأمور التي قد تؤدي إلى حالة من عدم الاستقرار إلا أن أحدًا منا حتى (آينشتين) نفسه لم يفكر في احتمالات إحلال الكتلة والتداخل بين الأبعاد.

عبارة البروفيسير (راينهارت) الأخيرة لم تكن مفهومة للعامة ولكنها أثارت في العقول احتمالا جديدًا لم يخطر ببال أحد أبدًا طوال فترة الحديث عن تجربة (فيلاذلفيا)..

تُرى هل تسببت التجربة في حدوث فجوة بين الأبعاد المختلفة أم أنها قد فتحت بوابة إلى عالم آخر!؟

احتمالات بدت أشبه بالخيال العلمي على الرغم من علميتها المطلقة..

ولقد حاول الصحفيون الاستفسار عما قاله الدكتور (راينهارت) ومعرفة ما الذي كان يعنيه بمصطلحي (إحلال الكتلة) و(التداخل بين الأبعاد)!!..

ولكن (راينهارت) أيضاً لم يجب أسئلتهم؛ لأنه لقي حتفه في حادث سيارة مروّع تمزّق معه جسده تماماً..

وهنا -وعلى الرغم من عدم التصريح بهذا- اتجهت أصابع الاتهام الصامتة إلى السلطات الحكومية، وإلى القوات البحرية الأمريكية بالتحديد باعتبارها المسؤولة عن مصرع (راينهارت) كمحاولة منها لإخراص الألسنة التي تلوك موضوع تجربة (فيلاذلفيا) الرهيبة، ومحو أية أدلة مادية أو بشرية؛ خاصة وأن (فيليب دوران) قد اختفى في ظروف غامضة بعد خروجه من ذلك المقهى البسيط على حدود (نيوجيرسي) في حين تم تعيين البروفيسور (ألند) في المخابرات المركزية بحيث يخضع لقانون السرية الذي يحظر عليه الكلام في الأمر أو في أية أمور أخرى تتعلق بالأمن القومي..

وأدرك الكل وعلى رأسهم (جون كاربنتر) نفسه أن الأمر يتجاوز حدود قدراتهم فلاذوا بالصمت التام باعتبار أن حياتهم أعلى من البحث عن حقيقة تجربة فاشلة أيًا كانت معطياتها..

ومرّت السنوات في هدوء وأصدر (تشارلز بيرلتر) كتابًا شهيرًا عن تجربة (فيلاذلفيا) في أوائل السبعينيات بدا وكأنه آخر قول في هذا الأمر الذي انخفض الاهتمام به، وتحوّل إلى شبه أسطورة غامضة تمامًا مثل (مثلث برمودا) و(الأطباق الطائرة) و(وحش بحيرة لوخ نيس) وغيرها..

ثم مات الدكتور (جيسوب) عام 1973م آخر من ارتبط اسمه من العلماء بتجربة (فيلاذلفيا)..

وتنفّس قادة البحرية الأمريكية الصعداء باعتبار أن هذا يحسم الأمر تمامًا بعد سنواتٍ من الشد والجذب..

ولكن (جيسوب) كان قد ترك وراءه مفاجأة غير سارّة لهم..

مفاجأة تتمثّل في خطابٍ بخط يده تركه لدى محاميه، وطلب تسلمه إلى (جون كاربنتر) بعد وفاته..

وفي رسالته قال (جيسوب):

- تجربة (فيلاذلفيا) كانت كارثة حقيقية بكل المقاييس، ولقد تنبأت بفسلها قبل حتى أن تبدأ؛ فقد اعتمد فيها (آينشتين) على نظرية (الحقل الموحد) التي أعارضها بشدة وعلى مزج المجال الكهرومغناطيسي بالجاذبية الأرضية مع إشعاع نووي محدود، والواقع أنني قد التقيت ببعض ضباط وعلماء البحرية حول هذا الأمر، وأخبرتهم أنها تجربة هامة بحق، ولكنها بالغة الخطورة وقاسية جدًّا على المتورطين فيها والذين سيتعرضون إلى رنين مغناطيسي هائل، وهذا يعادل ما يمكن أن نُطلق عليه الطمس المؤقت للبعد الذي نحيا فيه.. شيءٌ يخرج عن نطاق السيطرة، ويمكن أن يؤدي

إلى اختراق بُعدنا إلى مستوى آخر أو بُعدٍ آخر.. ولكنهم لم يستمعوا إليّ.. ربما لأنني أقل شهرة من (آينشتين) الذي يعتبرونه أسطورة في الفيزياء.. المهم أن التجربة قد أُجريت ونجح (آينشتين) في إثبات العلاقة بين أنواع الطاقة وحقول القوى المختلفة وأكد صحة الجزء الخاص بالاندماج في نظريته للحقل الموحد إذ اختفت السفينة بالفعل، ولكن الحقل تسبّب في خلق منطقة مضطربة بدلاً من الغياب الكامل للألوان، كما أنّ وجود أفراد الطاقم المساكين داخل حقل عنيف للطاقة أصابهم باضطرابات وهلاوس عنيفة، حتى إننا كنا نسمع صراخهم المذعور خلال الدقائق القليلة التي اختفت فيها السفينة كما لو أن أحدًا داخلها يذبحهم كالنعاج..

وفي نهاية خطابه كتبَ (جيسوب) وكأنه يعتذر عن اشتراكه في التجربة الرهيبة:

- وأياً كانت النتائج أو حتى الفوائد المرجوة من هذه التجربة، فلم يكن من الجيد أبداً أن أسمح لهم بإجرائها أو أشارك فيها.. تقبلوا أسفي.

ونشر (جون) رسالة (جيسوب) ثم استقلّ سيارته؛ للعودة إلى منزله..

ولكنه لم يصل إليه أبداً..

لقد اختفى (جون كاربنتر) واختفت معه رسالة (جيسوب) الأصلية إلى الأبد دون أن تتوصّل التحقيقات الكثيفة التي أجرتها الشرطة إلى جثته أو حطام سيارته أو أدنى أثر له..

بل ودون أي سببٍ سوى أنه قد تجاوز حدوده في السعي خلف تجربة (فيلادفيا) والعمل على سبر أغوارها وكشف أسرارها..

وباختفاء (جون كاربنتر) أُسدل الستار على تلك التجربة المذهلة، ولم يعد هناك من يتحدّث عنها..

بجدية على الأقل..

وعلى الرغم من أن كتاب (تشارلز بيرتز) قد صدرَ في ثلاث عشرة طبعة حتى لحظة كتابة هذه السطور، إلا أن الاهتمام بتجربة (فيلادفيا) قد تناقص عملياً حتى اقتصر على قراءتها والانبهار بما حققته نظرياً على الأقل..

وما زال هناك علماء يصرون على أن هذا ممكن..

وآخرون يستنكرون حدوثه بشدة..

وما زالت هناك عشرات الأسئلة المطروحة..

هل حدثت تجربة (فيلادفيا) بالفعل؟!!

وماذا كانت نتائجها بالضبط!؟

صحيح أن أحدًا لا يعرف جواب تلك الأسئلة ولا حتى الاسم الحقيقي للتجربة في ملفات البحرية الأمريكية السرية، ولكنها تحوّلت في الأذهان إلى أسطورة غامضة..

أسطورة حدثت في (فيلادلفيا) في أكتوبر 1973م..

أسطورة تجربة..

رهيبة..

جدًّا.

\*\*\*

## الذي رأى الغد

فجأة تعرّضت الولايات المتحدة الأمريكية لضربة عنيفة انطلقت من قلبها وعلى متن طائراتها المدنية ودون سابق إنذار، لتهوي كصاعقة من الرعب على رمزين ضخمين من رموزها الاقتصادية والعسكرية..

مبنى التجارة العالمي في (نيويورك).. ومبنى وزارة الدفاع (البنيتاجون) في (واشنطن)..

ولساعاتٍ وأيامٍ طويلة بعدها انشغلت أجهزة الإعلام في العالم أجمع بنقل ورصد وتسجيل ما حدث ومناقشة احتمالاته وتوقعاته وكل الإجراءات التي اتخذت بشأنه..

ومن أقصى العالم لأقصاه لم يتوقّف الحديث أيضًا عن فلكي وطبيب فرنسي مات منذ ما يقرب من خمسة قرون ويدعى (نوستراداموس)..

والسبب.. وبكل بساطة هو أن (نوستراداموس) هذا قد تنبأ بما حدث وأشار إليه وسجّله في أشهر كتبه..

وأيضًا منذ ما يقرب من خمسة قرون!

وكما يحدث في كل مرة انقسم العالم إلى قسمين؛ قسم انبهر بنبوءة الفلكي الفرنسي ذي الأصول اليهودية وقسم رفضها وأنكرها واستنكرها تمامًا استنادًا إلى قاعدة تقول: «كذب المنجمون ولو صدقوا» باعتبارها قاعدة لا تقبل الجدل والمناقشة، على الرغم من أنها ليست واردة في القرآن الكريم أو في أحد الأحاديث النبوية أو حتى في الإنجيل أو التوراة..

وعندما نستخدم هنا عبارة كل مرة فإننا نعني أنها ليست أوّل مرة يثار فيها هذا الجدل العنيف حول تنبؤات (نوستراداموس) التي تضمّنها كتابه الشهير (قرون) والذي يعدّ من الناحية العلمية والفعليّة أكثر الكتب مبيعًا خلال ما يزيد عن أربعمئة سنة كاملة لم تتفد خلالها طبعاته ولو لعام واحد مما يمنحه ميزة خاصة لم يتمتّع بها كتاب كتبه بشري على مدى التاريخ..

فحتى في حياة (نوستراداموس) وبعد وفاة الملك (هنري) التي تنبأ بها الرجل وبدقة مدهشة غضبت الملكة (كاترين دي مديتشي) من الفلكي وكأنما تسببت نبوءته في مصرع الملك ما دعاه إلى الفرار بعيدًا عنها خوفًا على حياته خاصة، وأن ذلك العهد قد اشتهر بمحاكم التفتيش التي كان من السهل أن يقع رجل مثل (نوستراداموس) في قبضتها بتهمة السحر والهرطقة ليلقى مصرعه حرقًا بكل بشاعة..

وبلا رحمة..

وخلال الحرب العالمية الثانية وقعت نسخة من كتاب (نوستراداموس) الأشهر في يد زوجة (جوبلز) وزير إعلام العهد النازي..

ولقد هالها وأفزعتها وأثار رعبها حتى النخاع ما استخلصته منه، حتى إنها أيقظت زوجها من نومه لتلخص له ما توصلت إليه بكلمات مرتجفة حملت كل انفعالاتها..

وفي البداية لم يستوعب (جوبلز) الأمر أو يهضمه حتى وضعت زوجته أمام معادلة مبهرة..

فعلى الرغم من أن الكتاب الذي تحمله في يدها كان طبعة عام 1922م إلا أنه كان يحوي رباعية مثيرة إلى أقصى حد تقول:

الحيوانات التي سيقرصها الجوع ستعبر الأنهار

الشطرنج الأكبر من ساحة القتال سيكون ضد (هسلر)

سيجّر القائد في قفص حديدي

عندما يتجاهل ابن ألمانيا كل قانون.

وقفز (جوبلز) من فراشه وهو يُحدّق في كلمات الرباعية ويطالعها مرة بعد مرة..

صحيح أن الرباعية قدمت اسم (هتلر) بـ(هسلر) ولكنها واضحة أكثر مما ينبغي..

إنه (هتلر) المقصود ولا شك..

وقبل حتى أن تشرق الشمس كان (جوبلز) يرتدي زيه العسكري ويهرع إلى مكتبه ليضع خطة لاستغلال كتاب (نوستراداموس) هذا في حرب دعائية جديدة لم يلجأ إليها جهاز دعائي من قبل..

ولقد راقبت الفكرة للفوهرل كثيرًا، ووجد أنها دعاية غير مسبوقه؛ لذا فقد انتقى (جوبلز) كل ما يمكن أن يوحى بعظمة (ألمانيا) وانتصاراتها من رباعيات الفلكي الفرنسي القديم، وقام بطباعة كل هذا في نشرة دعائية خاصة تمت ترجمتها إلى الفرنسية والإنجليزية والهولندية؛ لتلقيها الطائرات على كل البلدان الأوروبية التي تتحفز وتترقب ما سيقدم عليه القائد النازي بجيوشه الجرارة التي اجتاحت (النمسا) بحجة استعادة ما انتزع منها في الحرب العالمية الأولى، وباتت تتأهب لغزو (أوروبا) وفرض سيطرتها على العالم أجمع..

وفي البداية لم تبال المخابرات البريطانية بهذا الأمر بل وسخرت منه أيضًا حتى فوجئت بتأثيره الرهيب ليس على المجتمع البريطاني فحسب، ولكن على (أوروبا) كلها أيضًا..

وهنا كان لا بُدَّ من اتخاذ قرار حاسم حازم في هذا الشأن نظرًا لأن الناس في كل الأزمنة والأزمات تولي التنجيم والفلك والتنبؤات المستقبلية اهتمامًا بالغًا..

ففي الحروب والأزمات تضعف النفوس، وكما قالت الكاتبة البوليسية الخالدة (أجاثا كريستي): «إذا ما ضعفت النفس استسلمت للخرافة».

وكإجراء مضاد جمعت المخابرات البريطانية كل ما يحويه كتاب (قرون) من تنبؤات تختصُّ بهزيمة (ألمانيا) وانتحار (هتلر) بعد حصاره في (برلين)! وألقت كل هذا بطائرتها على الشعب الألماني، كما ترجمته إلى الفرنسية والهولندية أيضًا لرفع معنويات شعوب (أوروبا) الأخرى..

وهكذا أصبح (نوستراداموس) جزءًا من الحرب العالمية الثانية بعد وفاته بأربعة قرون كاملة..

والسؤال الهام الآن هو: مَنْ (نوستراداموس) هذا؟! وكيف احتلَّ كتابه هذه المكانة المدهشة عبر القرون حتى في عصر التكنولوجيا والتقدم والذي تتبأ هو أيضًا بقدمه في ربايعته المدهشة:

يُقضى على الأوبئة ويصبح العالم قرية صغيرة

وفي سلام ترتاح الأرض لمدة طويلة..

الناس ستسافر في أمان عبر الجو والبر والبحر

ثم تتدلح الحروب من جديد.

هل يمكن لأحد أن يتصوّر مدى عبقرية هذه الرباعية المدهشة وخاصة عندما يكتبها رجلٌ من القرن السادس عشر بكل إمكانياته المحدودة؟!!

القضاء على الأوبئة من خلال برامج صحية وأمصال ولقاحات متطورة والعالم يصبح بفضل تطور وتكنولوجيا الاتصالات مجرد قرية صغيرة والناس تسافر عبر الجو!

عبقرية بكل المقاييس حتى ولو كانت مجرد تنبؤات علمية لرجل بعيد النظر وليست تنبؤات فلكية مستقبلية..

و(ميشيل دي نوستراداموس) هذا صاحب تلك التنبؤات المدهشة ينتمي إلى أسرة يهودية أوروبية قديمة فجدّه (بيير دي نوستراداموس) تاجر غلال يهودي قديم اهتمَّ كمعظم أفرانه بالعلم والدراسة إلى جانب عمله وأنجب عددًا من الأبناء من بينهم (جاك نوستراداموس) والد (ميشيل) الذي تزوّج من امرأة ثرية وسُرعان ما اعتنق معها المسيحية وابنه (ميشيل) بعد في التاسعة من عمره..

ولقد وُلد (ميشيل) هذا في الرابع عشر من ديسمبر عام 1503م وهو أكبر أربعة إخوة وأكثرهم ذكاءً منذ الصغر..

وفي مرحلة متقدّمة من سنوات صباه أدرك جده (بيير) موهبته فاحتضنه وعلمه اللاتينية والإغريقية والعبرية بالإضافة إلى مبادئ الرياضيات والفلك والتنجيم..

ولأن تلك الفترة كانت في عهد محاكم التفتيش؛ فقد خشي والده (جاك) أن يقع الصبي فريسة لتهمة ظالمة واستعاده من جده ليرسله لدراسة الطب في (مونبلييه) وعمره لم يتجاوز التاسعة عشرة بعد..

وفي تلك الفترة ودون مقدمات ظهرت موهبة (نوستراداموس) فجأة فبينما كان يرحل مع بعض أصدقائه التقى براهب صغير السن يحصل علي رزقه من تربية الخنازير؛ فاتجه إليه باكيًا وكأنما تدفعه إلى هذا قوة تفوق إرادته وانحنى أمامه ملقّبًا إياه بصاحب القداسة..

وكانت دهشة أصدقائه بما فعله بالغة ولقد سأله أحدهم لماذا فعل هذا فأجابه (ميشيل) وكأنما يتحدث عن حقيقة:

- لأنه هكذا ينبغي أن أفعل..

والعجيب أن هذا الراهب (فليتشي بريتي) قد أصبح فيما بعد، وبعد وفاة (ميشيل) نفسه البابا الجديد عام 1585م!

المهم أن (ميشيل دي نوستراداموس) قد درس الطب وأبدى فيه تفوقًا ملحوظًا أهّله للحصول على شهادته بتفوقٍ ليعود بها إلى أسرته التي بدت أكثر منه فرحًا وزهوًا بما حصل عليه ابنها..

ولكن علاجات (ميشيل) وأسلوبه أثارا دهشة العديدين من أقرانه واستنكارهم أيضًا..

حتى جاءت الكارثة الرهيبة..

الطاعون الأسود.

وهنا كانت مفاجآت (نوستراداموس) مذهلة..

وإلى أقصى حد..

\*\*\*

مايو 1791م.. أوج الثورة الفرنسية وبعد أن سقطت كل الرؤوس وحتى رؤوس قادتها التي طارت تحت المقصلة..

وثلاثة من الرعاى لعبت الخمر برؤوسهم وسيطرت على عقولهم فأصروا على نبش قبر الطبيب والفلكي الأشهر (ميشيل دي نوستراداموس) كوسيلة همجية ساذجة لتأكيد سيطرتهم على العهد السابق وامتھانهم لكل رموزه ومقدساته..

ولم تكن مهمتهم بالعسيرة فالقبر مجرد حفرة بسيطة في ساحة كنيسة قديمة بداخلها تابوت من الخشب القديم الذي تهالك ونخره السوس بعد قرنين وأكثر في التراب..

وبهمة وحماس صنعهما السكر نبش الثلاثة القبر وعالت صيحاتهم الظافرة وهم يرفعون غطاء التابوت و...

وفجأة احتبست صرخاتهم في حلوقهم واتسعت عيونهم في ذھولٍ ما له من مثيل..

ولم يكن هذا بالطبع بسبب ذلك الهيكل العظمي المتھالك الذي تبقي من صاحب أشهر كتاب عبر القرون، وإنما بسبب تلك اللوحة المعدنية القديمة المعلقة في عنقه..

لوحة منقوش عليها تاريخ يومهم هذا..

السابع عشر من مايو عام 1791م..

وعلى ظهر اللوحة التي تنبأ كاتبها بتاريخ نبش قبره بدقة مذهلة كانت هناك رباعية تقول:

بعد عامين من ثورة العامة وفي الشهر الخامس

ثلاثة سكارى ينبشون القبر القديم

اثنان يلقيان مصرعهما في نفس الليلة

والثالث يبقى مجنوناً حتى النهاية..

ومع ذھولهم تراجع الرجال الثلاثة، وامتألت قلوبهم برعبٍ شديدٍ، وحاولوا الفرار من المكان، ولكن دورية من دوريات الثورة لمحتهم وأطلقت عليهم النار فلقى اثنان مصرعهما وأصيب الثالث بالجنون من فرط الرعب والذعر..

وبهذه الواقعة التي لم ترد في مصادر تاريخية كافية بدأت مشاهد أشهر وأقوى فيلم تسجيلي عن (نوستراداموس) باعتباره معجزة يهودية، على الرغم من اعتناق أسرته للمسيحية في حدائته واعتناقه هو لها حتى آخر يوم في حياته..

وعلى الرغم من أن الفيلم من إنتاج عام 1984م ويقوم بتقديمه الفنان العالمي (أورسن ويلز) إلا أنه وفي نهايته تحدّث عن نبوءتين اعتبرهما -عندئذ- من المستقبلات..

عن حرب الخليج (عاصفة الصحراء)، واجتماع الكل على العراق الذي سيضرب جيرانه بالصواريخ..

وعن ضربة (نيويورك) عام 2001م..

ولعلّ هذا أكثر ما يُبهر في الفيلم القديم..

وفي نبوءات (نوستراداموس) أيضًا..

واستعراض حياة (ميشيل دي نوستراداموس) يثبت أنه لم يكن عبقرية فلكية فحسب، ولكن عبقرية طبية أيضًا..

وربما على نحوٍ أكثر قوة..

ففي شبابه وبعد حصوله على شهادته الطبية بتفوق وممارساته المدهشة للطب والعلاج وقعت الكارثة في (أوروبا)..

الطاعون الأسود..

عشرات تساقطوا أمام الوباء الرهيب ورائحة الموت ملأت كل القرى والمدن والبلاد مع فشل كل طرق المقاومة والعلاج..

فيما عدا طريقة (نوستراداموس)..

فعلى الرغم من أن الرجل كان طبيبًا في النصف الأوّل من القرن السادس عشر بعلومه القليلة المحدودة وجهله التام بوجود كائنات دقيقة مُمرضة مثل الجراثيم والميكروبات والفيروسات، إلا أنّه تعامل مع المرض بعبقرية مذهلة وكأنه يطبّق جزءًا من تنبؤاته أيضًا..

لقد كان يضع المريض في حجرة جيّدة التهوية ذات نوافذ مفتوحة ويوقد النار في المدفأة في الوقت ذاته ويحرص على غلي كل الأدوات المستخدمة معه وكل ملابسه وتغييرها يوميًا بيوم، كما استخدم علاجًا لم يتوصل إليه العلم إلا من سنوات قليلة جدًا..

الماء الساخن..

كان يسقي المريض الماء الساخن خمس مرات يوميًا..

وبمنتهى الانتظام..

لذا فقد سُفِيَ معظم مرضاه..

فيما عدا زوجته وابنيه..

ولقد كان لهذا أسوأ الأثر في نفسية (ميشيل نوستراداموس) وحياته في ما بعد.

ولسنوات عديدة تالية؛ فالى جوار حزنه وألمه لفقدهم؛ فقد راحت أسرة زوجته تحاربه لإجباره على إعادتها بعد وفاتها، وعندما فشل في هذا اتهمته بالهرطقة وخاصة مع شهرته الواسعة في شفاء مرض الطاعون والتي اعتبرها البعض نوعاً من السحر وليس الطب..

وهرب (ميشيل) خوفاً من محاكم التفتيش..

ومن شهرته كلها..

ولكن هروبه هذا كان له أكبر الأثر في حياته؛ فلقد توطدت علاقته بأشهر فلاسفة عصره (سيزار سكاليجر) مما شحذ ذكاه وضاعف قدره وشهرته حتى تزوج مرة أخرى من أرملة ذات ثروة وجاء استقرّ معها وفي منزلها الذي اتخذ فيه لنفسه مكتبة في طابقه العلوي قضى خلالها معظم ليله، ووضع فيها أول لبنات رائعته الخالدة (قرون)..

وفي عام 1555م نُشِرَت الطبعة الأولى من (قرون) متضمنة القرون الثلاثة الأولى وجزءاً من القرن الرابع..

واسم (قرون) هذا خادع للغاية؛ فالكتاب لا يتحدّث عن القرون الزمنية التي نعرفها وإنما حمل هذا الاسم؛ لأن (نوستراداموس) قد وضع تنبؤاته في شكل رباعيات يحوي كل قرن مائة منها..

والأحداث في (قرون) (نوستراداموس) غير مباشرة وغير مرتّبة تاريخياً، ولم يكن من الممكن أبداً أن يجازف بالعكس في زمنٍ أعدم فيه من هم أكثر أهمية وشهرة منه لأسباب تقل عن هذا كثيراً..

وحتى وهو يكتب رباعياته لم يضعها بأسلوب يسهل فهمه؛ فقد وضعها رباعيات شعرية تمتزج فيها اللاتينية والبروفنسالية والإيطالية والإغريقية، وبعبارات رمزية تماماً كما فعل مع الملكة (كاترين دي مديشي) التي انبهرت بشهرته وتنبؤاته فاستدعته إليها وطلبت منه أن يتنبأ بمستقبل أبنائها الأربعة فصمت (نوستراداموس) طويلاً ثم أخبرها أنه من نسلها يرى أربعة ملوك..

ولم يُشير (نوستراداموس) قطّ إلى وفاة أحد أبنائها وإن لم يكذب أيضاً في عبارته لأن أحدهم أصبح ملكاً على (بولندا) ثم على (فرنسا) فيما بعد..

ولقد أنهى (ميشيل دي نوستراداموس) قرونه العشرة عام 1566م أي في نفس عام وفاته، ولكنها لم تُنشر كاملة إلا في عام 1568م..

ولسبب ما لم تحمله لنا أوراق (ميشيل) أو مذكراته لم يكتمل القرن السابع من قرونه، واقتصر على اثنين وأربعين رباعية فحسب وليس مائة رباعية كالقرون الأخرى..

والمثير أن يحدث هذا مع القرن السابع بالتحديد، خاصة وأن الرقم سبعة يرتبط بالعديد من المقدسات في معظم الأديان، وبعدد السماوات والأراضي وأيام الأسبوع وغيرها..

والمطالع لكتاب (نوستراداموس) سيجد الكثير من الغموض والحيرة بالنسبة لتنبؤاته يصعب تفسيرها، وربما تتعلق بمستقبلات لم تحدث بعد، ولكنه سيجد أيضًا ما يثير دهشته وذهوله حتى النخاع وخاصة عندما يُطالع تنبؤات حدثت بالفعل في الفترة ما بين ظهور (قرون) ووقتنا الحالي..

وفي بعض الأحيان يكون تعرّف زمن النبوءة ممكنًا عندما يربطها (نوستراداموس) بحالة فلكية خاصة لا يمكن أن تتحقق إلا في ظروفٍ وحقات بعينها، ولعل أشهر تنبؤاته القريبة - نسبةً إلى زمنه - تلك الخاصة بالثورة الفرنسية والتي حدّد حدوثها بالأعوام الاثني عشر الأخيرة من القرن الثامن عشر وقال فيها:

من العامة المستعبدة حماس ومطالب وأغنيات

فيما يوضع الأمراء والملوك أسرى في السجون

هؤلاء يستقبلهم حمقى دون رؤوس في المستقبل

باعتبارهم مصليين مقدسين.

وفي الزمن الذي حدّده (1789م) اندلعت الثورة الفرنسية، وارتفعت أغنياتها وحماسها وطالب الكل بمحاكمة العهد القديم ووضع الملوك والأمراء في السجون ثم قطعت رؤوسهم على يد المتآمرين الذين حظوا بالمصير ذاته فيما بعد..

نبوءة مدهشة..

ولكن تلك الخاصة بأسرة (كيندي) كانت مدهشة أكثر..

بل مذهلة..

وبكل المقاييس.

\*\*\*

في بداية القرن الأوّل من كتابه (قرون) شرح لنا (ميشيل دي نوستراداموس) كيف حصل على تنبؤاته فيقول في رباعيته الأولى:

أجلس وحيدًا في الليل في دراسة متكئة

إنها موضوعة على حامل نحاسي ثلاثي القوائم

شعلة واهية تندفع من قلب الفراغ

وترى ما لا ينبغي أن تؤمن به؛ لأنه باطل.

تناقض مدهش يبدأ به فلكي وعالم كتابًا أصبح الأشهر عبر القرون؛ فهو يصف لنا كيف يجلس في خلوة مع شعلة على حامل ثلاثي نحاسي ثم يرى ما يرى..

وبعدها ينفي عن نفسه معرفته بالمستقبل باعتباره باطلًا لا ينبغي له أن يصدّقه..

أسلوب ذكي لتحاشي الاتهام بالسحر والهرطقة؛ فلو أنه يقصد بالفعل ما يقول لما كتب الكتاب ونشره؛ فأصغر عالم في الوجود لا يمكن أن يفعل هذا..

وما يتحدّث عنه (نوستراداموس) أشبه بأساليب المتصوفين القدامى.. الخلوة والضوء الخافت والخشوع ثم الرؤيا!

ولا أحد يدري كيف تأتي هذه الرؤيا، ولكن بعض الدارسين يؤكدون أنها كانت تأتيه في صورة سمعية بصرية يعجز هو نفسه عن فهمها واستيعابها فيكتفي بوصفها كما رآها وسمعها..

ودليلهم على هذا تلك الرباعية التي وصف فيها معركة جوية في زمن لم يعرف حتى الطائرات الورقية والتي قال فيها:

سيعتقدون أنهم رأوا الشمس في قلب الليل

عندما يرون الرجل الشبيه بالخنزير

ضوضاء وصرخات ومعارك تدور في السماء

وستُسمع المخلوقات الخنزيرية وهي تتحدّث.

وقبل أن تنفر من الوصف لارتباطه بالخنزير طالع صورة لطيار مقاتل وهو يرتدي قناعاً وتخيّل ما يمكن أن يصف به رجل في القرن السادس عشر هذا!

ولنتوقّف لحظة عند الضوضاء والصرخات والمعارك والأضواء في السماء، ونقارن هذا كله بصوت الانفجارات والصواريخ ووهجها وصفير القنابل التي تهبط على الأرض ثم تربط كل هذا بأصوات الطيارين عبر اتصالاتهم اللاسلكية..

دعنا نلتقط مشهداً من أحد أفلام الحروب وعرضه على شخصٍ بدائي ولنرَ كيف يصفه!

إنها عبقرية حقيقية أن يصف شخصٌ من زمن (نوستراداموس) هذا المشهد المعقّد بل والمستحيل في زمنه وأيامه!

ولقد استخدم (نوستراداموس) نفس الوصف البدائي لتفسير أمور تأتي بعده بمئات السنين وهو يتنبأ بمصرع الأخوين (كنيدي) في القرن العشرين عندما تم اغتيال (جون كنيدي) في (دالاس) في وضح النهار برصاصة في رأسه ثم اغتيل شقيقه (روبرت) بعده بخمس سنوات وهو يحتفل بانتصاره في الانتخابات الرئاسية الأولى وما أعقب الحادثين من مشكلات عالمية عانت منها (إنجلترا) و(فرنسا) و(إيطاليا)..

وفي هذا الشأن جاءت رباعية (نوستراداموس) تقول:

الرجل العظيم تصرعه صاعقة في وضح النهار

فعله أثيمة تنبأ بها الملتمس

وبعدها سيخرّ الآخر صريعاً في الليل

صراع في ريمس ولندن ووباء في توسكانيا.

أمرٌ واضحٌ إلى حدٍّ مدهش ويتجاوز حدود المصادفات إلى ما هو أكثر عمقاً..

تماماً مثل تلك النبوءة التي تحدّثت عن ضرب (هيروشيما) و(ناجازاكي) والتي حدّدت زمنها فلكياً بنهايات النصف الأوّل من القرن العشرين والتي تقول:

قرب الميناء وفي مدينتين كبيرتين

كارثتان تحدثان لم ير مثيل لهما قط

جوع طاعون وأناس يطرحون خارجاً بسيف الحرب

بكاء وضراعة لله العظيم؛ للحصول على مساعدات..

والمدينتان تقعان على البحر وكتاهما تعرّضت لضرب بالقنبلة الذرية في كارثتين لم يعرف التاريخ لهولهما مثل في عام 1945م..

مرة أخرى نبوءة مدهشة قوية إلى حدّ رهيبٍ مثيرٍ..

وتنبؤات (نوستراداموس) ليست دقيقة زمنية كما يشيع البعض، وإنما تتراوح نسبة الإزاحة فيها إلى ما يقرب من عشر سنوات سلبيًا أو إيجابًا، ولكن حتى هذا يضعها في قائمة المدهشات خاصة عندما تشير في وضوح إلى أمور لم يكن من الممكن التنبؤ بها سياسيًا أو منطقيًا حتى في الفترات الملاصقة لها مثل نبوءته عن قيام الثورة في (إيران) وقوة تأثير (الخوميني) عليها من منفاه في (فرنسا)؛ فحتى القيادات السياسية والعسكرية في العالم أجمع لم تتوقع أو تتخيّل إمكانية نجاح هذا حتى لحظة حدوثه بالفعل..

وعلى الرغم من هذا؛ فقد ذكره (نوستراداموس) في كتابه قبل خمسة قرون وهو يقول في رباعيته:

المطر والمجاعة والحرب والمجاعة لن تتوقّف في بلاد فارس

إيمان عظيم جدًّا سيخدع الملك

الأعمال التي تعدّ في (فرنسا) ستنتهي هناك

علامة خفية لشخص ما لكي يتعامل برحمة

إشارة واضحة لما حدث على الرغم من غموض الرباعية ككل رباعيات (قرون) التي تحوي دومًا شيئًا من الحيرة في شطرها الأخير بالتحديد..

وغموض رباعيات (نوستراداموس) ليست المشكلة الوحيدة التي تواجه أي دارس لكتابه وتنبؤاته؛ فالمشكلة الأكبر هي أن تجد نسخة صالحة للدراسة، والمقصود هنا أن تكون نسخة صحيحة غير مزوّرة أو محرّرة؛ فلأن للتنبؤ تأثيرًا هائلًا على الناس تم استخدام (نوستراداموس) وكتابه كوسيلة دعائية للحرب النفسية منذ أوائل عام 1649م عندما قام خصوم الكاردينال (مازاران) بنشر طبعة من (قرون) أضافوا إليها رباعيتين ضده للحد من نفوذه القوي في البلاط الفرنسي..

وفي عصر (نابليون) أيضًا تم تزوير الرباعيات بإضافة رباعيات زائفة أطلق عليها اسم (تنبؤات أوليفاريس)، وبعدها ظهرت (تنبؤات أورفال) وكتاهما كتابات زائفة نُسبت دون حقّ للأشهر (ميشيل دي نوستراداموس)..

وخلال الحرب العالمية الثانية وحدها ظهرت أكثر من خمس طبعات غير صحيحة من كتاب (نوستراداموس)، والمعنى هنا هو أنها قد اقتصرت على ما يفيد أحد الطرفين مع تجاهل باقي الرباعيات تمامًا..

لذا فكل دارس للرجل وكتابه يسعى للبحث عن أقدم نسخة ممكنة ويقارن محتواها بعدة طبعات أخرى حتى يتيقن أو لا من أنه أمام نسخة حقيقية من كتاب (قرون) قبل أن يبدأ عمله..

وهذه الدراسة نفسها احتاجت إلى جهدٍ مضمّن لقراءة خمس طبعات من كتاب (نوستراداموس) بثلاث لغات مختلفة قبل البدء في كتابتها..

والواقع أن هذا لم يكن أمرًا مُرهقًا بقدر ما كان ممتعًا، وخاصة عندما استقرّ الأمر على كتابٍ قديمٍ نسبيًا تعود طبعاته إلى منتصف السبعينات لباحث بذل جهدًا حقيقيًا في التحقق من كل رباعيةٍ قبل نشرها..

والممتع هنا أن نطالع طبعة في منتصف السبعينيات ثم تجد فيها إشارات واضحة لأحداث جرت بعد طباعتها بعدة سنوات وتقرأ محاولات الباحث المستميتة لتفسيرها باعتبارها تنبؤات مستقبلية بالنسبة لزمان بحثه..

ورباعيات (نوستراداموس) ليست كلها محيرة؛ ففي بعضها أسماء وإشارات واضحة للغاية كتلك الرباعية التي أوردناها في القسم الأول والتي تحدثت عن (هتلر) أو (هسلر) أو (هستر) كما ورد في طبعات بلغات مختلفة..

وهناك رباعيات مبهرة لأنها تحدّثت عن أشخاص بعينهم وبأسمائهم أيضًا كتلك الخاصة بلويس باستير مكتشف وجود الجراثيم والتس تقول:

يُكتشف المفقود المختبئ منذ عدة قرون..

سيُحتل بباستير كرمز لعظمة الإله

يحدث هذا عندما يتمّ القمر دورته العظمى

ولكنه ونتيجة لشائعات أخرى ستتلوّث سمعته.

هكذا ومباشرة يذكر اسم (باستير) الذي جاء بعده بأكثر من ثلاثة قرون والذي تحوّل إلى معجزة علمية عندما كشف وجود الجراثيم ثم لم يلبث هذا أن أثار غيرة وغضب وحفيظة منافسيه؛ نظرًا لاعتبار كشفه -عندئذٍ- أهم الكشوف في عالم الطب، واعتباره الزعيم المعترف به لأكبر حركة

علمية كيميائية وتأسيس معهد الشهير فهاجموا أسلوبه ومحاولاته لإنتاج لقاح مضاد لداء الكلب مما لوّث سمعته في أواخر أيامه..

وفي رباعية أخرى أشار إلى (موسوليني) المعروف في التاريخ باسم (الدوتشي) وإلى خلفاته مع الملك ومعاداته للفاتيكان في ذروة عهد ديكتاتوريته على نحو واضحٍ للغاية قائلاً:

سوف يعثر الملك على ما يرغب فيه بشدة

حينما يؤخذ الأسقف بالظلم

الرد سيغضب الدوتشي بشدة

وسيقتل عدة أشخاص في ميلانو

ولكن أقوى الرباعيات الواضحة والمباشرة هي تلك التي أشارت إلى (فرانكو) وأحداث (إسبانيا)..

فهي مدهشة ومثيرة..

بشدة.

\*\*\*

من الواضح أن (نوستراداموس) يتوقّف طويلاً أمام بعض الشخصيات والأحداث التي كانت لها تأثيرات واضحة في مسار التاريخ..

فعبّر كتابه الأشهر (قرون) نجد العديد من الرباعيات التي تتحدّث عن (هتلر) و(نابليون) وعن الحرب العالمية الثانية، وحرب الخليج وغيرها من الأحداث الجسام..

وفي بعض رباعياته وبالذات تلك التي تغفل تحديد الزمن الفلكي لحدوثها نجد أنفسنا في حيرة ونحن نتساءل عما كان يعنيه أو عن يتحدّث بالضبط..

وأكبر مثال على هذا هو الرباعية التالية:

من أعمق جزء في أوروبا الغربية

سيولد طفل من أسرة فقيرة

كلامه سيفتن الكثير من الشعوب

وستتعاضم سُمعته أكثر في مملكة الشرق

فلقد توقّف الباحثون طويلاً أمام هذه الرباعية التي يمكن أن تتطبق على مرحلتين تاريخيتين وشخصيتين عالميتين يفصل بينهما قرنٌ كاملٌ من الزمان..

(نابليون بونابرت) و(أدولف هتلر)..

كلا الرجلين جاء من أصلٍ وضعٍ وعائلةٍ فقيرةٍ و(النمسا) تعدّ عميقةً بالنسبة لحدود (أوروبا) في حين يمكن ترجمة الكلمة كلها إلى دنية فتتطبق تماماً على (كورسيكا) مسقط رأس (نابليون)..

والرجلان امتلکا موهبة الخطابة وكانت لهما سمعة كبيرة في الشرق أولهما عبر حملته الشهيرة والثاني من خلال خطبه الملتهبة ووسائل الإعلام وكرهية شعوب الشرق للاحتلال الإنجليزي والفرنسي وانتظارهم للنجاة منهما على يد جيوش (ألمانيا) النازية..

ولقد وجد كل اتجاه مؤيديه، وما زال الفريقان يختلفان حتى لحظة كتابة هذه السطور..

ولكن بالنسبة للرباعية الخاصة بالجنرال (فرانكو) فلم يحدث أي اختلاف على الإطلاق إذ جاءت الرباعية واضحة أكثر مما ينبغي وهي تقول:

سوف يأتي (فرانكو) إلى الجمعية من كاستيل

السفراء سيرفضون ويتسبّبون في انقسام

مؤيّدو (ريفيرا) سيحتشدون

وسيُحرم الرجل العظيم من دخول الخليج..

الرباعية لم تذكر اسم (فرانكو) فحسب وهي تشير إلى عودته من (المغرب) بعد نفيه فيها ومنعه من عبور البحر إلى (إسبانيا) والخلاف الشديد بعد عودة حزبه إلى السُلطة، وإنما ذكرت أيضاً اسم عدوه الديكتاتور (بريمودي ريفيرا) أيضاً..

رباعية واحدة ذكرت اسمين في وضوح وربطتهما ببعضهما البعض على نحو يتجاوز كل حدود واحتمالات المصادفات إلى ما هو أكثر خطورة من هذا..

وهذا يعيدنا إلى الرفض التلقائي والعنيف لفكرة الرؤيا والتنبؤات المستقبلية على الرغم من أنه لا يوجد سندٌ قويٌّ يمنع احتمال حدوث هذا بل على العكس تماماً ففي سورة (يوسف) نجد أن مسجوناً قد شاهد رؤيا تحدّد مصيره، وكذلك رفيقه ونجد الفرعون يتنبأ بالسنوات العجاف..

كل منهم لم يكن مؤمناً، وربما كانوا وثنيين أيضاً، ولكن الله سبحانه وتعالى جعلهم يرون ما سيحدث مستقبلاً وإن عجزوا عن تفسير ما رأوه..

والعلم يؤمن بوجود هذه الهبة العقلية، ويطلق عليها اسم (بري كوجنيشن)

(Pre-Cognetion) أو (رؤية ما لم يحدث بعد) ولقد أجريت دراسات عديدة معظمها في الاتحاد السوفييتي؛ لفهم هذه الهبة وقوانين حدوثها، وهناك مئات الكتب عنها وهي كأي هبة تمنح للبشر دون تمييز للجنس أو النوع أو الديانة تماماً كموهبة الرسم أو التمثيل أو أي مواهب أخرى..

حتى في بعض الحالات العادية وربما حولنا أيضاً نجد من يمكنه رؤية المستقبل في بعض الحالات المحدودة والتي يطلق عليها العامة عبارة (كُشفت عنه الحجب) ولكننا لا نعتبرها قاعدة أبداً..

أنا شخصياً لدي تجربة في هذا الشأن مع والد زوجتي الذي عانى من مرض عضال لفترة طويلة ثم أصابته حالة (انكشاف الحجب) هذه قبيل وفاته بأيام فراخ يصف وبمنتهى الدقة أموراً وأحداثاً حدثت بعد وصفه لها بأيام..

وبنفس الدقة والتفاصيل..

هناك إذاً كيميائية خاصة أحدثها المرض الطويل في الجسد جعلت العقل ينجلي ويمتلك قدرة مدهشة على اختراق الزمن وكشف المستقبل على نحو قد تساعد قدراته على وصفه أو تفسيره أو مجرد الإشارة إليه..

وما دام هذا يحدث في ظروف خاصة فالمنطق العلمي يقول: إن القدرة كامنة في مكانٍ ما من المخ وكل ما تحتاج إليه هو عامل قويٌّ لتحفيزها وإطلاقها..

ونحن لا ندري ماذا أصاب (نوستراداموس) بالضبط..

لقد كانت حياته طويلة حافلة على نحوٍ يصعب تسجيله واستيعابه كله ثم أنه قد واجه مرض الطاعون وتعامل مع مرضاه آلاف المرات دون أن يُصاب به أبداً..

فماذا لو أن هذا قد غيرَ كيمائيات جسده على نحوٍ ما؟

ومماذا لو أنه قد وُجدَ بتلك الهبة الربانية التي صقلتها دراساته للرياضيات وعلوم الفلك؟!

أمورٌ عديدة ينبغي أن نستوعبها وندركها قبل أن نبادر بمهاجمة كتابه أو حتى تأييده..

المهم أن نلغي من أسلوبنا وتفكيرنا كل الحساسيات والتعنتات والعصبيات والأحكام المسبقة، وما دام التنبؤ بالمستقبلات قد صار علماً فلنتعامل مع تنبؤات (نوستراداموس) باعتبارها نظرية علمية

نبحث صحتها أو زيفها..

وفي كل التجارب العلمية والمعملية لا يمكننا أن نحصل أبداً على نتيجة دقيقة مائة في المائة؛ لذا فقد اعتبر العلماء أن الوصول إلى نتيجة تبلغ الخمسة والسبعين في المائة يعني الإيجاب في معظم الأحوال..

والباحثون والدارسون لتنبؤات (نوستراداموس) يشيرون إلى أن نسبة النجاح في رباعياته القديمة أو التي تحققت أحداثها بالفعل تبلغ النسبة المقبولة علمياً بحيث يصعب اعتبار الأمر مجرد مصادفة..

فالمصادفات لا يتكرر حدوثها في المسرح الواحد أبداً..

وعندما يتحدث (نوستراداموس) عن معركة (واترلو) التي حدثت بعد ثلاثة أشهر تقريباً من عودة (نابليون) في جزيرة (ألبا) وعن التحالف بين (بلوخر) الذي كان يرمز إليه باسم (الخنزير البروسي البري) و(جروتشي) الأسد البريطاني والذي هزمه (نابليون) الذي اتخذ العقاب رمزاً له نجده يقول في رباعيته:

في الشهر الثالث وعند شروق الشمس

يلتقي الخنزير البري والأسد في ساحة المعركة

وعندما يرفع الأسد المرهق بصره إلى السماء

يرى عقاباً يدور حول الشمس..

وعلى الرغم من أن الرباعية لم تذكر أي أسماء إلا أنها ذكرت الرموز الخاصة بكل المتحاربين دون خطأ واحد ما يبعد الأمر عن أي احتمال لكونه مجرد مصادفة عشوائية..

وكل الأمور والظواهر الخارقة للمألوف وجد (نوستراداموس) فريقاً شديد الحماس لتنبؤاته، وآخر شديد الإنكار والاستنكار لها، ولكن من المؤكد أنه قد جذب اهتمام وانتباه الفريقين طوال خمسة قرون..

وبالذات مع حادثة برجى مركز التجارة العالمي..

ففي طبعة الكتاب التي بين يدي والتي تعود إلى السبعينيات تحدث الباحث عن عددٍ من تنبؤات (نوستراداموس) المستقبلية - في ذلك الحين - وعلى رأسها ضربة (نيويورك) التي ستتسبب في إشعال الحرب العالمية الثالثة..

وطوال البحث حاول الباحث أن يجد تفسيرًا لتلك التنبؤات التي لم يختلف أي باحث آخر في تفسيرها.. في أساسياتها على الأقل..

فبالنسبة لكل الباحثين تم الاتفاق على أن الحديث عن المدينة الجديدة يشير دومًا إلى (نيويورك) باعتبار أن اسمها مشتق من مقاطعة (يورك) القديمة ثم إنها تقع في عالم لم يكن له وجود في زمن (نوستراداموس)..

ومن هذا المنطلق بدت لهم نبوءات الرجل الخاصة بالمدينة الجديدة عجيبة..

ومخيفة أيضًا..

ولكنهم حاروا في تفسيرها..

بعضهم افترض أنها تتحدث عن كارثة طبيعية، والبعض الآخر تمادى في تفكيره وخياله فتصور أنها تشير إلى غزو فضائي والبعض الثالث اعتبرها حربًا نووية..

ولكن المدهش أنهم توقفوا جميعًا عند كلمة في رباعية تقول:

نار تزلزل الأرض في مركز الأرض

هزات قوية تصيب المدينة الجديدة..

صخرتان عظيمتان تنهاران..

ثم تضفي أريثوازا لونا أحمر على نهر جديد

فمنذ أكثر من عشرين عامًا تساءل الباحثون لماذا استخدم (نوستراداموس) كلمة (برج) (Tour) عندما وصف الصخرتين العظيمتين في رباعيته هذه؟!

والمدهش أننا نعرف الآن لماذا فعل هذا عندما قال: إن برجين عظيمين سينهاران!!

فلقد انهارا بالفعل في مركز التجارة العالمي في الحادي من سبتمبر 2001م

ولكنها ليست الرباعية الوحيدة حول أحداث سبتمبر في الولايات المتحدة الأمريكية.. هناك رباعيات أكثر إثارة..

بكثير.

\*\*\*

مع سقوط برجيّ مركز التجارة العالمي وارتطام الطائرتين المدنيّتين به في الحادي عشر من سبتمبر عام 2001م استعاد العالم كله تنبؤات الفلكي الفرنسي الأشهر (ميشيل دي نوستراداموس) والذي أشار إلى هذه الضربة منذ خمسة قرون في كتابه الأكثر شهرة (قرون)..

وفي عشرات الصحف والمجلات العربية قرأنا رباعية نُسبَتْ إلى (نوستراداموس) وتقول:

ملك الرعب العظيم يهبط على المدينة الجديدة..

نار ودخان وصراخ ودموع وانهارات

تسقط القلعة وينهار التوأمان..

وتشتعل الحروب في كل مكان.

وعندما حصلت على نسخة مؤكّدة من كتاب (نوستراداموس) الشهير والأبحاث الملحقة به لعمل هذه الدراسة كان أوّل ما بحثت عنه هو هذه الرباعية التي تمادى البعض فأضاف إليها التاريخ بالشهر والسنة..

ولكنني لم أعثر عليها قطّ..

قرأت الكتاب مرتين وثلاثة دون أدنى جدوى..

الرباعية الوحيدة التي ذكرت اسم (ملك الرعب) هي تلك التي تقول:

في عام 1999 وسبعة أشهر..

سوف يأتي ملك الرعب من السماء.

وسيعود إلى الحياة ملك المغول العظيم

سيحكم قبل الحرب وبعدها في سعادة..

ولو أننا طبقنا قاعدة الإزاحة الخاصة بما يذكره (نوستراداموس) من تواريخ؛ فهذا يعني أن ما أشار إليه يمكن أن يحدث خلال عشر سنوات قبل أو بعد التاريخ المذكور..

والإشارة إلى المغول هنا تلقي على الصينيين تبعة إشعال الحرب في نهايات القرن العشرين أو بدايات القرن الحادي والعشرين..

ولكن هناك تنبؤات أكثر دقة بشأن ما أصاب (نيويورك) منها مثلاً تلك التي تقول:

حريق هائل يحدث بعد شروق الشمس..

الضوضاء والضياء ينتشران نحو الشمال

الموت والصرخات في كل مكان من الكرة

وهناك المزيد مع الأسلحة والنار والمجاعة.

راجع معي هنا أن الضربة قد حدثت في الصباح الباكر بعد شروق الشمس، وأن الدخان الذي رأيناه جميعاً في كل مكان في الكرة الأرضية كان يتجه وينتشر نحو الشمال والقتلى من كل الجنسيات، والعالم كله رأى ما حدث، وصرخ وبكى ثم جاءت الحرب بالأسلحة والنار والمجاعة..

كل الباحثين في كل العصور اعتبروا هذه الرباعية إشارة إلى كارثة تحدث في (نيويورك) وحددوا زمنها فلكياً ببدايات القرن الحادي والعشرين..

ثم إنه هناك رباعية أخرى تقول:

السماء تحترق بين الأربعين والخمسة وأربعين درجة

الحريق في المدينة العظيمة الجديدة

اللهب الكبير ينتشر إلى أعلى مباشرة

والكل يسعى للحصول على دليل من النورمانديين.

لاحظ أن (نيويورك) تقع بين خطي عرض 40 و45 على الخرائط والنيران اشتعلت في برج التجارة العالمي وانتشرت إلى أعلى، وبعد انهيارهما راح الأمريكيون يبحثون عن دليل لإدانة (أسامة بن لادن) الذي اتجهت إليه أصابع اتهامهم منذ اللحظة الأولى..

والعجيب أنهم حتى في هذا استعانوا برباعيتين من رباعيات (نوستراداموس)؛ لتأكيد اتهامهم إحداهما تقول:

يحافظ الرجل النحيف على الحكم تسع سنوات..

ثم يقع في تعطش دموي رهيب

أمة عظيمة تموت من أجله دون إيمان أو قانون

ثم يقتل على يد رجل أفضل منه

ومن منظورهم رأى الأمريكيون أن النحيف هو (أسامة بن لادن) والأمة التي ستموت من أجله دون طائل هي الأمة الإسلامية، أما الرجل الأفضل منه فهو الرئيس الأمريكي بالطبع..

هل يمكن أن يقتنعك هذا التفسير!؟

أما الرباعية الثانية والتي يتصوّرون أنها تشير إلى حريهم طويلة الأمد والضربات الجوية العنيفة وصمود (أسامة بن لادن) وجيشه والدماء التي ستسيل أنهارًا فهي تلك التي تقول:

في ظلّ السُلطة الصارمة للشيخ الملتحي

توضع قواعد العقاب الصارم

الشخص العظيم يثابر إلى حدّ بعيدٍ

ضوضاء الأسلحة في السماء والبحر الليغوري أحمر

وبالنسبة لزمن كتابة هذه الرباعيات كان البحر الليغوري هو الجزء الشمالي الشرقي من البحر الأبيض المتوسط..

ولكن لاحظ هنا الحديث عن ضوضاء الأسلحة في السماء والذي يشير إليه (نوستراداموس) في عدة مواضع من رباعياته كلما أراد وصف معركة جوية..

والأمريكيون يميلون بشدة إلى تصديق الرباعيتين ما دام الانتصار سيتحقّق لهم فيهما في النهاية، ولكن الرعب يزلزل كياناتهم حتى النخاع من رباعية أخرى مخيفة تقول في وضوح:

حديقة العالم قرب المدينة الجديدة..

في طريق الجبال المجوّفة.

يتم الاستيلاء عليها وتقحم في الصهاريج.

المدينة تُجبر على شرب ماء مسمّم بالكبريت.

فمدينة (نيويورك) تعتمد في ماء الشرب على المياه الجوفية الجبلية، والرابعة هنا تشير إلى علمية لتسميم هذه المياه لقتل المدينة كلها..

إنها الحرب الكيماوية أو البيولوجية التي أصبح كل مخلوق في (أمريكا) يرتجف منها وخاصة بعد ظهور حالات إصابة بالجمرة الخبيثة بالفعل..

و(نوستراداموس) يشير أيضًا إلى حرب عنيفة تحدث في بدايات القرن الحادي والعشرين، ولقد حدّد هذا عندما يقترن المشتري ورمزه الصولجان بالمريخ وهذا سيحدث - فلكيًا - في الحادي والعشرين من يونيو 2002م..

وفي رباعيته يقول الرجل:

المريخ والصولجان سيقترنان..

حرب مدمرة تحت برج السرطان

بعدها بفترة قصيرة يأتي ملك جديد

وسيجلب السلام للأرض لفترة طويلة

إذا فهو يتوقع اندلاع الحرب في يونيو 2002م ثم يعقبها عهدٌ من السلام..

والعجيب أن هذا ما يتوقّعه العالم أجمع بعد أن بدأت (أمريكا) حربها مع الأفغان بالفعل..

أن تتطوّر الأمور وتحدث المشكلات على الحدود الإيرانية والروسية والصينية مما يؤدي إلى اشتعال الموقف أكثر.. وأكثر.. وأكثر..

ولكن ليس بالضرورة أن نتصوّر أن كل ما يقوله أو يتنبأ به (نوستراداموس) قابل للحدوث؛ فكما قلنا من قبل نسبة النجاح لا ينبغي أن تصل إلى مائة في المائة أبدًا..

يكفينا سبعون أو ثمانون في المائة..

ولقد تجاوز (ميشيل دي نوستراداموس) هذه النسبة بكثير..

وذات يوم وفي أيام شبابه الأولى أراد أحد المتشككين أن يختبر قدراته فدعاه إلى منزله وصحبه إلى حظائره ليريه خنزيرين أحدهما أسود والآخر أبيض وسأله: أيهما سيتناولونه على العشاء فأخبره (ميشيل) أنهم سيتناولون الأسود؛ لأن الأبيض سيلتهمه ذئب..

وهنا أمر الرجل بذبح الخنزير الأبيض وتقديمه على العشاء وإغلاق كل الأبواب؛ لمنع أي ذئب من الدخول..

ولكن ذئبًا مهجَّنًا يحيا في كنف الرجل اختطف الخنزير الأبيض قبل طهيهِ واختفى به فلم يجد الطاهي أمامه سوى ذبح الأسود وتقديمه على العشاء..

وكان هذا انتصارًا للفلكي (نوستراداموس) الذي لم يُبالِ أبدًا بما يتركه خلفه من انبهار، ولم يسعَ قط للشهرة أو الثراء وإن قضى أيامه الأخيرة يراجع الطالع ويقرأ النجوم لأصدقاء وصديقات زوجته..

أما آخر نبوءاته فقد اختصت به شخصيًا إذ تفاقمت إصابته بمرض النقرس وتحوّلت إلى الاستسقاء ورقد تمامًا في فراشه، وذات يوم وبينما طبيبه يفحصه ابتسم (نوستراداموس) في شحوب، وأخبره أنها آخر مرة يراه فيها وأن عينيه لن تقعا عليه بعدها قط، ولكن الطبيب طمأنه بأن حالته تتحسن ثم ضحك وهو يُضيف أنه وعلى أسوأ الفروض سيراه جثة هامة..

ولكن هذا لم يحدث قط..

لقد مات (ميشيل دي نوستراداموس) في فراشه في هدوء في الأوّل من يوليو عام 1566م في حين أصيب طبيبه في الليلة نفسها بالتواء في كاحله فلم يلق عليه نظرة واحدة حتى تم دفنه..

وغادر (نوستراداموس) العالم تاركًا خلفه تاريخًا حافلًا وكتابا يحوي كومة من الرباعيات ما زالت تصيبنا بالدهشة والانبهار، وما زالت تواصل نجاحها وقوتها..

عبر القرون.

\*\*\*

## الانفجار الغامض

على الرغم من سطوع الشمس على غير العادة في تلك البقعة من أصقاع (سيبيريا) الرهيبة في الثلاثين من يونيو عام 1908م، إلا أن درجات البرودة ظلت منخفضة إلى حدّ تجاوز الصفر إلى عشرين درجة سالبة، على الأقل وإن لم يمنع هذا حيوانات الرنة من الخروج في رشاقة؛ سعيًا وراء رزقها ولا المزارعين من ترك فراشهم الدافئ ودفع ماشيتهم إلى الحقول التي غطت الثلوج معظمها وتركها ترعى طيلة النهار كالمعتاد..

ومع ما يمثله كل هذا من صعوبات جمة بدا الجميع هادئين متألّفين مع ما حولهم باعتبارها بيئتهم الأصلية التي نشأوا وترعرعوا فيها و...

وفجأة تغيّرت كل الأمور..

وبعنفٍ..

ففي الخامسة تقريبًا، ومع اختفاء آخر ضوء للشمس التي لم تسمح لها الغيوم الكثيفة بالسطوع طويلاً بدأت حيوانات الرنة تغادر الحقول وراح المزارعون يجمعون ماشيتهم كالمعتاد..

وفي تمام الخامسة وسبع عشرة دقيقة بالضبط دوى الانفجار..

انفجار هائل رهيب ارتجّت له منطقة نهر (تانجسكا) كلها بمنتهى العنف حتى اختل توازن المزارعين وأصيب ماشيتهم بالذعر وراحت حيوانات الرنة تعدو في كل مكان بلا نظام..

ومع الانفجار ارتفعت كتلة هائلة من اللهب..

كتلة أقسم كل من شاهدها من مزارع بالمنطقة وسكان المناطق المجاورة والمتاخمة أنها أضخم وأغرب من أي شيء رأوه في حياتهم كلها..

وخيّل للكل أن الشمس قد سقطت على الأرض على حدّ قولهم؛ لأن السماء كلها أضاءت بوهج رهيب..

وهج لم يُجل مساء (تانجسكا) إلى نهارٍ فسحب، وإنما امتدّ إلى ما هو أبعد من هذا..

أبعد بكثير..

فكل سكان (روسيا) بلا استثناء رأوا الضوء بل وأمكنهم السير في قلب الليل دون الحاجة إلى أي مصابيح حتى شروق شمس اليوم التالي..

وفي (ستوكهولم) أمكنهم التقاط عدد من الصور الضوئية بكاميراتهم محدودة الإمكانيات في قلب الليل دون الحاجة إلى وميض مصابيح التصوير..

الصحف الإنجليزية أكّدت أن قرّاءها كان بإمكانهم قراءة الأحرف الصغيرة من جريدة (التايمز) في منتصف الليل..

الألمان حظوا بنهار دام أكثر من أربع وعشرين ساعة..

الهولنديون عجزوا عن رصد النجوم بسبب الضوء المبهر..

كل هذا أكّده الشهود وسجلته الصحف والوثائق..

والكتب أيضًا..

وبالذات في (روسيا) التي أكّدت أحد مزارعيها والذي كان يجلس على بعض ستين كيلو مترًا في موقع الانفجار أنه شعر بلفح النيران، ورأى كرة هائلة في اللهب ترتفع إلى السماء قبل أن يلقيه الانفجار بعيدًا..

ليس هذا فحسب، وإنما أطاح بسقف منزله أيضًا إلى مسافة مائة متر كاملة..

ولأن الحدث رهيب ومفاجئ وشبه عالمي؛ فقد سرى الرعب في نصف الكرة الأرضية على الأقل قبل أن تمتد الأخبار إلى العالم كله فيما بعد..

ومع انتشار الأخبار بدأت التساؤلات..

ما هذا الانفجار الرهيب؟!

كيف حدث؟!

وكيف اكتسب كل هذه القوة التي لم يعرفها العالم قبلها قط في زمنٍ ما قبل القنابل الذرية والنووية والهيدروجينية؟!

ولأن الناس أعداء ما يجهلون وخصوم ما يخشون ويميلون دومًا إلى الفرع والخوف والتشاؤم؛ فقد خرجت بعض الآراء في سرعة تعلن أن هذا الانفجار مجرد إنذار من السماء والخطوة الأولى في طريق فناء العالم..

ومن هول ما رآه الناس وشعروا به انتشرت تلك الفكرة في سرعة وامتدّت إلى كل بقاع الأرض..

فيما عدا (روسيا) أيضًا..

ففي تلك الفترة، وعلى الرغم من الظاهرة الغربية والمفزعة لم يحرك مخلوق واحد في (روسيا) القيصرية - آنذاك - إصبعًا للبحث عن سبب حدوث هذا الانفجار العجيب.. والغامض؛ لأن الاضطرابات السياسية كانت قد بلغت مدى انشغل به الكل عن سواه وانشغلوا أكثر بذلك الراهب الرهيب (راسبوتين) الذي سيطر في ذلك الحين على القيصر والقيصرة وأصبح صاحب الكلمة الأولى في القصر والمتسبب الأول في أوجاع الشعب ومتاعبه..

ومع انشغال الكل بالسياسة ومتاعبها تجاهلت كل الجهات الرسمية الروسية ما حدث وتعاملت معه باعتباره مجرد ظاهرة غير مفهومة لا تستحق البحث عنها أو حتى معرفة أسبابها..

كل ما حدث وبصفة غير رسمية هو أن فريقًا من العلماء قد كَوَّن بعثة استكشافية على نفقة أفرادهم وذهبوا إلى موقع الانفجار عند نهر (تانجسكا) في أعماق صقيع (سيبيريا) وتفقدوا المكان وسجلوا ما رأوه حتى أصابتهم بعض الأعراض العنيفة التي تسببت في موت اثنين منهم بسبب الجفاف وسط تلوج تحيط بهم من كل جانب وإصابة الآخرين بنوع عجيب من القروح فشلت كل محاولات علاجها بعد عودتهم إلى (موسكو) ما أدى إلى تفاقم الحالة، ووفاة الباقيين خلال شهرين من عودتهم دون أن يُشخص طبيبٌ واحد طبيعة مرضهم الذي لم تسجله أي مراجع طبية علمية من قبل..

ومع تجاهل السوفييت للأمر راحت قصة انفجار (سيبيريا) تهدأ وتهدأ حتى تلاشت تمامًا وضاعت في خضم الأحداث واندلاع الحرب العالمية الثانية التي أكد العديدون تورط الراهب (راسبوتين) فيها، ما دفع مجموعة من النبلاء إلى التخلص منه وقتله قبل عام واحدٍ من قيام الثورة البلشفية 1917م والتي كانت النتيجة الحتمية للاضطرابات السياسية التي لم يتمكن القصر من السيطرة عليها أبدًا..

ومع بدايات الثورة البلشفية تغيرت أمور كثيرة في (روسيا) الجديدة ليس هذا مجال شرحها ولكن كل ما يهمنا منها هو ما حدث بعد قيامها بأربع سنوات تقريبًا..

وبالتحديد في عام 1921م..

ففي ذلك الحين بدأ أول بحث علمي وفعلي وجاد عما أطلق عليه الكل اسم (انفجار سيبيريا) على يد العالم السوفيتي الشاب (ليونيد كوليك)..

والواقع أن (كوليك) كان ينتظر هذه اللحظة منذ سنواتٍ بفارغ الصبر وبالتحديد منذ قرأ صحيفة محلية قديمة تصف ذلك الانفجار الكبير بقولها:

- «شاهد الفلاحون جسمًا شديد الإضاءة يهبط من السماء في الشمال الغربي بميلٍ واضح، وبدا لهم أشبه بجسم أسطواني منتظم، وعندما بلغ ذلك الجسم الأسطواني سطح الأرض انسحق تمامًا وتكوّنت

حواله سحابة هائلة من الدخان الأسود استمرت لثوانٍ قبل أن يدوي صوت انفجار هائل رهيب أشبه بانطلاق ألف مدفع جبار واهتزت القرية كلها وتصوّر الجميع أنها نهاية العالم»..

هذا بالضبط ما نشرته الصحيفة القديمة التي أثارت انتباه (كوليك) وخلبت ليه ودفعته إلى السعي لكشف ما حدث هناك..

في أعماق (سيبيريا)..

والوصف الذي ورد في الصحيفة القديمة تم نقله عن شاهد عيان لم يبال به أحد أيامها، ولكنه بدا بالنسبة للعالم الشاب (كوليك) كطرف خيط قوي يمكن أن يقود إلى تفسير انفجار (سيبيريا) الغامض..

ولكن رغبة (ليونيد كوليك) كانت ترتطم بالعقبة التقليدية في كل الأبحاث العلمية عبر التاريخ..

التمويل..

فالسفر إلى منطقة نهر (تانجسكا) في أعماق (سيبيريا) وإجراء الفحوص اللازمة والدراسات الكافية والبحث عن تفسير علمي أو منطقي لانفجار غامض حدث منذ عدة سنوات كان يحتاج حتمًا إلى تمويل ضخم..

لذا فقد بدأ (كوليك) الجزء الأول من رحلته داخل (موسكو) نفسها في ظلّ نظام شيوعي متعسف يولي اهتمامًا كبيرًا للأموال، ويضع أولويات للإنفاق العسكري والاجتماعي..

وطالت رحلة (كوليك) وهو ينتقل من جهة إلى أخرى ويرتطم بالرفض والإنكار والاستنكار حتى أصابه اليأس أو كاد، وقرّر التخلي عن الفكرة كلها وقلبه يقطر دمًا..

وذات ليلة شديدة البرودة من ليالي يناير عام 1927م عاد (كوليك) إلى منزله يائسًا يائسًا و...

وكانت في انتظاره مفاجأة هناك..

مفاجأة مذهلة.

\*\*\*

لم تبلغ برودة الطقس منذ بدايات القرن العشرين ما بلغته في تلك الليلة من ليالي يناير 1927م والعالم الشاب (ليونيد كوليك) يعود إلى منزله يائسًا يائسًا و...

«أنت (ليونيد كوليك)؟!»..

صدمه السؤال الذي انبعث من بقعة مظلمة في مدخل المنزل في مرحلة تميّزت بالاعتقالات الليلية واغتيال الخصوم والمعارضين أو نفيهم إلى معتقلات (سيبيريا)؛ لتتجمّد مشاعرهم وأفكارهم هناك وسط تلوجها الرهيبة التي تمتدّ إلى مدى البصر في كل الاتجاهات..

وبصوت مرتجف وأعصاب جمّتها المفاجأة أجابه (كوليك):

- نعم.. هو أنا.. من يريدني؟!!

برز من قلب الظلمة رجلٌ قصيرٌ صارم الملامح مدّ يده إليه مجيئاً بنفس الغلظة غير المبرّرة التي ألقى بها سؤاله الأوّل:

- (فيدور كواليسكي).. من أكاديمية العلوم السوفييتية.

صافحه (كوليك) بأصابع مرتجفة وقلبه يخفق في عنفٍ، فأضاف الرجل بنفس الغلظة وهو يسحب يده في برون:

- لقد وافقتنا على تمويل حملتك ونريدك أن تبدأ في أقرب فرصة..

وطار قلب (كوليك) من شدة الفرح..

لم يكن يدري أيامها أن سبب موافقة أكاديمية العلوم على تمويل رحلته لم يكن علمياً بالدرجة الأولى..

بل كان عسكرياً..

فمن حُسن حظه أن أحد الجنرالات السوفييت طالع قصة الانفجار وبداله أن كشفه يمكن أن يقود إلى ابتكار سلاح جديد فتاك قادر على سحق الأعداء بضربة واحدة..

ولأن ذلك الجنرال كان يحتل منصباً رفيعاً في القيادة الجديدة؛ فقد أصدر أوامره إلى طاقم أمنه بالبحث عن المهتمين بأمر ذلك الانفجار مما قاده على نحوٍ غير مباشر إلى (كوليك)..

وبعد مطالعة ملف (كوليك) وسعيه للبحث عن تمويل لرحلته الاستكشافية رفع ذلك الجنرال سماعة هاتفه واتصل بأكاديمية العلوم السوفييتية وكان ما كان..

ولم يكن (كوليك) يعلم كل هذا إلا أنه حتى ولو عرف كل التفاصيل لم يكن ليتنازل قط عن تلك الفرصة الذهبية لبحث أسباب انفجار (سيبيريا)..

وفي كل الأحوال لقد قبل التمويل وتمسّك به وتشبّث بالفرصة وبدأ رحلته..

ويا لها من رحلة..

لقد استقل (كوليك) وفريقه القطار وقطعوا به (سيبيريا) كلها تقريبًا حتى نهاية الخط في بلدة (تيشيت) ومن هناك استخدموا الجياد والزحافات حتى (فانافارا)..

و(فانافارا) هذه كانت آخر المناطق المأهولة والمسكونة في صحراء (سيبيريا) الجليدية قبل أن تبدأ منطقة (التايجا)..

ولو أنك ذكّرت كلمة (التايجا) في أي مكانٍ من الاتحاد السوفييتي في تلك الفترة لاتسعت عيون سامعيك في هلع واصطكت أسنانهم ورُكّبهم في رعب بلا حدود..

هذا لأن (التايجا) هي المجهول..

المنطقة الرهيبة من (سيبيريا) في ذلك الحين والتي ظلّت تثير الرعب في القلوب والنفوس حتى بعد أن أقيمت فيها بعض المدن الحديثة بعد الحرب العالمية الثانية..

ولأن الفضول العلمي يفوق دومًا الخوف والرعب النقط (كوليك) وفريقه أنفاسهم في قوة ثم غاصوا في (التايجا)..

وكانت مرحلة رهيبة بحق من تلك الرحلة..

الرحلة التي استغرقت شهرًا كاملًا في أعماق (التايجا) ذاق خلاله (كوليك) وفريقه الأمرين وواجهوا الأهوال وسط صقيع (سيبيريا) وتلوجها الرهيبة حتى بلغوا نهر (ميكيرتا)..

وهناك كانت البداية..

لأوّل مرة منذ بدأت الرحلة رصد (كوليك) وفريقه أوّل علامة من علامات الانفجار..

كانت كل الأشجار في المنطقة قد اقتلعت من جذورها وتراصت على نحوٍ منتظم ككتيبة عسكرية لقيت مصرعها فجأة أثناء طابور الصباح..

وكانت كلها تلتزم باتجاه واحد..

فكل قممها بلا استثناء كانت تتجه نحو الجنوب الشرقي..

وسجّل (كوليك) هذه الملحوظة..

وقام الرسّام المصاحب للفريق برسم الأشجار في موضعها هذا..

ثم واصل الكل رحلتهم..

وكلما توغَّلوا أكثر كانت علامات الدمار تبدو أكثر شدة وبشاعة..

حتى أشجار (التايجا) الهائلة اقتلعها الانفجار اقتلاعًا من جذورها وصفَّها على النحو نفسه بحيث كانت قممها كلها في اتجاه الجنوب الشرقي وجذورها تشير إلى الشمال الغربي حيث مركز الانفجار حتمًا..

ومع الدمار والخراب إضافة إلى الإرهاق والتعب والرعب والهلع توقَّف أفراد فريق (كوليك) ورفضوا الاستمرار في الرحلة..

وهنا انتقل كل الرعب والهلع إلى (كوليك) نفسه الذي حاول في استماتة إثناءهم عن قرارهم وإقناعهم بمواصلة الرحلة..

ولكن هيهات..

الرجال الذين التهمُّهم الرعب تشبَّثوا بموقفهم وأصرَّوا على قرارهم وكأنما يدركون أن الجحيم ينتظرهم لو تقدموا كيلو مترًا واحدًا..

ولم يعد أمام (كوليك) سوى الانصياع..

وبقلب تملؤه الجسرة انصاع (كوليك) للموقف وأنهى الرحلة وعاد إلى (موسكو) بكل المرارة..

ولكنه لم يستسلم..

ولأنه لم يكن قد استهلك كل التمويل المخصص لحملته راح (كوليك) يبحث عن مرافقين جدد إلى أن عاود الكرة مرة أخرى في يونيو من العام نفسه..

وبدأ رحلته من جديد..

الفارق الوحيد في هذه المرة هو أنه كان يعرف طريقه جيِّدًا حتى إن الرحلة قد استغرقت وقتًا أقل بكثير للوصول إلى (التايجا) والتوغُّل فيها حتى بلغ منطقة يُطلق عليها اسم (المراجل)..

وهناك خفق قلبه في شدة..

بل وبمنتهى الشدة..

ففي تلك المنطقة عند نهر (تانجسكا) كان كل شيء يؤكِّد أنهم في مركز الانفجار..

فالأشجار المقତلعة لم تكن قممها تتجه نحو الجنوب الشرقي فحسب بل نحو كل الاتجاهات وهي متراصة على نحوٍ منتظم تاركة فيما بينها دائرة واسعة خالية تمامًا..

خالية من الأشجار والنباتات..

وحتى الحشرات..

الأعشاب الصغيرة المقاومة للبرودة كانت تنمو وتنتشر في كل المنطقة..

فيما عدا تلك الدائرة..

وأمام ذلك المشهد وقف (كوليك) وفريقه مبهورين وبدا لهم أنهم قد توصلوا إلى كشفٍ هائلٍ مما أعاد النشاط إلى عروقهم فراحوا يسجلون ويرسمون ويصورون كل ما حولهم..

وبالذات تلك النباتات التي بدت غريبة وغير مألوفة عند الحدود القريبة للدائرة..

ومن منطلق تخصصاتهم راح كلٌ منهم يكتب تقريره ويصف ما يراه..

ثم بدأت الحالات المرضية..

المغص والإسهال المعوي والتقرحات الحادة..

ومرة أخرى اضطر (كوليك) للعودة مع فريقه، ولكنه في هذه المرة كان يحمل تقريرًا موقعًا من معظم أفراد الفريق يؤكد أن ما حدث في (تانجسكا) هو أن نيزكًا هائلًا من الصلب قد هوى على المكان وانفجر مسببًا كل هذا الدمار..

وكان (كوليك) مطمئنًا تمامًا إلى تقريره هذا، وإلى أنه قد وجدَ حلَّ اللغز وأنهى مشكلة الانفجار الغامض على الرغم من أنه لم يستطع تفسير الأعراض التي أصيب بها بعض أفراد الفريق والتي أدت إلى موت اثنين منهم ولا ما أصاب تلك النباتات المتحوّرة عند مركز الانفجار..

ولم تكن لديه حتى الفرصة للبحث عن التفسير..

فعقب إصداره كتابه المعروف باسم (انفجار سيبيريا.. التفسير الحاسم) وتعليق العلماء عليه اندلعت الحرب العالمية الثانية واشتعلت النيران في (أوروبا) كلها ثم لم تلبث أن امتدّت إلى الاتحاد السوفييتي نفسه..

وتغيّر معها الموقف كله بالنسبة للعالم الشاب (كوليك) وبالنسبة لفكرة انفجار (سيبيريا) نفسها..

تغيّر تمامًا.

\*\*\*

\* في عام 1939م وبعد مرحلة طويلة من تثبيت الأقدام، وإعادة بناء الجيش، أسفر (أدولف هتلر) عن نواياه الحقيقية، وبدأ في اجتياح أوروبا بلا هوادة..

وعلى الرغم من معاهدة الدفاع المشترك التي وقّعها مع السوفييت قرّر (هتلر) فجأة غزو (روسيا)؛ فأطلق جيوشه نحوها في عملية رهيبة حملت اسم (بارباروسا) أو ذي اللحية الحمراء..

وانطلقت الجيوش النازية نحو روسيا الحمراء، وراحت تحصد كل من يواجهها من أرواح بلا رحمة أو شفقة..

ومن بين من حصدهم الأسلحة النازية كان العالم الشاب (ليونيد كوليك) بكل خبرته ومعلوماته عن انفجار (سيبيريا)..

ومع الانفجارات والنيران والرصاصات في كل مكانٍ لم يبالي أحدٌ بموت (كوليك) أو بقصة ذلك الانفجار الغامض في (تانجسكا)..

ولكن التقدّم الألماني لم يستمر..

فمع مجموعة من القرارات الديكتاتورية الخاطئة بدأ النازيون يتلقون الهزيمة تلو الأخرى مما أجبرهم على التراجع والاندحار والهزيمة المريرة في قلب (برلين) نفسها..

وحتى لا يقع في قبضة السوفييت انتحر الزعيم النازي (أدولف هتلر) مع عددٍ من رجاله وأطبق الحلفاء على (برلين) من الجانبين واندحرت (ألمانيا) النازية وسقط الرايخ الثالث سقوطًا مدويًا..

وبعد فترة قصيرة أُلقت (أمريكا) قنبلتيها الذريتين على (هيروشيما) و(ناجازاكي) ومحتهما تمامًا من الخريطة لتضع الحرب أوزارها وتبدأ عملية إعادة البناء في (أوروبا) والاتحاد السوفييتي..

وفي الوقت ذاته بدأت عملية رصد آثار القنبلة الذرية وتداعياتها وتأثيراتها الإشعاعية و..

وفجأة توقّف أحد العلماء أمام التقارير التي تصف آثار قنبلة (هيروشيما) والتي بدت له مشابهة كثيرًا لتقارير (ليونيد كوليك) حول ذلك الانفجار الغامض في (تانجسكا)..

ذلك العالم كان سوفييتيًا أيضًا يُدعى (زولوتوف) وكان أحد المسؤولين عن دراسة آثار انفجار (هيروشيما)؛ لمعرفة طبيعة ذلك السلاح الرهيب الذي توصل إليه الأمريكيون وحصلوا بموجبه على زعامة العالم كله بضربة واحدة..

وعلى الرغم من دقة مهمة (زولوتوف) وخطورتها فقد انشغل لبعض الوقت في البحث عن أوجه التشابه الكبيرة بين انفجار (هيروشيما) وانفجار (سيبيريا) الغامض..

ففي الحالتين ووفقاً لتقارير بعثة (كوليك) كان التدمير أقل نسبياً في مركز الانفجار منه في أطرافه..

كما أن بعض الأشجار قد ظلت واقفة في المركزين..

وفي كل من الانفجارين ارتفع عمود هائل من اللهب والدخان على شكل فطر «عش الغراب» وفي كليهما نبتت النباتات في سرعة بعد فترة قصيرة فيما عدا منطقة المركز..

الفارق الوحيد الذي وجده (زولوتوف) هو أن عمود الدخان واللهب قد ارتفع لمسافة أعلى بكثير في انفجار (سيبيريا) عنه في انفجار (هيروشيما) الرهيب..

وبسرعة، ودون أن يضيع لحظة واحدة راح (زولوتوف) يجري حساباته ويضع معادلاته ويدرس الانفجارين قبل أن يتوصل إلى نتيجة مذهشة أذهلته هو شخصياً قبل سواه..

فوفقاً لما توصل إليه لم يكن انفجار (سيبيريا) بسبب نيزك من الصلب، وإنما كان انفجاراً ذرياً بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ..

انفجار أقوى ألف مرة من انفجار (هيروشيما)..

وبكل لهفته حمل (زولوتوف) كل حساباته ومعادلاته ونتائجه إلى القيادة العسكرية ووضعها بين أيديهم مطالباً بتمويل حملة استكشافية جديدة لكشف لغز ما حدث هناك..

في أعماق (سيبيريا)..

وفي تلك الفترة بالتحديد ومع النتائج التي توصل إليها (زولوتوف) لم يكن من العسير عليه أن يحصل على التمويل اللازم..

بل وأكثر من اللازم أيضاً..

فالسوفييت في تلك المرحلة كانوا مستعدين لدفع أعمارهم نفسها في سبيل كشف أسرار القنبلة الذرية والفوز بوسيلة إنتاج السلاح نفسه الذي وضع الأمريكيين على قمة العالم..

وفي أوائل عام 1947م قاد (زولوتوف) حملته إلى (التايجا) حيث مركز انفجار (تانجسكا) في قلب (سيبيريا)..

ولم تكن الرحلة شاقّة هذه المرة كما كانت مع فريق (كوليك) فقد تطوّرت وسائل النقل والطيران والإعاشة كتداعٍ حتمي لسنوات الحرب الطويلة..

ووصل (زولوتوف) وبعثته إلى مركز الانفجار وهم يرتدون ثيابًا واقية من التأثيرات الإشعاعية النووية، بعد أن افترض العالم السوفييتي أن كل الأعراض التي أصابت كل من سعى لحل لغز انفجار (سيبيريا) الغامض قد نجمت عن التأثيرات الإشعاعية التي لم يكن من الممكن أن يفهمها أو ينجح في تشخيصها الأطباء قبل انفجار (هيروشيما)..

ولقد بدأت بعثة (زولوتوف) دراستها للأمر من منظور جديد ومختلف تمامًا..

وكانت النتائج مذهلة.. بل مذهلة..

وإلى أقصى حد..

فكل شيء في مركز الانفجار كان يشير إلى الآثار النووية لما حدث..

كانت هناك تغيرات وراثية عنيفة في نباتات وحشرات (سيبيريا) في منطقة الانفجار توحى بأن أجدادها قد تعرّضت لإشعاعات ذرية أدت إلى حدوث تحورات في جيناتها الأساسية..

وكانت هناك أيضًا تقرّحات واضحة على أجسام الحيوانات هناك تمامًا كما حدث في (هيروشيما) بعد الانفجار..

وسجّل أفراد البعثة كل هذا وجمعوا عينات من النباتات والحشرات المتحوّرة وأسروا إحدى الحيوانات المصابة قبل أن ينتبهوا إلى أن الأمر لا يقتصر على هذا فحسب..

ففي منطقة الانفجار عثر فريق العلماء أيضًا على أنواع من مادة (السيليكا) تحوي في قلبها فقاعات هوائية تمامًا كتلك التي يتم رصدها بالتحليل الطيفي عبر جهاز (سبكتروجراف) للأجسام الفضائية..

وعثروا أيضًا على قطع من الفسفور النقي..

والفسفور النقي مادة يستحيل وجودها في الطبيعة بل ويحتاج تصنيعها إلى تكنولوجيا كانت وما زالت عسيرة ومعقّدة للغاية..

وكانت هناك عناصر نادرة ومثيرة للدهشة مثل عنصر (الديوتريوم) النادر جدًّا..

ودون أدنى تردّد أوشك سجّل العلماء في تقريرهم أن ما حدث عند نهر (تانجسكا) في أعماق (سيبيريا) هو انفجار نووي بشكل أو بآخر..

ولم يكتفِ العلماء بهذا..

لقد أكدوا أيضًا أن ذلك الانفجار النووي لم يحدث عند ارتطام جسم ما بكوكب الأرض..

لقد حدث قبل أن يبلغ ذلك الجسم الأرض!

وبالتحديد على ارتفاع ثمانية كيلو مترات بالتحديد..

الأمر إذاً لا يمكن أن ينشأ عن نيزك من الصلب كما قالت تقارير فريق (كوليك) فيما قبل..

لقد كان أمرًا مختلفًا..

مختلفًا تمامًا..

ووسط كل هذا النشاط كان (زولوتوف) يعيد حساباتها ومعادلاته، ويستمع إلى أقوال الشهود..

ليس شاهدًا أو شاهدين أو حتى عشرة..

لقد جمع (زولوتوف) هذه المرة أقوال أكثر من سبعمائة شاهد عيان استمع إليهم جميعًا في صبر واهتمام، ودرس كل كلمة نطقوا بها، وكل إشارة ألمحوا إليها..

وبعد كل هذا خرج (زولوتوف) إلى فريقه بنظرية جديدة تمامًا..

نظرية فجّرت كل دهشتهم وحيرتهم..

واستكارهم أيضًا..

فالواقع أن نظرية العالم الأكاديمي السوفييتي (زولوتوف) كانت غريبة بحق..

غريبة ومذهلة..

إلى أقصى حد.

\*\*\*

مع رصد العالم الأكاديمي السوفييتي (زولوتوف) لأقوال شهود العيان في واقعة انفجار (سيبيريا) استوقفه وصفٌ مدهش اتفق عليه أكثر من سبعمائة شاهد..

فمع اختلاف طبائعهم ومواقعهم اتفق الشهود السبعمائة على أن ذلك الجسم الأسطواني المنتظم الذي هبط لينفجر على ارتفاع ثمانية كيلو مترات من سطح الأرض محدثاً ذلك الدمار الرهيب قد تحرك أفقياً أو على نحوٍ شبيه أفقي من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي وكأنه يُجري مناورة مدروسة قبل أن يهوي إلى أسفل وينفجر..

وكان هذا يعني أنه ليس كتلة جامدة أيّاً كان شكلها عبرت الغلاف الجوي لتنفجر فوق الأرض بعد سقوطها أسيرة الجاذبية الأرضية..

لقد كان جسماً يمكن تغيير اتجاهه ودفعه إلى القيام بمناورة ما لم تتجح في منع سقوطه أو انفجاره..

لذا فقد أعلن (زولوتوف) نظريته الجديدة التي أصبح يؤمن بها تماماً وهي أن ذلك الجسم الذي أحدث انفجار (سيبيريا) كان سفينة فضاء!

سفينة قادمة من عالم آخر وتستخدم الطاقة النووية في تسييرها، وأن ركبها أدركوا أنها ستنفجر لا محالة فاتجهوا بها نحو منطقة غير مأهولة لتنفجر دون أن تؤذي سكان الأرض!!

ووفقاً لنظرية (زولوتوف) يكون كل ما عثر عليه العلماء في المنطقة هو بقايا المركبة الفضائية بعد انفجارها النووي..

وفي فترة كهذه كان من الطبيعي أن تقابل نظرية (زولوتوف) بالاستنكار الشديد، إلا أن واقعة رجل الأعمال (كينيث أرنولد) في (واشنطن) عام 1946م والتي رصد خلالها مجموعة من الأطباق الطائرة ومنحها ذلك الاسم الذي ظل يرتبط بها حتى يومنا هذا امتزجت بنظرية (زولوتوف) لتتعلق إلى آلاف العقول وتحصل على صدى مدهش..

أصحاب العقول المنطلقة والخيال الجامح مالوا كثيراً إلى تصديق نظرية (زولوتوف) وتأييدها بكل الحماس خاصة وقد وجدوا فيها التفسير المنطقي والعلمي لكل ما كان يحيط بالموقف كله من غموض..

ولكن العلماء رفضوا تأييد تلك النظرية بشدة..

لقد أكدوا أن انفجاراً بهذا الحجم من المستحيل أن يترك أي بقايا يمكن اعتبارها الدليل على سقوط سفينة فضائية من عالم آخر!

بل إن فكرة وجود حياة عاقلة متطورة خارج حدود كوكب الأرض كانت مرفوضة بإصرار من قبل معظم العلماء دون أدلة مادية حتمية على هذا.. ولقد دافع (زولوتوف) عن نظريته بإلحاح وحماس وتمسك بها بمنتهى الشدة في وجوه مخالفيه ومعارضيه ومستكبريه..

إلا أن القيادة العسكرية السوفيتية لم يرق لها هذا الصراع العلمي ولو لحظة واحدة..

لقد موّلت حملة (زولوتوف) لسببٍ واحدٍ ألا وهو العثور على أسرار القنابل الذرية والانفجارات النووية في قلب (سيبيريا) وما دام هذا لم يتحقّق فلا شأن لها بكل ما يحدث..

لذا فقد أخدمت نظرية (زولوتوف)، وتم توجيه اللوم الشديد لصاحبها بل وتحجيم دوره العلمي في الأوساط السوفيتية أيضًا..

ومع انخفاض صوت (زولوتوف) ارتفعت أصوات معارضيهِ ومخالفيه وذاعت نظرية الجسم الفضائي الموجّه على الرغم من كل ما تحمله من إثباتات ودلائل، وتوارت خلف عدة نظريات أخرى تقوّت عليها كلها تلك النظرية الجديدة التي وضعها العالمان (أ. جاكسون) وزميله (ب. راين) والتي خالفت كل النظريات السابقة..

فمن وجهة نظر العاملين، كان الانفجار ناشئاً عن ارتطام أحد الثقوب السوداء ذات الحجم الدقيق بالأرض ما أحدث هذا الانفجار الهائل الرهيب في منطقة (سيبيريا)..

والثقوب السوداء هذه هي نجوم محتضرة انكماش حجمها بشدة بعد نفاد طاقتها فتضاعفت كثافتها آلاف المرات، وتزايدت جاذبيتها إلى حدٍّ مخيفٍ..

وعلى الرغم من أن تلك الثقوب السوداء تمتص كل ما حولها حتى الضوء نفسه إلا أن حجمها يتقلص أكثر وأكثر حتى يبلغ ما قد لا يزيد حجمه عن حجم قبضة يدٍ عادية..

ومع شدة جاذبيتها وصغر حجمها الشديد قد تتجذب الثقوب السوداء نحو الكواكب الأكبر حجمًا عند رغبتها في جذبها إليها فتندفع نحوها بسرعة هائلة حتى ترتطم بها..

ثم يحدث الانفجار..

إذًا، فوفقًا لنظرية (جاكسون) و(راين) انجذب ثقب أسود صغير نحو الأرض وارتطم بها وأحدث ذلك الانفجار الهائل!!

والنظرية قابلة للحدوث من الناحية الافتراضية والعلمية، إلا أنها لا تفسّر أقوال شهود العيان عن الشكل الأسطواني للجسم الساقط، ولا عن مناورته الأفقية قبل سقوطه وانفجاره..

بل ولم تفسّر حتى العثور على تلك العناصر في مركز الانفجار أو التحوّرات الوراثية في النباتات والحشرات من حوله..

ولم تفسّر أكثر تلك الأعراض التي أصابت الباحثين عن اللغز أو معادلات (زولوتوف) التي تربط بين الانفجار وقنبلة (هيروشيما)..

لذا فقد فنت تلك النظرية بأسرع مما ولدت..

ولقد حاول فريقٌ من الباحثين الأمريكيين في بدايات السبعينيات السفر إلى (سيبيريا)؛ لرصد الترددات الإشعاعية في منطقة الانفجار وتحديد ما إذا كان ما حدث هناك انفجار نوويٍّ من عدمه..

ولكنَّ السلطات السوفيتية رفضت هذا بشدة..

ولقد برَّر السوفييت رفضهم حينذاك بأن منطقة (التايجا) وما حولها قد أصبحت منطقة عسكرية محظورة، وأن التداعيات الأمنية تمنع تمامًا وجود أي أجنب هناك..

ومهما كانت الأسباب..

والواقع أن السلطات العسكرية السوفيتية كانت قد أحاطت تلك المنطقة من نهر (تانجسكا) في قلب (سيبيريا) بنطاق فولاذي رهيب وكأنها تحاول حماية سرٍّ ما داخله..

سر ربما كشفه فريق علمائها الذي أنشأ مركزًا دائمًا هناك لسبب لم يُعلن عنه أبدًا ولم تنشر أبحاثه قط على المستوى العام..

ولقد أغضب قرار السوفييت فريق العلماء الأمريكي بشدة، وراح بعضهم يؤكد أن الجهات العسكرية السوفيتية قد توصلت بالفعل إلى سرِّ انفجار (سيبيريا) الغامض، وأنها تخفي ما توصلت إليه؛ لأنه يمنحها تفوقًا تكنولوجيًا رهيبًا تحرص على الحفاظ عليه لنفسها وحدها..

وعلى كل الأحوال وأيًا كانت أسباب رفض السوفييت أو مبررات غضب الأمريكيين؛ فقد أصبحت منطقة (تانجسكا) مغلقة ولم يعد أمام العلماء سوى وضع نظريات جافة تعتمد على تقارير بعثتي (كوليك) و(زولوتوف) وحدهما..

ولكن هذا لم يُوقف المهتمين بالأمر أو يفت في عضدهم؛ فقد واصلوا دراسة تلك التقارير القديمة ليخرجوا علينا بنظرية جديدة مذهشة..

نظرية المادة المضادة..

فمن (كاليفورنيا) في الولايات المتحدة الأمريكية خرج العالمان (س. أتلوري) و (ف. لبيبي) بنظرية تقول: إن جزءًا من المادة المضادة قد سبح طويلاً في الكون حتى سقط أسير الجاذبية الأرضية التي جذبتة إلى الأرض حيث انفجر في هوائها..

والمادة المضادة هذه هي مادة معكوسة بالنسبة لقواعد المادة المعروفة في عالمنا..

فالتركيب الذري الطبيعي لكل عنصر في عالمنا يعتمد على وجود نواة موجبة تدور حولها إلكترونات سالبة، أما تركيب الذرة في المادة المضادة فهو يعتمد على نواة سالبة تدور حولها بوزيترونات موجبة..

ووفقاً للقاعدة العلمية؛ لو التقت المادة بالمادة المضادة يكون الناتج انفجاراً هائلاً..

تماماً مثل انفجار (سبييريا)..

ولقد لاقت نظرية المادة المضادة هذه بعض القبول من بعض فرق العلماء إلا أن البعض الآخر اعترض عليها تماماً مؤكداً أنها عاجزة عن تفسير كل غموض الانفجار..

وبالذات التحورات الوراثة..

وهنا كان من الضروري البحث عن نظرية جديدة؛ لتفسير الموقف بأكمله..

وهذا ما فعله أحد العلماء الفرنسيين عندما فاجأ العالم كله بإعادة طرح نظرية (كوليك) ولكن مع تطوير جوهري..

للغاية.

\*\*\*

لأكثر من عشر سنوات راح العالم الفرنسي (أ. فرانسوا) يقرأ ويدرس كل ما كُتِبَ عن انفجار (سبييريا) بمنتهى الدقة والاهتمام، قبل أن يجد في نفسه ميلاً شديداً للاقتناع بما اقتنع به العالم السوفييتي الشاب (ليونيد كوليك) منذ عشرينيات القرن العشرين..

فمن وجهة نظره أيضاً كان ما حدث في أعماق (سبييريا) ناشئاً عن سقوط جسم ما من السماء كان يحوي بعض المواد النادرة التي أحدثت ذلك الانفجار النووي وتركت خلفها بعض العناصر والتأثيرات التي رصدها العلماء فيما بعد..

ولكن ذلك الجسم لم يكن نيزكاً..

بل كان مذنباً..

والفارق بين النيزك والمذنب هو أن الأخير ينتمي إلى نوع من الأجرام السماوية سحابية الشكل ذات طبيعة دورية ومسارات تدور حول الشمس، ويظهر للراصد وكأنه يجرّ خلفه ذبلاً طويلاً منحه اسمه هذا، ويتكوّن ذلك الذيل من الغازات المتجمّدة أو المحفوظة إلى جوار كميات من الغبار والغاز والجليد..

والمذنب له نواة أو أكثر ويتكوّن من صخورٍ أو حبيباتٍ رمليةٍ من عدة عناصر تتخلّلها مواد غازية..

ووفقاً لنظرية (أفرانسوا) كان ما سقط على نهر (تانجسكا) في أعماق (سيبيريا) وأحدث ذلك الانفجار الغامض الرهيب هناك هو مذنبٌ يتكوّن من بعض العناصر النادرة مثل (الديوتريوم) والفسفور النقي ضلّ طريقه في الفضاء أو ارتطم بأحد النيازك مما سبّب انحرافاً في مساره الدوري ودفعه نحو جاذبية الأرض..

كانت نظرية (فرانسوا) مدهشة ومفاجئة بالفعل وتستحق التوقّف والدراسة، خاصة وأنها تتفق مع نظرية افتراضية تبناها عشرات العلماء لفترة طويلة وتقول إن شيئاً مماثلاً قد حدث منذ ملايين السنين حيث سقط مذنبٌ آخر على الأرض وصنع انفجاراً مماثلاً، ولكنه أكثر قوة بمليون مرة منذ ما يقرب من خمسة وستين مليون عام..

وكان ذلك الانفجار القديم جدّاً هو السبب في فناء الديناصورات وإفساح المجال لنا نحن البشر؛ لننمو ونتطوّر..

وفقاً لنظرية (فرانسوا) إذاً والتي اتفق معها عشرات العلماء لم يكن انفجار (سيبيريا) هو الأوّل من نوعه..

ولن يكون الأخير..

فالمذنبات التي اعتبرها العلماء يوماً قادمة من خارج المجموعة الشمسية هي جزء منها بالفعل وتجوبها طوال الوقت، وأنه من المحتمل جدّاً أن يحدث ما يغيّر اتجاهها ويبدّل مسارها فتسقط على أي كوكب من كواكب المجموعة الشمسية..

وتنفجر هناك..

وبمنتهى العنف..

ولأوّل مرة منذ عام 1908م أعلن معظم العلماء تأييدهم لنظرية تتعلّق بانفجار (سيبيريا) الرهيب وكانهم يحاولون وضع نهاية للأمر وحسم مشكلة طال بحثها..

وبدا وكأن الأمر قد انتهى هنا، ولم يعد هناك ما يبرّر مواصلة البحث على الرغم من أن الأوساط العلمية السوفييتية قد لزمت الصمت تماماً، ولم تعلن تأييدها أو رفضها للنظرية وكان الأمر لا يعنيهها أو كأنها أيضاً ترغب في إنهاء الموقف ووضع تفسير يحسم الأمور ويخمد الجدل الدائر حول الانفجار الغامض..

ولكن وبعد أن استقرت كل الأمور وهدأت الضجة أصيبت نظرية المذنب هذه بطعنة مفاجئة عنيفة سحقتها من أساسها..

وأعجب ما في هذه الطعنة المفاجئة كان مصدرها نفسه..

فالعالم الذي اعترض على النظرية ورفضها وأعلن أنها لا تتفق أبداً مع نقاط أساسية في ما حدث كان (أفرانسوا) نفسه..

فبعد أن حصل على تأييد معظم العلماء واهتمامهم وبدا وكأنه الشخص الذي حسم لغز انفجار (سيبيريا) انتبه (أفرانسوا) فجأة إلى أن نظريته كلها تتعارض مع نقطة جوهرية للغاية لم يبال بها في البداية، ثم بدت له فيما بعد كأخطر نقطة في العملية كلها..

أقوال الشهود..

شهود العيان السبعمئة الذين وصفوا مناورة الجسم الساقط والذي انفجر على مسافة ثمانية كيلو مترات من سطح الأرض..

والذي جذب انتباه (فرانسوا) لم يكن تلك المناورة التي قام بها ذلك الجسم، وإنما الوصف الأساسي له..

جسم أسطواني منتظم..

فالمذنب وفقاً لتكوينه الأساسي لا يمكن أن يُوصف أبداً بأنه جسم أسطواني منتظم..

وكم كانت دهشة الأوساط العلمية على اختلافها عندما أعلن (أفرانسوا) خطأ نظريته واعتذاره العلمي عنها..

فقد كان التداعي الطبيعي لهذا هو إعادة فتح باب البحث عن تفسير منطقي للغز الانفجار..

انفجار (سيبيريا) الغامض..

ومرة أخرى عاد مجموعة من الباحثين والدارسين والعلماء إلى مراجعة تقارير بعثتي (كوليك) و(زولوتوف)..

ومع نهايات ثمانينيات القرن العشرين وتوسع العلوم في شتى المجالات وتطور أجهزة الكمبيوتر ومعدات التماثل وبرامج المحاكاة، بدأ العلماء في صنع تصور إلكتروني لانفجار (سيبيريا)..

وعبر برنامج المحاكاة المتطور تم وضع كل التفاصيل التي وردت في التقريرين عن زاوية سقوط ذلك الجسم المجهول ومناورته وانفجاره على ذلك الارتفاع والتأثيرات التي خلفها مباشرة، وعن طريق التحورات الوراثية فيما بعد..

وجاءت نتائج المحاكاة مذهشة..

فلأن الكمبيوتر جهاز محايد لا شأن له بالتفاعلات النفسية أو الآراء المسبقة أو التعصبات غير المنطقية فقد فسّر الأمر بنفس التفسير الذي وضعه (زولوتوف) عام 1947م..

الجسم الفضائي..

الكمبيوتر أكد أن الانفجار ناشئ عن جسم صناعي يستخدم طاقة نووية لحركته وانطلاقه، وأنه قد سقط على الأرض لسبب ما يعتقد أنه عطل في محركاته أو وسيلة تحريكه وجرت محاولة لإصلاح ذلك العطل أو تأمين عملية هبوط طارئة إلا أن تلك المحاولة قد فشلت بعد مناورة محدودة وأدى فشلها إلى انفجار ذلك الجسم على ارتفاع ثمانية كيلو مترات عن سطح الأرض انفجاراً نووياً هائلاً أدى إلى كل هذا الخراب والدمار الذي تركه خلفه والبقايا التي انتشرت على مساحة واسعة حاملة تلك العناصر النادرة التي تم العثور عليها والتي وردت في تقرير بعثة (زولوتوف) والأخرى التي لم ترد في التقرير، والتي ربما عثر عليها السوفييت فيما بعد والتي جعلتهم يغلقون المنطقة تماماً ويعتبرونها منطقة عسكرية محظورة..

وعلى الرغم من تأييد الكمبيوتر المحايد لنظرية (زولوتوف) الخاصة بالمركبة الفضائية ظلّ فريق من العلماء يستنكر الفكرة تماماً، ويرفض الاعتراف بوجود مخلوقات عاقلة في كواكب أخرى يمكنها أن تصل إلى الأرض وتصنع ذلك الانفجار النووي بأي حال من الأحوال..

وفي تسعينيات القرن العشرين سقط الاتحاد السوفييتي، وبدأ تقسيمه إلى دويلات متفرقة تحمل أعلاماً مختلفة وتصوّر العلماء أن هذا سيؤدي إلى إزالة الحظر الأمني عن منطقة نهر (تانجسكا) وكشف أسرار انفجار (سبيريا)..

ولكن هذا لم يحدث أبداً حتى لحظة كتابة هذه السطور..

الروس ظلوا يحيطون تلك المنطقة بسياج أمني منيع ويحظرون الاقتراب منها أو تصويرها أو إجراء أية أبحاث خارجية حولها..

ولقد حاول الأمريكيون رصد منطقة الانفجار بواسطة أقمارهم الصناعية إلا أن هذا لم يُسفر عن شيء..

وظلّ الغموض مستمراً..

فحتي هذه اللحظة وأياً كانت النظريات أو الأسباب أو المبررات ليست أمامنا سوى حقيقة واحدة مؤكدة..

لقد كان هناك انفجار هائل رهيب عند منطقة نهر (تانجسكا) في أعماق (سيبيريا)..

انفجار كان ولا يزال يحمل نفس الغموض..

ونفس الاسم..

اسم (انفجار سيبيريا)..

الغامض.

\*\*\*

## تلك الكائنات العجيبة

أشرقت الشمس على نحوٍ مبهج وسط جو صحو وسماء خالية من الغيوم، في صباح ذلك اليوم من أوائل عام 1976م، عندما أبحرت الفرقاطة الحربية الأمريكية (شتاين) من الميناء الحربي في (سان دييجو) في ولاية (كاليفورنيا) في مهمة عسكرية خاصة للكشف عن وجود أية غواصات أجنبية أو معادية في المياه الاستوائية جنوب الولايات المتحدة الأمريكية، وساعد هذا الجو المنعش على تنشيط البحارة الذين انتشروا على سطح الفرقاطة يؤدون عملهم في حماس وهم يتبادلون الدعابات أو يشتركون في أغنية من أغنيات البحر الشهيرة في حين راح الضباط والفنيون يراجعون بيانات أجهزة الرصد ويراقبون المحيط من حولهم في انتباهٍ، خاصة وأن تلك الفترة كانت إحدى أنشط الفترات في تاريخ الحرب الباردة بين المعسكرين الغربي والشرقي و..

وفجأة ومع عبور الفرقاطة لخط الاستواء، ارتطم شيءٌ ما بقاعها..

وبمنتهى العنف..

ثم تعطلت أجهزة (السونار) المسؤولة عن فحص الأعماق دفعة واحدة..

وكان هذا أمرًا عجيبيًا للغاية؛ فالفرقاطة كانت في منطقة مياه عميقة وأجهزة الرصد (قبل تعطلها) لم ترصد اقتراب أي أجسام صلبة منها، في حين أن عنف الارتطام يوحى بقوة وضخامة ما ارتطمت به..

أو ما ارتطم بها..

ولأن عمل تلك الأجهزة هو أساس المهمة، ولأن البحارة والفنيين قد عجزوا عن إصلاحها بإمكانياتهم المتاحة مع عجزهم الشديد عن تحديد سبب ذلك الارتطام الغامض فقد اضطر قبطان الفرقاطة إلى إعلان فشل المهمة واستدار بها عائداً إلى (كاليفورنيا)..

وهناك في الميناء الحربي في (سان دييجو) تم وضع الفرقاطة فيما يعرف باسم (الحوض الجاف) ليتم فحصها جيداً في الترسانة التابعة للقوات البحرية؛ لتحديد سبب ما حدث..

وكانت مفاجأة مذهلة للجميع!

ففي قاع الفرقاطة عثر الفاحصون على عشرات الحُفَر المنتظمة المتراسة على نحوٍ شبيه دائري من الجانبين..

ولكن المفاجأة المذهلة بحق هي أن بعض تلك الحفر كانت تحوي أسناناً..

نعم.. أسنان طويلة شبيهة بالمسامير منتشرة على مساحة هائلة توحى بأن صاحبها حيوان بحري ضخم..

بل عملاق إن صحَّ القول..

وهنا كان من الطبيعي أن تسارع القوات البحرية الأمريكية إلى الاستعانة بأحد أشهر علماء الأحياء في (أمريكا) والعالم كله الدكتور (كارل ستوفر)..

وجاء الدكتور (ستوفر) وفحص تلك الحفر في قاع الفرقاطة، ثم حمل معه بعض تلك الأسنان المسامرية الضخمة الحادة، وأغلق على نفسه معمله مع كل أدواته ومراجعته لثلاثة أيام كاملة قبل أن يخرج بنتيجة مخيفة..

فالكائن البحري الذي فعل هذا يفوق حجمه حجم الحوت الأزرق الذي كان يعتبر أكثر كائنات الأرض ضخامة بمرتين على الأقل..

والأدهى أنه كان مجهولاً لا مثيل له بين كل الكائنات البحرية المسجلة والمعروفة منذ وجدت السجلات التفصيلية لها!

ولقد أوردت المراجع والسجلات البحرية الرسمية هذه القصة في القسم الخاص بغوامض البحار والمحيطات، دون أن يضاف إليها أي تفسير أو تحقق أي تقدّم علمي حتى لحظة كتابة هذه السطور..

ولقد أثارت هذه الواقعة الجدل العلمي لفترة طويلة، وراح عشرات من علماء الأحياء والكائنات البحرية يبحثون في كتبهم ومراجعهم عن أي وصف قديم أو حتى أسطوري لحيوان أو كائن بحري شبيه..

وقبل حتى أن تهدأ هذه الموجة من التوتر كان المحيط يحمل لهم مفاجأة جديدة..

وشبيهة..

فبعد عدة أشهر فحسب وفي النصف الثاني من العام نفسه 1976م، كانت إحدى سفن البحرية الأمريكية تستعد للعودة إلى الشاطئ بعد أن أنهت واحدة من مهامها الروتينية على بُعد مئات الأميال البحرية عندما تعاونَ بعض بحارتها لجذب مرساتها..

وفي المعتاد تستغرق عملية رفع المرساة هذه ما بين خمس أو عشر دقائق، ولكن البحارة انهمكوا في هذا العمل لما يزيد عن ربع الساعة، وبدأ عليهم الإرهاق والتوتر وعددهم يتزايد كل دقيقة دون أن ينجحوا في إنهاء هذه الخطوة الروتينية البسيطة مما جعل الضابط الأول للسفينة يهتف بهم في حدة:

- ماذا دهاكم هذه المرة؟! هل سنقضي اليوم كله في رفع المرساة!؟

مسح رئيس البحارة عرقه الغزير في توتر شديد وهو يجيب:

- الرجال يبذلون قصارى جهدهم أيها الضابط، ولكنَّ هناك شيئاً يعوق المرساة.

انتقل توترهم إلى الضابط الذي استدعى عددًا آخر من الرجال ليتعاون الكل على رفع المرساة..

وعلى الرغم من أن عددهم قد بلغ أربعة أضعاف العدد المعتاد للقيام بمثل هذا العمل، إلا أنهم كانوا يبذلون جهداً مضاعفاً لجذب المرساة وهم يتساءلون في دهشة قلقة عن ذلك الشيء الذي تعلق بها..

وفجأة برز ذلك الشيء إلى السطح..

واتسعت العيون كلها في دُعرٍ ذاهلٍ..

وانطلقت من الحلق شهقات قوية..

فلقد رأوا أمامهم كائناً بحرياً رهيباً لم يروا مثله قط في حياتهم كلها أو حتى في أفلام السينما الخيالية..

كائن يبلغ طوله أكثر من أربعة أمتار ونصف، ويزن ما يقرب من ثلاثة أرباع الطن، له فم هائل مخيف تراصت داخله سبعة صفوف من الأسنان الشبيهة بالمسامير اشتبكت مع المرساة وسببت لهم كل هذا الاضطراب..

ولنصف ساعة كاملة ترك الرجال ذلك الكائن معلقاً بالمرساة خارج مياه المحيط وهم يتطلعون إليه في ذهولٍ لم ينقطع، إلا أنهم وعلى الرغم من دهشتهم وخوفهم عادوا به إلى الشاطئ وسلموه للعلماء؛ لفحصه وتحديد نوعه وفصيلته..

ومرة أخرى تم استدعاء الدكتور (ستوفر)..

ولقد اضطرب الدكتور (ستوفر) وانزعج كثيراً هو وفريق العلماء المعاونين له وهم يفحصون ذلك الشيء العملاق الذي وجودا ما يثبت أنه أو أحد أشباهه هو المسؤول عما حدث للفرقاطة (شتاين) منذ عدة شهور..

ولكنهم ما زالوا لا يجدون له شبيهاً بين كل الكائنات البحرية المعروفة..

حتى بين تلك التي انقرضت منذ عصور ما قبل التاريخ..

وكل ما أمكن لفريق الدكتور (ستوفر) فعله هو أن أطلقوا على ذلك الكائن العجيب اسم (ميجا ماوث) أو صاحب الفم العملاء..

ولقد جرت محاولات علمية بحثية عديدة للعثور على شبيه له في كل محيطات الأرض دون نتيجة إيجابية واحدة..

وهنا -وكما يحدث عادة أمام أي لغز غامض- راحت عشرات النظريات تتوالى على نحوٍ مثير للاهتمام..

فإحدى النظريات الأولى أشارت إلى احتمال أن يكون ذلك الكائن نتاج طفرة وراثية بسبب مؤثر خارجي قوي؛ كوجود تلوّث في المحيطات مثلاً أو بسبب بعض التجارب التجبيرية النووية التي تتم تحت سطحها..

ولقد رفضت الحكومة الأمريكية هذه النظرية فور طرحها؛ ربما لأنها تتهمها هي بأنها المسؤولة عن وجود مثل هذه الوحوش التي يمكن أن تكون مجرد بداية لجيل رهيب من الكائنات البحرية التي يمكن أن تهدد وجود البشر أنفسهم في المستقبل..

ثم جاءت نظرية أخرى تقول: إنه من المحتمل أن يكون ذلك الكائن الرهيب هو أحد الكائنات التي تحيا في الأعماق السحيقة للمحيطات والتي لم يستطع أحد الوصول إليها بعد بسبب الضغط الهائل فيها، وأنه قد صعد إلى السطح لسبب ما، ما أثار توتره ودفعه إلى مهاجمة الأجسام الضخمة المتحركة كالسفن الكبيرة والفرقاطات البحرية وغيرها..

ولم تلق هذه النظرية قبولاً عند جمهور العلماء..

وتماذى عالم آخر ليقول: إن ذلك الكائن وغيره من كائنات لم نرصدها بعد هي مخلوقات حملتها إلينا سفن فضائية من عالم آخر؛ لدراسة إمكانية حياتها في محيطاتنا..

وغضب العديد من العلماء من هذا التفسير واعتبروه محاولة لإلقاء المشكلة على أمور أكثر غموضاً لم يمكن إثباتها بعد في حين استقبل الباقون النظرية بالضحك والسخرية وطرحوها خلف ظهورهم وعادوا يدرسون الأمر..

ولكن كل المحاولات والدراسات لم تصل بهم إلى أي نتائج إيجابية..

أو حتى مشاهدات جديدة..

الشيء الوحيد الذي أكدوه بعد كل البحث والدراسة هو أن الأمر لا يعود إلى التجارب النووية أو التلوّث أو غيرها؛ ودليلهم وبكل بساطة أنها ليست أول مواجهة بين البشر وتلك الكائنات العجيبة

التي لم يتم تصنيفها قط على الرغم من كل ما بلغه علم الحيوان والأحياء المائية من تقدّم مدهش..  
فالمراجع والكتب القديمة كانت تحوي ما هو أكثر غموضًا وغمابة..  
بكثير.

\*\*\*

منذ فجر التاريخ والبحار والمحيطات تثير خيال البشر وخوفهم؛ لأنها رمز للمجهول والغموض  
ومصدر لا محدود لأشياء لا نهاية لها..

ولأنهم لا يرون منها سوى سطحها ولا يستطيعون الغوص أو حتى الرؤية إلا لمسافاتٍ محدودة من  
أعماقها؛ فقد تكفل خيالهم برسم ما تبقى من تلك الأعماق وتصور كل ما يمكن تصوره أو حتى ما لا  
يمكن تصوره فيها..

وفي كل يوم كانت البحار والمحيطات تباغتهم بجديد..

عشرات الصور من الأحياء البحرية التي لا تتشابه حتى مع بعضها البعض تفرزها لهم البحار  
والمحيطات دومًا ودون انقطاع..

الأسماك والقشريات والصدفيات والمحاريات..

أسماك قرش مفترسة وأسماك بيرانا متوحشة ودولفينات ودببة متعاونة..

ولا يمكننا أن نتصور الآن شعور أول بشري شاهد أمامه حوتًا هائل الحجم يختفي خلفه قطيع من  
الأفيال..

أو مواجهته الأولى مع أخطبوط له عدة أذرع وممصات رهيبه..

أو حتى أول عضة من سرطان بحري صغير..

ولقد التقطت السينما ذلك الخوف الغريزي من البحار والمحيطات ومجهولاتها لتنتج منذ أعوامها  
الأولى عشرات الأفلام عن الوحوش والكائنات العجيبة التي تخرج من تحت سطح الماء لتحمل  
الخطر والرعب بقدراتها الرهيبة وقوتها المدهشة الخطيرة..

ولعل أشهر تلك الأفلام سلسلة أفلام الوحش البحري (جودزيلا) التي أنتجتها اليابان في البداية لعدة  
سنوات حققت خلالها نجاحًا جماهيريًا مدهشًا، على الرغم من سذاجة الخدع السينمائية وضعفها، ما

دفع السينما الأمريكية إلى التقطها وإنتاج فيلم باهظ التكاليف متقن الخدع، ولكنه لم يحقق النجاح ذاته الذي حققته السلسلة اليابانية على بساطتها..

أما سلسلة الأفلام التي تعبر بحق عن خوف البشر من المجهول الذي يأتي من أعماق البحار والمحيطات فهي (الفك المفترس) بكل أجزائه والذي أضاف إلى الفكرة التقليدية عن الوحوش البحرية الغامضة استغلال نوع معروف من أسماك القرش له ذكاء فوق طبيعي..

وكان هذا أكثر إثارة للرعب أن يرتبط الخوف بشيءٍ تعرفه؛ لذا فقد أثبتت الإحصائيات ضعف الإقبال على الشواطئ أو الجزر المحيطية لعام كامل بعد عرض الجزء الأول من الفيلم..

ولكن المدهش حقاً أن ما طالعتنا به السينما حول الكائنات البحرية العجيبة لم يكن أكثر إثارة مما حوته الكتب القديمة والمراجع والسجلات البحرية العريقة التي يعود تاريخها إلى عدة قرون مضت عن قصص وروايات حول وحوش بحرية عجيبة، بعضها عرفه العلم الحديث فيما بعد، في حين بقي البعض الآخر غامضاً مجهولاً حتى يومنا هذا!

ولعل أشهر الوحوش البحرية التي تحدثت عنها كل الكتب والسجلات القديمة تقريباً والتي أثارت في أيامها الرعب والخيال هو الأخطبوط أو الحبار..

والموسوعات العلمية الحديثة تصف الحبار بأنه حيوان رخوي رأس قلمي يوجد في البحار الدافئة، عديم الصدفة، كيسي الشكل، له ثماني أذرع، لعابه سام ويفرز في حالة الخطر مادةً تشبه الحبر، تنتشر فيما حوله فتخفيه عن الأنظار تمامًا وتساعد على الفرار من أعدائه..

ومن هنا جاءت تسميته بالحبار أو نافث الحبر..

والمراجع البحرية القديمة جداً تصف الأخطبوط بأنه وحش رهيب متعدّد الأذرع، يشع الخلقه يهاجم السفن في شراسة ويلتهم بحارتها بلا رحمة..

ومن الواضح أن ذلك الوصف القديم مبالغ للغاية خاصة وأن الأخطبوط ليس من هواة لحم البشر أبداً..

وربما يعود هذا إلى واقعة واحدة مسجلة منذ أوائل القرن الرابع عشر؛ عندما برز أخطبوط عملاق إلى السطح بجوار إحدى السفن الإسبانية فأثار ذعر وهلع بحارتها مما دفع أحدهم إلى رميه برمح كبير..

ولقد أصاب الرمح الأخطبوط فأثار غضبه على الأرجح، ما جعله يرفع إحدى أذرع الثماني ليلفه حول ذلك البحار ثم يجذبه من سطح السفينة، ويهبط به إلى الأعماق..

ويؤكد علماء الأحياء البحرية أنه إذا كان الأخطبوط قد فعل هذا حقاً فهو سيكتفي باحتجاز عدوّه تحت سطح الماء حتى يغرق ويموت..

ولكنه لن يلتهمه أبداً..

هذا لأن جهازه الهضمي لا يمكن أن يسمح بهذا أبداً..

وهذا كلام علمي بحت..

ولكن لو نظرنا إلى الأمر في عيون بحارة السفينة الإسبانية القديمة فسيبدو لنا أن ذلك الأخطبوط العملاق قد جذب زميلهم إلى القاع لالتهامه..

وحوادث مشاهدات الأخطبوطات العملاقة عديدة ومتكررة عبر التاريخ وكلها مسجلة بانفعال واضح يفقدها الكثير من مصداقيتها كدليلٍ علميٍّ على سلوك وحجم بعض أنواع الحبار الهائلة الحجم؛ بحيث لا يمكننا أن نعتمد إلا على ثلاث قصص منها فحسب نظراً لكثرة عدد شهودها، وللدقة التي تم تدوينها بها..

ففي ثلاثينيات القرن العشرين كانت سفينتا الشحن (بيرل) و (ستراثوين) تسيران جنباً إلى جنبٍ ولا يفصلهما سوى ستين متراً فحسب عندما برز من أعماق المحيط أخطبوط هائل عملاق إلى جوار السفينة (بيرل)، ووقف يتطلع إليها في صمت فضولي دون أن يعترض طريقها..

ولكن أحد ضباط السفينة لم يرق له هذا فسحب مسدسه وأطلقه نحو ذلك الأخطبوط..

وكان هذا هو الخطأ الذي ارتكبه..

أكبر خطأ في حياته كلها..

وأخرها..

فقد غضب الأخطبوط العملاق بشدة، وانقض على السفينة (بيرل) التي تزيد حمولتها عن مائة وخمسين طناً، والتفت أذرع الثماني حولها لتلتصق بها ممصاته في قوة، ويجذبها بما عليها ومن عليها إلى أعماق الأعماق أمام الأعين المذعورة لبحارة السفينة (ستراثوين) الذين تصوروا أنهم سيلقون المصير ذاته مما أورثهم رعباً بلا حدود لست ساعاتٍ كاملة، قبل أن يدركوا أن ذلك الأخطبوط الضخم لم يكن عدائياً بطبعه، ولكنه ينتقم بمنتهى العنف والشراسة من كل من يتعامل معه بعدوانية..

وربما أضاف علماء الأحياء البحرية هذه المعلومة إلى تعريفهم العلمي للأخطبوط أو الحبار..

وهناك واقعة أخرى خلال الحرب العالمية الثانية تعرضت لها إحدى السفن الحربية بالقرب من جزيرة (مالديف) في المحيط الهادي..

ف ذات أمسية هادئة كان الجندي (ستاركي) يستند إلى حاجز السفينة متطلعًا إلى الماء عندما انتبه فجأة إلى أمرٍ غريبٍ..

فوسط مياه المحيط الزرقاء كانت هناك دائرة خضراء ضخمة لها شكل عجيب أشبه بعين تحديق فيه مباشرة..

ثم فجأة أدرك (ستاركي) أنها بالفعل عين..

عين هائلة على نحوٍ لم يتخيله قط من قبل..

وارتجف جسد (ستاركي) في عنفٍ، وانطلقت من حلقه شهقة قوية مذعورة جعلت عددًا من زملائه يهرع إليه؛ خشية أن يكون قد رصد هجومًا ما..

واشترك الجميع في حالة من الذعر والذهول لا مثيل لها..

فقد كانت تلك الدائرة عينًا بالفعل لأخطبوط عملاق مستلقيًا باسترخاء بمحاذاة السفينة ويتطلع إليهم في لامبالاة عجيبة، وقد ألصق مجساته بجسم السفينة وراح يحرك فمه الشبيه بمنقار بغباء ضخم في برودٍ مدهش..

وانطلق البحارة على امتداد حاجز السفينة لتحديد طول ذلك الحبار الهائل وتضاعف ذهولهم عندما أدركوا أنه يمتد لمسافة ثمانية وخمسين مترًا كاملة!

ومن حُسن حظهم أنهم لم يحاولوا استفزازه بأي شكلٍ..

وهو أيضًا من ناحيته لم يحاول إيذاءهم على أي نحوٍ كان..

فقط استرخى إلى جوارهم لثلاث ساعات كاملة قبل أن يغوص في الأعماق ويختفي إلى الأبد..

أما الواقعة الثالثة والأخيرة؛ فقد حدثت عام 1966م عندما شاهد ضباط وبحارة السفينة (سان باولو) قتالًا عنيفًا على قيد مائة مترٍ منهم فحسب، بين أخطبوط عملاق وحوت ضخم من حيتان العنبر..

وكانت معركة شرسة رهيبة بين عملاقين هائلين، ولكنها انتهت بغوصهما معًا إلى الأعماق دون أن يحسم الأمر أو يعلم أحدٌ كيف انتهى الأمر فعليًا ومن انتصر في صراع العمالقة هذا!!

وكل هذه المشاهدات والوقائع القديمة تتحدث عن كائن تعرفه اليوم جيدًا وتحوي المراجع العلمية عشرات التفاصيل عنه..

ولكن ماذا عن مشاهدات الكائنات العجيبة غير المسجلة في أي مراجع علمية؟!!

الجواب هو أنه هناك بالفعل عشرات من تلك الوقائع، ولكن أكثرها إثارة وغموضًا هي تلك التي تتعلق بالتنين..

تنين المحيطات العملاق..

ولهذا قصة مختلفة..

ومثيرة..

للغاية.

\*\*\*

في معظم الأساطير القديمة يرد الحديث عن كائن يُعرَف باسم (التنين) ويُوصَف دومًا بأنه يجمع بين الزواحف والطيور، له مخالب أسد وأجنحة نسرٍ وذنب أفعى..

ويعود وصف التنين وذكره إلى العصر البابلي، ويعتبره الدارسون مجرد رمز للقوة والشر معًا، بدليل وجود قصص أسطورية في العديد من الدول والحضارات القديمة عن بطلٍ يمثّل الخير وهو يقاتل التنين ويذبحه في أدبٍ شعبيٍّ متميز..

وفي بعض الدول والحضارات وبالذات في شرق وجنوب شرق (آسيا) يتحول ذلك التنين إلى رمزٍ قويٍّ يظهر حتى يومنا هذا في الاحتفالات والمناسبات الرسمية..

والسؤال هو: لماذا التنين؟!

لماذا نجد الصورة ذاتها في كل مكان من العالم تقريبًا؟!

والسؤال سيقودنا إلى ما هو أكثر خطورة..

هل التنين مجرد أسطورة، أم أنه كان يومًا حقيقة واقعة؟!

علماء الأحياء والجيولوجيون وعلماء دراسات ما قبل التاريخ لم يجدوا جوابًا أو دليلًا حاسمًا لهذا التساؤل أبدًا..

لا آثار أو هياكل عظيمة أو نواتج..

ومن هنا اعتبروه رسمياً وعلمياً مجرد خيال على الأرض..

أما في البحر؛ فقد كان هناك رأي آخر..

فوفقاً للسجلات والمراجع البحرية يعتبر تنين البحر أو ثعبان البحر واحداً من أكثر الوحوش البحرية غموضاً في التاريخ..

وحتى النصف الثاني من القرن العشرين لم تكن هناك صورة واحدة لتنين البحر ولكن كان هناك وصف متفق عليه في كل السجلات البحرية على اختلاف أصولها واختلاف شهودها مما يوحي بأنه وصف دقيق على الرغم من غرابته..

فما أطلقوا عليه اسم (تنين البحر) أو (ثعبان البحار العملاق) تصفه المراجع القديمة بأن طوله يتراوح بين خمسة عشر وثمانية عشر متراً، وأنه أشبه بثعبانٍ هائلٍ له رأس شبيه برأس الحصان وظهر محدب ذو نتوءات وذيل ضخم طويل..

تماماً كما يوصف التنين البري..

باستثناء الأجنحة وحدها..

وكل المشاهدات التي تم رصدها وتسجيلها بشأن تنين البحر تؤكد أنه يسبح بسرعة مذهشة تكاد تبلغ اثني عشر ميلاً بحرياً في الساعة، وهو أسود اللون له أنفاس قوية مسموعة ويشبه وحوش ما قبل التاريخ..

ولقد اتفق على هذه الأوصاف اثنان من أكثر رجال البحر سمعة وتاريخاً واحتراماً؛ وهما القبطان (بيتر ماكوهي) قائد الفرقاطة البريطانية (ديدالاس) عام 1848م، و(تيكس جيديس) عام 1959م..

واتفاق الرجلين حذف ومحو كل شك في وجود (تنين البحر) وجعل العلماء يدرسون أمره في جدية بالغة..

وكالعادة كانت هناك مشكلة الصور والوثائق والعينات الصالحة للفحص والدراسة..

ومشاهدات تنين البحر كثيرة للغاية، وربما تفوق مشاهدات أي كائن بحري آخر وكلها تتفق على أنه وعلى الرغم من ضخامته وهيئته البشعة كائن مسالم تماماً لم يحاول قط مهاجمة أية قطع بحرية أو حتى التوقف لمتابعتها ورصدها في فضول كما يفعل الأخطبوط.

إنه يمر بها ويتجاوزها دون أن يلتفت إليها أو يبالي بوجودها وكأنما لا يعنيه أمرها تماماً..

وتتبن البحر لا يغوص إلا نادرًا؛ ففي كل الحالات المسجلة لرؤيته ظل يسبح على سطح الماء حتى اختفى عن الأنظار..

وتتبن البحر ليس الكائن البحري الوحيد الذي يشبه كائنات ما قبل التاريخ؛ فهناك أيضًا وحش عملاق آخر يظهر بصفة شبيهة منتظمة عند ساحل (فانكوفر) الكندي وهو وحش هادئ مدلل ورصين إلى أقصى حد وهو غير خجول أو متوتر على الإطلاق؛ إذ إنه لم يحاول قَطُ الاختفاء أو الابتعاد أثناء تصويره أو فحصه أو دراسته حتى إن العلماء لديهم ملف ضخمة عنه، وأطلقوا عليه اسم (كادبروسورس) وهو اسم شبيه بأسماء ديناصورات ما قبل التاريخ، ولقد وصفوه بأنه كسول وبليد كما وصفه الكابتن البحري (بول سوازيبي) عام 1939م بأنه ضخم الجثة كثيف الفراء أشبه بالدب القطبي، ولا يقل طوله عن اثني عشر مترًا..

المدهش أن وحش (كندا) هذا منفرد تمامًا؛ فعلى الرغم من كثرة مشاهداته لم يتم رصد أي فردٍ آخر من نوعه يمكن اعتباره جزءًا من عائلة ما، وربما هذا يفسر اختفائه الكامل منذ ما يزيد عن عشر سنوات كما لو أنه قد مات بالشيخوخة ولم يجد من يرثيه أو يكمل دوره في الحياة..

وظاهرة الانفراد هذه عجيبة بحق وتؤيد بعض النظريات الخاصة بحدوث طفرات وراثية بغض النظر عن أسبابها..

فمن الناحية العلمية يمكن أن يؤدي أي عامل مجهول إلى حدوث طفرة وراثية مباغطة لا يمكن التنبؤ بتأثيرها أبدًا، وتلك الطفرة يمكن أن تنتج عنها كائنات أصغر حجمًا أو أكثر ضخامة.. أضعف أو أقوى، ولكن قانون الانتخاب الطبيعي يؤدي إلى هلاك الطفرات الصغيرة الضعيفة في عالم يلتهم فيه الكبير الصغير دون رحمة أو هوادة؛ لتبقى الكائنات الضخمة والقوية؛ لتثير حيرتنا ودهشتنا وخوفنا أيضًا بلا حدود..

وربما ينطبق هذا القول تمامًا على ذلك الكائن العجيب هائل الحجم الذي استقرت جثته على شاطئ نهر (كلايد) في (إسكتلندا) والذي أثار ذهول ورعب سكان المنطقة بوزنه الذي يتجاوز ثلاثة أطنان دفعة واحدة، وجسده المغطى بفراء كثيف ورأسه الصغير مقارنةً بجسمه الضخم وعنقه وذيله الطويلين..

ولقد عجز الرجال عن تحريك ذلك الكائن؛ بسبب وزنه الرهيب وخشوا أن يتلف ويتعفن على الشاطئ ما يسبب لهم العديد من المشكلات الصحية والاقتصادية فقرروا تقطيعه إلى أجزاء صغيرة..

ولكن الأمر لم يكن سهلًا أبدًا..

لقد كان لحم ذلك الكائن غليظًا قاسيًا، حتى إن الرجال اضطروا لاستخدام أقوى فؤوسهم والعمل لساعات كاملة قبل أن ينتهوا من مهمتهم هذه..

ولكنهم نسوا أمرًا هامًا للأسف..

نسوا تصوير ذلك الوحش قبل تقطيعه وأضاعوا على العلم فرصة إضافة كائن جديد إلى مراجعه..

ولغز جديد إلى غوامضه..

ومن بين قارات العالم السبع تفوز قارة (أستراليا) بلقب أكثر القارات التي شهدت شواطئها وسواحلها كائنات عجيبة، ربما لايتعادها وانعزالها عن القارات الأخرى ولما تتميز به من مناخ خاص وجدول حيواني ونباتي لا مثيل له..

فعلى سواحل (أستراليا) وفي أوائل القرن التاسع عشر، تم رصد ما أطلقوا عليه اسم الحوت الأخطبوطي وهو كائن أشبه بالحوت في نصفه العلوي وينفث الماء من أعلى ظهره كما يفعل الحوت، ولكن نصفه السفلي له عدة أذرع كالأخطبوط..

وذلك الرصد لا يمكن الاعتماد عليه تمامًا نظرًا لأنه تمّ من جهة واحدة دون أن تعقبه مشاهدات أخرى للكائن نفسه في المنطقة ذاتها أو حتى في أية مناطق أخرى..

وعند سواحل (أستراليا) أيضًا سجل بعض البحارة مشاهدتهم لما يعرف في الأساطير وفي الروايات القديمة باسم (عروس البحر) وهي كائن خرافي نصفه العلوي لامرأة والسفلي لسمكة، ولكن العلم أثبت فيما بعد أنها مشاهدات خادعة لحيوان مائي ثديي آكل عُشب يعيش في البحر الأحمر والمحيط الهندي والمياه الأسترالية وطوله من اثنين إلى ثلاثة أمتار، ولكنه يبدو من بعيد وكأنه بالفعل نصف امرأة ونصف سمكة..

وهذا التحليل العلمي يتفق تمامًا مع ما جاء في الروايات القديمة التي تتحدث عن انخداع البحارة بشكل عروس البحر وغنائها ثم ذعرهم من شكلها الحقيقي عندما تتضح لهم الرؤية وخاصة مع لونها البني أو الرمادي وأنيابها الطويلة المخيفة..

هناك أيضًا واقعة مسجلة في المراجع البحرية الأسترالية مع شهادة للقبطان البحري (جيروم) عام 1901م عن كائن بحري عجيب للغاية قضى ما يقرب من الساعة وهو يسبح إلى جوار سفينته، وذلك الكائن وفقًا لوصف القبطان الأسترالي- أشبه بعين كبيرة لها أطراف قصيرة كثيرة عجزَ هو ورجاله عن تحديد عددها!

وعلى الرغم من ضخامة البحار والمحيطات، وكثرة عدد ما يجوبها من زوارق وقوارب وسفن وبواخر وبوارج حربية، إلا أن الحالات التي يتم رصدها فيها لا تحظى بالشهرة الكافية التي حظي بها كائن آخر..

كائن يعيش في بحيرة أسكتلندية في (روخ نيس)..

فذلك الكائن هو صاحب النصيب الأكبر من الرصد والمشاهدات..

والشهرة أيضاً..

وقصة ذلك الوحش عجيبة..

ومدهشة..

بحق.

\*\*\*

على الرغم من أن بحيرة (نيس) ليست أكبر البحيرات البريطانية على الإطلاق، إلا أنها وبلا أدنى شك أكثرها شهرة وأهمية في زمننا الحالي..

وتلك الشهرة لا تعود إلى قدم البحيرة التي يرجح العلماء أنها قد نشأت قبل أربعمئة مليون سنة نتيجة لهزات أرضية قوية، ولا إلى ذلك الطريق المؤدي لها والذي شقّه الجنرال (ويد) عام 1731م، ولكنها تعود إلى أمرٍ آخر بدأ مع اكتمال أقصر الطرق المؤدية إليها وافتتاحه عام 1933م..

ففي ذلك العام كان السيد (جون مكاي) وزوجته عاندين من رحلة إلى (أنفيرنس) في الثالثة بعد الظهر في طريقهما إلى فندق (درومناد روشيت) الذي يمتلكانه عندما لفت شيء ما في البحيرة انتباه السيدة (مكاي)، فسألت زوجها في فضول:

- ما هذا بالضبط؟!

تطلع (جون) إلى حيث تشير زوجته وشاهد اضطراباً ما على سطح البحيرة تصوّره في البداية صراعاً بين زوج من البط، قبل أن تتضح له ولزوجته الصورة فجأة..

ومع شهقة زوجته، ضغط (جون) دواسة الفرامل بكل قوته؛ ليوقف سيارته وهو يحرق في حيوان ضخم يسبح في البحيرة وحديتين تتبعانه في ارتفاع وانخفاض على نحو متموج قبل أن يدور ذلك الحيوان نصف دورة ثم يختفي عن نظرهما تماماً..

وعلى الرغم من الرعب الذي أصابهما ومن محاولتهما تكتم الأمر بلغت القصة مسامع المراسل الصحفي (أليكس كامبل) الذي لم يلبث أن نشر القصة في الثاني من مايو في العام نفسه مطلقاً على ما رآه الزوجان اسم (وحش بحيرة نيس)..

وبعد النشر مباشرة فوجئ (كامبل) مما ورده رسائل وتعليقات أن ما حدث ليس أول مشاهدة للوحش في التاريخ وأن هناك وقائع مسجلة لرؤيته أو رؤية أحد أفراد عائلته منذ عام 565م، وأن تلك

المشاهدات قد بلغت ذروتها ما بين عامي 1600 و1800م كما أرسل إليه الكومانطور (روبرت جولد) يؤكد أنه قد شاهد وحش بحيرة (نيس) مرتين في عامي 1871م و1872م..

ثم ظهر تقرير تم نشره بالفعل عام 1930 عن ثلاثة من الشبان خرجوا للتنزه في زورق في البحيرة، ثم حدث اضطراب في الماء على مقربة منهم قيل أن يظهر مخلوق ضخم يسبح في اتجاههم مباشرة مما أصابهم بالذعر إلا أنه لم يلبث أن انحرف وابتعد عنهم دون أن يمس شعرة واحدة منهم..

وفي ذلك الصيف أصبح الوحش حديث (بريطانيا) كلها وإن لم يدفع هذا الكثيرين إلى محاولة رؤيته بأنفسهم..

وفي الثاني والعشرين من يوليو من العام نفسه كان السيد (جورج سبايسر) وزوجته في طريق عودتهما إلى (لندن) بعد عطلة جيدة في (هايلاندز) في الرابعة عصرًا، عندما فوجئًا بالوحش أمامهما تمامًا في منتصف الطريق..

وكما وصفه السيد (سبايسر)؛ فقد قال إنه أشبه بحلزون ضخم طويل الرقبة يسير في بطء وإن لم يلمح له أية سيقان؛ نظرًا لأن سيارته توقفت عند منحدر..

ومع توالي الروايات والقصص بدأت حالة من الحيرة والشك تنتاب معظم المواطنين البريطانيين تجاه القصة كلها حتى نوفمبر من العام نفسه الذي بدا وكأنه يستحق عن جدارة اسم (عام الوحش)..

ففي الثاني عشر من نوفمبر كان (هاي جراي) جالسًا تحت أشعة الشمس الدافئة يتطلع إلى بحيرة (نيس)، عندما لمح الوحش يرتفع فوق الماء على بُعد مائتي ياردة منه فحسب..

ومن حُسن الحظ أن (جراي) كان يحمل آلة التصوير الخاصة به، وأنه قد التقط بها صورة للوحش..

ولم تكن الصورة واضحة أو تُظهر أي تفاصيل، إلا أن هذا لم يمنع صحيفة (دايلي ريكورد) من نشرها في السادس من ديسمبر، مع تصريح من شركة (كوداك) يؤكد أنه لم تحدث أي تعديلات في الفيلم السالب..

ولكن الأمر استفز علماء الحيوان حتى إن الدكتور (جراهام كير) من جامعة (جلاسكو) قد رفض الاعتراف بصحة الصورة، وقال إنه ليس بها على الإطلاق ما يوحي بأنها لحيوان أيًا كانت فصيلته..

ثم جاءت صورة الجراح (كينيث ويسلون) زميل كلية الجراحين الملكية الذي التقط أربع صور متتالية للوحش عندما برز أمامه من البحيرة، ثم هرع بالفيلم إلى معمل التحميض الذي أخرج ثلاث صور محبطة تمامًا في حين كانت الرابعة مدهشة بحق..

فلأول مرة يظهر الوحش في وضوح بعنقه الطويل ورأسه الصغير الشبيه بالديناصورات القديمة..

وقلبت تلك الصورة الأمور كلها رأساً على عقب، واشترت صحيفة (دايلي ميل) حقوق نشرها لتظهر للعمامة في الحادي والعشرين من أبريل عام 1934م..

وعلى الرغم من وضوح الصورة؛ فقد عاد العلماء يهاجمونها في عنفٍ ويتهمون صاحبها بأنه يجيد تزييف الصور فحسب وهو لا يملك ما يدافع به عن نفسه أو يدرأ الشبهات عن سمعته..

والعجيب أن اليقين في صحة الصورة لم يتأتَّ إلا في عام 1972م عندما قامت وكالة (ناسا) لأبحاث الفضاء بتحسينها وفحصها قبل أن تظهر علامات واضحة لشعيرات متدلّية من الفك السفلي للوحش..

ثم توالى الصور والمشاهدات على نحوٍ أثار أكبر جدل علمي في ثلاثينيات القرن العشرين ونشطت السياحة على نحوٍ لم يحدث من قبل في الفنادق المطلة على بحيرة (نيس) بحيث أصبحت مكتظة طوال الصيف..

ثم اندلعت الحرب العالمية الثانية فبهت الاهتمام بوحش بحيرة (نيس) وتلاشى مع أخبار زحف الجيش النازي وسقوط دول (أوروبا) أمام الاجتياح الرهيب للرايخ الثالث..

وقاتلت (إنجلترا) وقاتلت.. وقاتلت..

وسقطت (ألمانيا) النازية وراحت الأمور تعود إلى ما كانت عليه ليظهر الاهتمام بالوحش مرة أخرى، وخاصة في عام 1951م عندما التقط له حطاب يدعى (لاشلان سيتورات) صورة أخرى واضحة..

وفي عام 1957م أثار أفضل كتاب عن وحش (نيس) تحت اسم (أكثر من أسطورة) بقلم (كونستانس) حماس الكثيرين وعلى رأسهم مدير مؤسسة الفواكه (فرانك سيرل) الذي شاهد الوحش بنفسه عام 1958م فترك حياته كلها وزرع خيمته أمام بحيرة (نيس) لسبع سنوات كاملة التقط خلالها أفضل عشر صور للوحش واحتواها كتابه (سبع سنوات من البحث عن الوحش في نيس) الذي صدر عام 1976م..

وفي عام 1959م التقط مهندس الطيران (تيم دنسدل) أول فيلم سينمائي متحرك للوحش اعتبره الخبراء تحولاً خطيراً في دراسة وحش بحيرة (نيس) إذ أدى إلى تشكيل ما عُرفَ باسم (مكتب التحقيق في ظاهرة بحيرة نيس) ليتخذ أمر الوحش صورة رسمية لأول مرة في التاريخ..

وفي عام 1957م ومع تطور التكنولوجيا تم التقاط فيلم خاص بأجهزة رصد الأعماق لوحش بحيرة (نيس) من قِبَل مؤسسة (ماسا شوست) ظهرَ فيه بوضوح مخلوق طويل الرقبة له زعفة أمامية

يسبح تحت سطح الماء، مما اعتبر دليلاً جديداً لا يقبل الشك على وجود الوحش..

وهنا ظهر تساؤل جديد لم يُطرح من قبل..

ما دام الوحش موجود فعلاً؛ فلماذا لا يرصده كلُّ من يزور البحيرة؟!

وجاء الجواب علمياً للغاية باعتبار أن ذلك النوع من الحيوانات المسالمة لا يميل في المعتاد إلى الظهور، وأنه يتميز بشيء من الخجل يمنعه من التعامل مع البشر مباشرة ولأنه خجول وهادئ وغير مؤذٍ على الإطلاق؛ فهو ينزعج بشدة من أصوات السيارات والطائرات والزوارق الآلية ما يدفعه إلى الاختباء والاختفاء في مكانٍ غير معروف علمياً..

ولقد جرت عدة محاولات لاصطياد ذلك الوحش من قِبَل جهات وهيئات علمية عديدة، ولكنها قوبلت كلها بالغضب والعنف والثورة وبعدها سافر واضح من كل سكان (نيس) الذين بدا لهم أن اصطياد الوحش سينسف مصدر رزقهم الرئيسي الذي يأتي من السياحة لكل من يتمنى رؤية الوحش..

وعلى الرغم من تطور وسائل البحث وتعددتها في زمننا هذا، إلا أن أحداً لم يعد يسعى لاصطياد الوحش الذي قُلت مشاهداته تماماً منذ منتصف السبعينيات ثم توقفت مع نهاية الثمانينيات على نحوٍ يوحي بأن الوحش الأسطوري قد لقي أخيراً ما يلقيه كل كائن حي.. الموت..

وعلى الرغم من الشهرة الواسعة لوحش (لوخ نيس) الأسطوري، إلا أنه ليس وحش البحيرات الوحيد الذي يثير جدل واهتمام العلماء؛ فهناك أيضاً وحش بحيرة (أوكانا جان) الكندية الثعباني الشكل والذي يطلقون عليه اسم (أوجو بوجو) والذي يبلغ طوله مائة وثمانية وعشرين متراً، وكذلك (ماينبوجو) وحش بحيرة (وينيورسيس) ذو الثلاث حذبات والرأس المفطح والذي اعترف العلماء بوجوده عام 1963م.

ولكن الكائنات العجيبة لا يقتصر وجودها على المحيطات والبحيرات والبحار فحسب..

إنها تنتشر في اليابسة أيضاً..

وعلى نحو أكثر خطورة..

بكل المقاييس.

\*\*\*

من المؤكد والطبيعي والمنطقي أيضاً أن يحوز البحر بانتشاره واتساعه وعمقه وكل ما يحويه من سحر وغموض النصيب الأعظم في كل الروايات والوقائع المسجلة عن الكائنات العجيبة والغريبة المسالمة والمتوحشة التي يمكن أن تخفيها أعماقه أو يرسمها الخيال لظلماته..

ولكن هذا لم يحرم البر من نصيب كبير أيضًا..

ففي (أفريقيا) ومع منتصف عام 1941م، وبينما يقوم بعض الصيادين البريطانيين برحلة صيد في الأدغال فوجئوا بحيوان مفترس ضخم يقع في شباكهم..

ولقد وقفوا جميعًا ذاهلين لنصف ساعة كاملة يراقبون ذلك الحيوان المدهش وهو يقاوم للخلاص من الشباك القوية دون جدوى..

وذهولهم هذا لم يكن يعود إلى ضخامته غير العادية فحسب، ولكن أيضًا إلى تركيبته العجيبة التي جعلته أشبه بمزيج من النمر والأسد معًا أو بمعنى أدق لا هو بالنمر ولا هو بالأسد..

وبسرعة جاء أحد العلماء لفحص ذلك الحيوان الذي أطلقت عليه حملة الصيد اسم (ناندا)..

ولم يكن ذلك العالم بأقل منهم ذهولاً أمام ذلك التركيب المدهش بين النمر والأسد في (ناندا)، خاصة وأن علم هندسة الوراثة والجينات لم يكن حتى مجرد فكرة أو خاطر علمي في ذلك الحين..

وحتى لو ناقشنا الأمر من هذه الزاوية وافترضنا أن ذلك الحيوان (ناندا) هو نتاج تجربة مذهلة لمزج جينات أسد بجينات نمر، على الرغم مما سيفعله هذا بنا من إضافة لغز أكثر غموضًا، فسيظل أمامنا تساؤل كبير آخر!!

فمن أين أتت جينات النمر للتجربة؟!

فما قد لا يعلمه معظم الناس أن النمر لا يمكن أن يظهر مع الأسد في كادر واحد إلا في حلبة السيرك أو أفلام (طرازان) القديمة فحسب وهذا - بكل بساطة - لأن النمر حيوان آسيوي محض في حين أن الأسد حيوان أفريقي صرف..

ولكن دعنا من هذا فالعالم البريطاني مع ضعف إمكانياته في ذلك الوقت لم يستطع حتى الاحتفاظ بجيفة (ناندا) حتى تمكن دراسته أكثر فيما بعد..

وبهذا وضع نهاية للقصة التي دونتها الحملة في سجلاتها بمنتهى الأمانة والدقة..

ومن (ناندا) إلى الفيل القزم الذي يُعدّ أحد الألغاز التي تواجه العلماء والصيادين في (الكونغو)..

والفيل القزم هذا فيل مكتمل النمو، ولكنّ طولهُ لا يزيد عن المتر ونصف المتر، ولونه أبيض ناصع البياض ولا يزيد طول أنيابه عن ستة وستين سنتيمتراً..

ولسنواتٍ وعقود طوال ذلك الفيل القزم مجرد أسطورة يتناقلها السكان المحليون الذي يؤكد بعضهم رؤيته له بل ومطاردته ومحاولة اصطياده أيضًا ثم يضيفون أنه ولصغر حجمه يتحرك بنشاط

مدهش وذكاء يفوق الطبيعي بحيث يصعب الظفر به واقتناصه..

ثم أثار هذا اللغز كله الملازم البلجيكي (فرانسييس) الذي قرأ كل ما تم تدوينه عن ذلك الفيل القزم، واستمع إلى روايات عشرات السكان المحليين، وعمل على دراستها وتقنيدها حتى استخلص منها ثلاث روايات بدت له صادقة للغاية ما جعله يتخذ قراره ويشد رحاله ليخرج على رأس حملة للبحث عن الفيل القزم في أوائل عام 1937م..

ولا أحد يدري حتى هذه اللحظة ما الذي فعله (فرانسييس) في حملته التي استغرقت عامًا كاملًا أو يزيد في قلب أحراش (أفريقيا)، فلم تكن هناك أيامها وسائل اتصال معروفة، والأفريقيون لا يستخدمون حتى الحمام الزاجل لتوصيل رسائلهم..

ثم إنه وهذه هي المأساة الحقيقية قد تم تدمير كل ما دوّنه من مذكرات تمامًا أثناء رحلة العودة في فبراير 1938م، ليس عن عمد، ولكن عن إهمال وجهل..

وخوف أيضًا..

هذا لأن الحملة قد عادت في النهاية حاملة جلد الفيل القزم ونابيه على نحوٍ يثبت أنه حقيقة وليس مجرد أسطورة..

ولكن بدون (فرانسييس)..

فالمسكين حقّ الهدف من حملته، ولكنه أصيب بحمي غير معروفة ليلقى حتفه وسط أدغال (أفريقيا) دون أن يعود إلى وطنه ليعلن كشفه المثير..

ويا للخسارة!

وفي (أفريقيا) أيضًا رصد فريق من الصيادين الألمان عام 1932م حيوانًا أطلقوا عليه اسم (أوكابي)، وطاردوه لثلاثة أيام كاملة، ولكن دون أن ينجحوا في الظفر به أبدًا..

و(أوكابي) هذا -كما أجمع على وصفه أفراد فريق الصيد- هو مزيج عجيب من الزرافة والحمار الوحشي؛ فهو يحمل رأس وجسد حمار وحشي بتلك الخطوط الواضحة في جسده مع رقبة وساق زرافة..

والأدهى أنه يجمع بين قوتي الحيوانين..

ولقد سجلت الفرقة كلها ما شاهدته ودونت محاولاتها الفاشلة للظفر بذلك الحيوان الذي شاهده فريق صيد فرنسي آخر في المنطقة نفسها بعد أحد عشر عامًا بالضبط 1948م ليؤكد وجوده..

ولكنه أيضًا لم يظفر به..

والواقع أن (أفريقيا) تُعدّ الأولى إحصائيًا في عدد مشاهدات الكائنات العجيبة فيها، وبالذات تلك التي تبدو أشبه بمزيج من حيوانين معروفين أو أكثر مما يؤيد على نحو خيال تلك النظرية الحديثة التي تشير إلى أن القارة السوداء الغامضة بمساحاتها الشاسعة غير المأهولة وبمناطقها التي لم يبلغها أحد بعد منذ آلاف أو ربما ملايين السنين كانت يومًا حقل تجارب هائلًا لخبراء في هندسة الوراثة من حضارة سابقة..

أو حتى من كواكب أخرى..

والفكرة كما يبدو واضحًا تزيح هم البحث عن السبب الحقيقي لتلك الظاهرة وترمي العباء كله - كالمعتاد - على مخلوقات الفضاء والكواكب الأخرى الذين لم نثبت وجودهم بعد وإن كانت هناك عشرات الأدلة التي يرى بعض العلماء أنها تؤكد وصولهم إلى أرضنا واستقرارهم فيها لبعض الوقت في أزمنة قديمة ساحقة..

ولكن هذا يحتاج إلى مقال آخر..

أما الآن فدعنا ننتقل من (أفريقيا) إلى (آسيا) لنرتطم فور انتقالنا بأشهر الأساطير الآسيوية ألا وهي أسطورة التنين، ولكننا سنتعامل هذه المرة مع تنين البر وليس تنين البحر الذي تحدثنا عنه من قبل..

وعلى الرغم من أن التنين قد جاء ذكره في كل الحضارات منذ بدء التاريخ المسجل، ومن أننا نجد في قصص الحضارات الآشورية والبابلية وفي العهد القديم المسيحي، وكذلك في الأساطير اليونانية والرومانية والخرافات الأفريقية والهندية إلا أنه ارتبط في زمننا الحالي بالشرق الأقصى في (آسيا) وحدها..

وبالتحديد في (اليابان) و(الصين)..

وفي عصر النهضة الصينية وعندما بدأ الصينيون يدونون علومهم ومفاهيمهم حول الطاقات البشرية والأرضية، ارتبط كل هذا عندهم بالصور الرمزية للتنين ما أوحى بأن ذلك الكائن ليس سوى أسطورة رمزية لتفسير أمور أخرى من خلال تركيبة حيوانية شديدة التعقيد..

ولكن المدهش أنه هناك مشاهدات مسجلة لبعض ذوي الأهمية والمصداقية في أزمنة قديمة حول ذلك التنين وأوصاف لا يمكن حتى تصديقها، ولكنهم يصرون على صحتها ويبرهنون على هذا بسمعتهم ومصداقيتهم واحترامهم في مجتمعاتهم..

وتلك الأوصاف تجتمع على أن التنين حيوان ضخم له رأس جواد وجسد وذيل أفعى ومخالب أسد وجناح خفاش هائل، وأنه قادر على نفث النار من فمه والطيران من قمة تل إلى أخرى..

والوصف كما ترون عجيب وغير منطقي على الرغم من اتفاقهم وإصرارهم عليه وتدوينهم له في وثائقهم الرسمية..

ولقد عثر العلماء على بعض أنواع السحالي في (الهند) وشرق (آسيا) ويمكن أن ينطبق عليها الوصف ذاته باستثناء نفث النيران والحجم الضخم بالطبع، مما دفع البعض إلى الاعتقاد بأن تلك السحالي الطائرة والتي يطلق عليها اسم (دراكو) أو ما يعني التنين باللغات المحلية هي الطور الضئيل المتحور من تنين الأزمان القديمة الذي انقرض وتلاشى تاركاً خلفه أسطوره فحسب..

ومن التنين إلى تقرير الجنرال الروسي (ميخائيل استيفانوفيتش توبيلكس) الذي كان يلاحق قوات الجيش الأبيض وسط الجليد عام 1925م عندما لمح رجاله حركة غير عادية عند أحد الكهوف فأطلقوا النار تجاهها فوراً..

وكانت مفاجأة مذهشة..

فذلك الشيء الذي تصوّروا أنه بعض جنود الجيش الأبيض الفارين كان كائنًا عجيبًا لم يرَ أحدهم مثيله من قبل..

كائن أشبه بالبشر من حيث القامة وملامح الوجه وتناسق الأعضاء، ولكن جسده كله مغطى بالشعر كالقروء..

باختصار: كان يبدو أشبه بحلقة الوصل بين الإنسان والقرد..

وبالطبع لم يتمكن الجنرال الروسي من الاحتفاظ بصيده وهو يكمل مهمته، ولكنه أورد الواقعة في تقريره العسكري الرسمي، وكانت هذه هي البداية..

بداية سيل من الروايات عن كائن عجيب آخر يعد الأكثر شهرة - بعد التنين بالطبع - في عالم اليايسة..

إنسان الجليد..

الرهب.

\*\*\*

الجليد يتشابه كثيرًا مع البحر في أن كليهما يحتل مساحاتٍ شاسعة متصلة ويحوي الكثير من الغموض مع قدرتهما على إثارة أكبر قدر ممكن من الخيال..

والحملات الاستكشافية عبر المناطق الجليدية بدأت منذ مئات السنين، ولم تتوقف قط حتى يومنا هذا، وعلى الرغم من هذا فمشاهدات الكائنات الغامضة محدودة تمامًا في المناطق الجليدية التي تم العثور فيها في أوائل القرن العشرين على جثة كاملة مجمدة لأحد أفيال عصور ما قبل التاريخ والمعروف باسم (الماموث) وكان هذا أعظم كشف علمي أيامها..

ثم جاء عام 1921م وخرج (هوارد بيوري) على رأس أول حملة استكشافية إلى قمة جبل (إيفرست) وخاض مع حملته الأهوال حتى يبلغوا القمة و..

وفجأة توقف الكل في ذهول عند ارتفاع سبعمائة متر من سطح الأرض ليحدقوا في آثار أقدام بشرية واضحة منطبعة على الجليد..

ووصف (بيوري) ما رآه وحملته بمنتهى الدقة، وقام أحد المتخصصين المصاحبين له برسم أثر الأقدام، وأضاف تقريره ورسومه إلى سجل الحملة مؤكدًا أنها آثار أقدام بشرية، وليست لذئب أو دب أو أي حيوان آخر..

وفي عام 1925م رأى أحد العلماء مخلوقًا عظيم الشبه بالإنسان يمشي معتدلًا منتصبًا على ارتفاع خمسمائة متر وهو يتوقف كل بضع خطوات ليلتقط بعض النباتات..

وعلى الرغم من وجود مصور في البعثة؛ فإنه لم يلتقط أية صور واضحة أو مقبولة لذلك المخلوق مما جعل الأمر يقتصر على التدوين في السجلات الرسمية وحدها..

وفي عام 1933م في جبال (الهمالايا) تمت رؤية إنسان الجليد لأول مرة بمنتهى الدقة والوضوح..

كان كائنًا ضخم الجثة، هائل الحجم، نصف إنسان ونصف وحش، يعيش في الكهوف الجليدية في الجبال المرتفعة التي يصعب الوصول إليها، وهو أبيض البشرة وجسمه مغطى بغطاء سميك من الشعر الأسود، وذراعه متصلان إلى ركبتيه، وملامحه ذات لمحة إنسانية واضحة، وساقاه قويتان وأصابع قدميه طويلة تتجه إلى الداخل.

وأكد من شاهده أنه قوي العضلات على نحو رهيب؛ إذ اقتلع أمامهم شجرة صغيرة من جذورها وحملها على كتفه ليختفي بها وسط الجليد..

ومع ذلك الوصف وعدد الشهود الذين رأوه، وعلى الرغم من عدم وجود صور أو رسوم أيضًا، انتشر أمر (إنسان الجليد) الذي حمل منذ ذلك الحين اسم (بيتي) دون أن ندري لماذا هذا الاسم بالذات!

ولأن شهود الأمر من الرهبان والنسك الذين يصعب اتهامهم بالكذب أو الوهم؛ فقد بدأت الصحف تتناول الوصف وترسم أشكالًا تخيلية لإنسان الجليد هذا مع إيراد كل المشاهدات القديمة له، وكل ما

قرر العلماء بشأنه عبر ثلاثة عقود من الزمن؛ أي قبل عدة سنوات من تسجيل (هوارد بيوري) لأثار الأقدام التي رآها على قمة (إيفرست)..

وكالمعتاد انقسم العلماء إلى فريقين؛ فريق رفض الفكرة بمنتهى العنف، وأنكر واستنكر وجود مخلوق حي في منطقة شديدة البرودة كهذه في حين أبدى الفريق الآخر اهتمامه ورغبته في دراسة الأمر أكثر والحصول على مزيد من التأكيدات والشواهد..

ومن هذا المنطلق وبتمويل من بعض الصحف في (أوروبا) و(الولايات المتحدة الأمريكية) و(كندا) خرجت بعض البعثات الاستكشافية للبحث عن (بيتي)؛ رجل الجليد الغامض..

ولكن العجيب أن كل تلك البعثات لم تعثر عليه أبدًا..

فقط عثرت على بقايا آثار أقدام شبيهة بشرية مما الجليد معظمها وترك ما يكفي لمعرفة أصلها، ولا يكفي لدراستها والخروج منها بنتائج واضحة وأدلة قوية مؤكدة..

وبسبب هذا هدأت أخبار رجل الجليد، ولم يعد أحدٌ يهتم به مع مرور السنوات واندلاع وانتهاء الحرب العالمية الثانية، وما أعقبه من تطورات سياسية واجتماعية شغلت الرأي العام العالمي..

حتى الثلاثين من يونيو عام 1969م..

ففي ذلك الوقت صدرت مجلة (ناشيونال بولتين) حاملة قصة غاية في الغرابة حول إنسان الجليد الذي اتهمته (مينا زوتا) بأنه قد هاجمها واغتصبها، ولم تتج من برائته إلا بعد أن أطلقت النار عليه، وأصابته في عينه اليمنى..

وأثار ذلك الخبر ضجة هائلة في حينه، وجعل فريقًا من العلماء يهرع إلى (مينا زوتا) لفحصها والعثور على أي آثار لصحة ما ادعته..

وبالطبع كان الكل متحفظًا لإثبات كذبها، وعدم صحة ادعائها..

ولكن المفاجأة كانت من نصيبهم هم..

فالفئة تحمل بالفعل آثار اعتداء، وآثار مخالب قوية على فخذيها ووسطها، كما أن العينة التي تم الحصول عليها منها كانت غير آدمية بالتأكيد..

وكان كل هذا يؤكد أن الفتاة قد تعرضت إلى اعتداء من قبل مخلوق غير آدمي..

ولكنه لا يثبت أبدًا أن ذلك المخلوق هو (بيتي) إنسان الجليد الغامض..

وأصرت الفتاة على أقوالها..

وأصر العلماء على الرفض على الرغم من ثقته العلمية في أن الحيوانات العادية لا يمكن أن ترتكب هذه الفعلة البشعة..

ولكن هذا الخبر نجح في أمرٍ واحدٍ فحسب..

في إعادة قصة وأخبار (بيتي) إلى كل الأذهان..

ولكن ما فجرّ القصة إلى ذروتها هو تلك المشاهدات التي سجلتها بعثة (جون إدواردز) في جبال (الهمالايا) عام 1979م، وعلى ارتفاع أكثر من أربعة آلاف وخمسمائة متر..

فعلى هذا الارتفاع الشاهق رصد رجال البعثة آثار أقدام كبيرة شديدة الوضوح يبلغ طولها ستة وثلاثين سنتيمتراً بالتمام والكمال..

ليس هذا فحسب وإنما سجلت البعثة أصوات نداءات مخيفة وصرخات قوية تجمع بين أصوات البشر والحيوانات..

ولأول مرة تم تصوير آثار الأقدام البشرية ذات الحجم الهائل ورصدها وتسجيلها..

وبدأ العلماء في فحص كل هذا..

ووفقاً لتقديرهم ومقارنتهم النسبية أكد العلماء أن طول (بيتي) ينبغي أن يتجاوز المترين وربع المتر على الأقل..

ومنذ ذلك الحين حمل (بيتي) اسماً جديداً..

اسم (بيج فوت) أو (صاحب القدم الكبيرة) وهو الاسم الذي يُعرَف به شعبيّاً حتى هذه اللحظة..

وفي عام 1983م تم التقاط صورة بعدسة ذات بُعدٍ برّيٍّ كبيرٍ جدّاً، ليس لأحد أصحاب الأقدام الكبيرة فحسب، ولكن لعائلة كاملة منها مكوّنة من ذكر وأنثى وطفلين..

والعجيب أن تلك العائلة لم تحاول التخفي أو الابتعاد بل توقفت للتصوير في هدوء وكأنها قد قررت أخيراً الإفصاح عن وجودها..

أو أنها مصابة بضعف في الإبصار يمنعها من رؤية مصوريها من هذه المسافة الشاسعة..

المؤسف أن الصور الملتقطة من مسافات هائلة كهذه لا تمتاز أبدًا بالوضوح الكافي إلى حدّ اعتبارها دليلاً علمياً كافياً لإقناع العلماء بصحة وجود أصحاب الأقدام الكبيرة أو (البيتي) ..

فحتى هذه اللحظة، ومع عدم وجود عينات مباشرة للفحص والدراسة يصر بعض العلماء على أن كل ما رآه الشهود هو بعض الأنواع المتحورة من القردة العليا مثل القردة المردة أو القرد الكسلان وغيرها، خاصة وأن بعض أفراد النوع الأخير قد شوهدت على ارتفاع أربعة آلاف متر عن الأرض، كما أنها قادرة على الوقوف منتصبية والقفز لمسافات قصيرة ..

ولكن المؤكد أن آثار أقدامها لا تشبه قط آثار الأقدام البشرية ..

لا من قريب ولا حتى من بعيد ..

لذا فقد ظلّ إنسان الجليد الغامض أو ذا القدم الكبيرة أو (بيتي) مجرد لغز غامض من ألغاز الكائنات العجيبة حتى يومنا هذا ..

والسؤال حول: هل يعتبر (بيتي) كائنًا غامضًا أم أنه مجرد تطور طبيعي أو حتى غير طبيعي لنوع من قرود المناطق الجليدية سيظل مطروحًا لفترة طويلة لا يعرف مداها إلا الخالق (عز وجل) ..

وسيظل هذا السؤال وأسئلة كثيرة غيره مجرد ألغاز غامضة مثيرة، وأمور تحتاج إلى أجوبة شافية واضحة ..

وسيظل العلماء يلهثون بحثًا عن تلك الأجوبة ..

وعندما يتوصلون إليها ستظهر أمامهم كائنات عجيبة أخرى ..

وألغاز غامضة جدية ..

فهذه هي الحكمة الإلهية لنذكر جميعًا أننا لم نؤت بالفعل إلا القليل من المعرفة والعلم ..

والقليل جدًّا .

\*\*\*

## الفراعنة... ولعنتهم

امتدت الصحراء المصرية على مدى البصر أمام عيني عالم الآثار البريطاني (هوارد كارتري) وهو يجفف ذلك العرق الغزير الذي انهمر على جبهته ووجهه وهو يقف تحت أشعة الشمس الحارقة في تلك البقعة التي قادته إليها أبحاثه ودراساته للبحث عن مقبرة أحد ملوك الفراعنة القدامى..

كان هذا في العقد الثاني من القرن العشرين، عندما بلغت حمى البحث عن الآثار ذروتها، وخاصة بعد الكشف الأثرية المدهشة التي قام بها الألماني (هنريش شليمان) عندما عثر على بقايا (طروادة) في عام 1871م في منطقة (هيسارليك) شمال غرب (تركيا) في نفس الموقع الذي حدّده (هوميردس) في ملحمة الشهيرة (الإلياذة) وسير (آرثر إيفانز) الذي كشف قصر التيه في (كريت) عام 1900م ليثبت أن أسطورة المينوتوروس لم تكن مجرد خيال محض..

وكان (هوارد كارتري) يحلم بانضمام اسمه يوماً إلى قائمة هؤلاء الأثريين العباقرة الذين حفروا أسماءهم في تاريخ الكشوف بحروف من ذهب ما جعله يحتمل الحرارة والرمال الساخنة والعرق الذي يلهب عينيه طوال عدة أشهر طويلة زاره خلالها ممول حملته اللورد (كارنرفون) مرة واحدة تركه بعدها للعذاب، وعاد هو إلى قصره البريطاني العريق ليتباهى بتمويل أكبر حملة للبحث عن الآثار المصرية..

حتى جاء شهر فبراير 1923م..

في ذلك التوقيت عثر (هوارد كارتري) على ما كان يبحث عنه طوال الوقت..

مقبرة الملك الصغير (توت عنخ آمون)..

لم يكن (كارتري) أثرياً بسيطاً أو مغموراً إذ كان يحيا في (مصر) منذ عام 1890م؛ للتقريب عن الآثار ورسم المناطق الأثرية المعروفة..

ولم يكن هذا أيضاً أول كشفه؛ إذ كانت له عدة حفائر في وادي الملوك مؤلها بعض المغامرين الأمريكيين وأهلته لإصدار كتابه الشهير (خمس سنوات للكشوف الأثرية في طيبة)..

وعلى الرغم من هذا فقد انبهر (كارتري)..

انبهر بما عثر عليه وبالكنوز التي رآها في مقبرة (توت عنخ آمون) وببريق الذهب الذي يلتصق في كل مكان حتى إنه أبرق إلى اللورد (كارنرفون)؛ ليحضر على الفور في حين انشغل هو برسم كل ما يراه داخل المقبرة..

حتى تلك العبارة التي جذبت انتباهه واهتمامه طويلاً..

عبارة هيروغليفية غير تقليدية وجدها محفورة على أحد أبواب المقبرة تقول: «سيطوي الموت بجناحيه كل من يقلق الملك»..

أيامها اهتم (كارتر) بالعبارة وترجمها وسجلها..

إلا أنه لم يشعر بالخوف منها أبدًا..

وبسرعة انتشر الخبر، وقفزت شهرة (هوارد كارتر) إلى الذروة في عالم الباحثين عن الآثار..

وقفز معه بالتالي اسم اللورد (كارنرفون)..

ومع وصول اللورد المغامر الذي اشتهر باهتماماته المتعددة والمثيرة راح الصحفيون يتدفقون على المكان كالنمل.

ومع عدسات كاميراتهم ظهرت صور الجدران والتوابيت والتمائيل.. والذهب..

الذي زغلل عيون الجميع حتى الحكومة المصرية نفسها التي فوجئت أو بدا وكأنها فوجئت بأن القانون يمنح المكتشف دومًا ما يعثر عليه من آثار مهما بلغت قيمتها..

وفي حالة (كارتر) كانت (مصر) ستفقد كنوزًا لا حصر لها وتحفًا أثرية تتجاوز كل ما عرفه العقل لو تم تطبيق القانون..

لذا فقد رفضت الحكومة المصرية تطبيق القانون، ورفضت منح (كارتر) أو (كارنرفون) ولو حلية واحدة مما تم العثور عليه في المقبرة.. بل لقد أحاطتها بحراسة قوية واعتبرتها أرضًا مصرية لها عليها كل السطوة والسيادة..

وبالطبع لم يستسلم (كارتر) لهذا وقام بتهريب بضع قطعٍ من آثار مقبرة (توت عنخ آمون) إلى (لندن)، ولكن كل الآثار الثقيلة بقيت..

ومعها تلك العبارة الرهيبة..

«سيطوي الموت بجناحيه.. كل من يقلق الملك»..

وكان من الممكن أن تبقى العبارة إلى الأبد مجرد جملة سجلها كاهن مصري قديم من باب المجاملة أو حتى القناعة الشخصية على أحد جدران مقبرة أصغر ملوك الفراعنة..

لولا ما حدث بعد هذا بقليل..

فبعد شهرين من هذه الضجة تقريبًا وقبل أن يفقد اللورد (كارنرفون) زهوة انتصاره أو يبتلع مرارة حرمانه من كل هذا الذهب جرح الرجل ذقنه جرحًا صغيرًا أثناء الحلاقة..

وبسرعة لم يستوعبها أحد أُصيبَ اللورد البريطاني بحُمى غامضة رهيبة رفعت درجة حرارته إلى حد الهذيان، ودفعته إلى الصراخ والعيول طوال الوقت وهو يصرخ بأنه في قلب الجحيم، وبأن ملوك الفراعنة يحيطون به بعد أن جاءوا للانتقام منه لأنه فتح مقبرة أصغرهم ودنسها بتواجده البشري غير الطاهر..

ولفترة قصيرة جدًّا واصل اللورد هذيانه وصراخه ثم لم يلبث أن أسلم الروح في الخامس من أبريل عام 1923م..

ومع موت اللورد في ريعان قوته استعاد بعض الصحفيين تلك العبارة المنقوشة على مقبرة الفرعون الصغير، وانطلقوا ينشرون مقالاتهم عنها وحولها ويربطون بينها وبين موت (كارنرفون)..

وهنا فقط ظهر ذلك المصطلح الشهير الذي لم يفارق أسماعنا وأذهاننا وعقولنا بعدها قطّ..

مصطلح (لعنة الفراعنة)..

وكما يحدث دومًا في كل مرة تنشأ فيها بدعة جديدة انتشر المصطلح بسرعة مذهشة وراح الكل يرددونه ويناقدونه ويفحصونه ويمحصونه..

وكما يحدث أيضًا انقسم المتابعون بين مؤيد ومعارض للفكرة..

المؤيدون أكدوا أن الفراعنة عاشوا عالمًا عجيبيًا غريبًا ترك لنا الكثير من الغوامض والأسرار التي لم يمكننا كشفها بعد؛ فليس من المستبعد إذاً أن يخلفوا وراءهم لعنة ما تصيب كل من يدنس قبورهم حتى ولو كان هذا بحجة تحقيق كشوف أثرية جديدة..

والمعارضون أصرّوا على أنه لا توجد ركيزة علمية واحدة يمكن أن تؤيد الفكرة، وأنه من السخافة أن يتردّد أمرٌ كهذا لمجرّد أن ممول حملة (هوارد كارتر) قد لقي مصرعه بحمي غير معروفة..

وبين هؤلاء وهؤلاء وقف (هوارد كارتر) نفسه يعلن في كل المجتمعات وكل المحافل العلمية أنه لم ولن يؤمن أبدًا بما يسمونه لعنة الفراعنة؛ لأنه مستكشف قديم واجه الأمر عشرات المرات دون أن يصيبه مكروه واحد..

والمدهش أن هذا لم يقنع أحدًا، خاصة وأن حالات الوفيات والموت بأسباب غير معروفة راحت تنتشر على نحوٍ مُفوّتٍ للأنظار بين كل من كانت له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بكشف مقبرة (توت عنخ آمون)..

وعندما هل عام 1929م كان عدد من وافتهم المنية منهم لأسباب غير واضحة اثنين وعشرين رجلاً!

وفي العام نفسه وفي جلسة خاصة، أعلنت زوجة (كارنرفون) أنها أيضًا لا تؤمن بلعنة الفراعنة، ولا تصدق أن الموتى يمكنهم قتل الأحياء بأية وسيلة كانت..

وكان من الممكن أن ينهي تصريحها هذا القضية ويحسمها لولا تطوُّر مفاجئ لم يكن في الحسبان أبدًا..

فقبل أن يكتمل الأسبوع أصيبت زوجة (كارنرفون) بالحمى الغامضة نفسها التي أصيب بها زوجها؛ وراحت تهذي وتصرخ ليومين تقريباً قبل أن تُلْفِظ أنفاسها الأخيرة على فراشها تاركة خلفها أكبر موجة من الرعب عرفها التاريخ الحديث حتى تلك الفترة..

رعب لعنة الفراعنة..

ولفترة طويلة لم يعد هناك حديث للصحافة ووسائل الإعلام سوى عن الفراعنة.. ولعنة الفراعنة..

وظهرت في الأسواق كُتُب ودراسات وروايات وحتى أفلام سينمائية صامتة تدور كلها حول لعنة الفراعنة..

ومن بين تلك الكتب ظهر كتاب يحمل للمهتمين بالأمر مفاجأة مثيرة للغاية..

مفاجأة تقول: إن لعنة الفراعنة لم تبدأ مع فتح مقبرة (توت عنخ آمون) بل كانت هناك قبل هذا بقرن من الزمان على الأقل..

ولقد ارتبطت فعلياً باثنين من مشاهير العلم..

أو ربما أشهرهم..

على الإطلاق.

\*\*\*

ذات صباح دافئ من شتاء عام 1799م وبمصادفة رتبها القدر حتمًا، وأثناء الحملة الفرنسية على (مصر) عثر جندي فرنسي على حجر في مدينة (رشيد) المصرية يعتبره علماء الآثار في يومنا هذا أعظم كشف القرن على الإطلاق..

فذلك الحجر الذي أطلقوا عليه اسم (حجر رشيد) والذي هو من مادة البازلت كان يحوي كتابات بثلاث لغات.. اليونانية القديمة والقبطية أو الديموطيقية والهيروغليفية..

وتعود الأهمية الأثرية البالغة لهذا الحجر إلى أنه حتى كشفه كانت الهيروغليفية بالنسبة للعالم كله مجرد نقوش منظمة يسعى العلماء لاستنتاج أو استنباط ما تعنيه، دون أن يتمكنوا من حل رموزها أو تحديد منطوقها بأي حالٍ من الأحوال.. وعندما تم كشف (حجر رشيد) وجد الأثريون أن الكتابة اليونانية هي ترجمة أمينة ودقيقة للكتابة الديموطيقية الموجودة على وجه آخر منه..

وكان هذا يعني من باب المنطق أن الكتابة الهيروغليفية هي أيضًا ترجمة أمينة ودقيقة للنص نفسه..

وعلى الرغم من أن وسائل الاتصال كانت ضعيفة للغاية في ذلك الزمن مقارنة لما أصبحت عليه بعد قرنٍ واحدٍ من الزمان وليس في عصرنا الحالي بالطبع والذي حدث فيه تطوُّرٌ مدهش في نُظْم ووسائل الاتصال في الفترة بين مقدمة المقال وهذه السطور؛ فقد طار الخبر إلى (أوروبا) كلها فانتعش علماءها والتهب حماسهم والتهبت عقولهم وهم يجدون أمامهم فرصة نادرةً لكشف أسرار وغوامض اللغة الهيروغليفية مع كل ما قد يحمله هذا من كشف لتاريخ (مصر) القديمة وفراعنتها وعلومها وأسرارها الخفية التي لم يصل العلم الحديث إلى بعضها حتى لحظتنا هذه..

ولأن (نابليون بونابرت) الذي كانت حملته تحتل (مصر) في ذلك الحين كان مغرمًا بالعلم والعلوم، ويرغب دومًا في أن يرتبط عصره بالكشوف العظيمة في كل المجالات؛ فقد سارع بنقل الحجر إلى (باريس) حتى تتم دراسته على أيدي الخبراء هناك..

وبكل شغف ولهفة الدنيا أقبل العلماء على فحص الحجر وتدوين ما عليه من كتابات ونقوش، ثم راحوا يدرسون ويفحصون ويمحصون و..

وبيأسون أيضًا..

فالأمر لم يكن أبدًا بالسهولة التي أوحى بها الأمر منذ البداية..

فلا أحد منهم كان يعلم من أين يبدأ الترجمة! أمّن اليمين أم اليسار أم من أعلى أو أسفل..

ولسنواتٍ وسنواتٍ، وعلى الرغم من كل ما بذله العلماء من جهدٍ؛ فقد فشلت كل محاولاتهم لترجمة اللغة الهيروغليفية وكشف أسرارها..

حتى جاء (شامبليون)..

كان (جان فرانسوا شامبليون) من العلماء الشبان الذين عشقوا الحضارة الفرعونية منذ نعومة أظافرهم والذين جذبهم بشدة (حجر رشيد)، وكل ما يمكن أن يمنحه من كشوف هائلة؛ لذا فقد اتخذ

قرارًا جريئاً بأن يتفرغ تمامًا لمهمة فحصه وترجمته وكشف أسرار اللغة الهيروغليفية التي ستساعد العالم كله على الإطلال من نافذة هائلة على حضارة تعد الأعظم بين كل الحضارات التي شهدها العالم القديم..

ولقد بدأ (شامبليون) مهمته وهو في الحادية والعشرين من عمره، وتفرغ لها تمامًا، وراح يوصل الليل بالنهار بحثًا عن طرف خيط يمكن أن يقوده إلى حل اللغز..

ثم -وعلى خلاف الآخرين- لاحظ (شامبليون) أن عدد أسماء الملوك في النصين اليوناني والديموطيقي يتطابق تمامًا مع عدد الخراطيش في النص الهيروغلبي؛ لذا فقد استنتج من هذا أن الخراطيش تحوي داخلها أسماء الملوك..

ومن هنا انطلق (شامبليون)..

وبحسبة بسيطة حدّد أسماء الملوك في النص الهيروغلبي وترجمها وسجّل حروفها وانطلق منها إلى باقي النص..

وبعد أحد عشر عامًا وفي عام 1816م توصل (شامبليون) إلى أعظم كشف الزمان في علم الآثار والتاريخ القديم وحل رموز اللغة الهيروغليفية..

وفتح أنظار العالم كله على الفراعنة..

وعلى دنيا الفراعنة..

وفي ليلة وضحاها أصبح (شامبليون) أعظم علماء عصره وهو بعد في الثانية والثلاثين من عمره وأحاطت به الشهرة من كل جانب وتحول إلى أشهر خبير في لغة الفراعنة..

وفجأة تقجرت في وجهه اللعنة..

فعلى حين غرة ودون أسباب واضحة أصيب (شامبليون) بشلل رباعي وحمى غامضة، وراح يهذي ويرتجف، ثم لم يلبث أن قضى نحبه تاركًا خلفه من يروي هلاوسه الأخيرة..

وبالمصادفة كانت كلها عن الفراعنة.. وانتقام الفراعنة..

كان هذا عام 1832م، كما يروي لنا ذلك الكتاب الذي تحدّث عن تاريخ لعنة الفراعنة السابق لاكتشاف مقبرة (توت عنخ آمون).

ولا يكتفي الكتاب بربط أشهر عالم آثار بتلك اللعنة الوهمية، وإنما يسبح معنا إلى ما هو أبعد من هذا..

إلى (تيودور بلهارز) أستاذ علم التشريح المرضي، ومكتشف أشهر مرض يصيب المصريين منذ أيام الفراعنة..

البلهارزيا..

ويقول الكتاب إن (تيودور بلهارز) قد قضى شطراً طويلاً في حياته القصيرة يطارد تلك الدودة القاتلة التي تخترق أجساد المصريين وتستقر في أكبادهم وتدمرهم تدميراً بطيئاً منتظماً وتسلبهم نشاطهم وحيويتهم..

ثم حياتهم فيما بعد..

وبعد تلك السنوات خطرت في ذهن (بلهارز) فكرة عجيبة..

ترى متى بدأت (البلهارزيا) في حربها مع المصريين؟!!

وفي سبيل إجابة السؤال لجأ (بلهارز) إلى أمر لم يخطر ببال سواه قط إذ انتقل بأبحاثه من الموتى المصابين بالمرض إلى مومياوات الفراعنة القدامى، وبالذات تلك الخاصة بالعمال والمزارعين الذين تدفعهم ظروف عملهم للخوض في مياه النيل طوال الوقت..

أيامها لم يكن لآثار قيمتها الحالية، ولم تكن هناك تشريعات قوية لحمايتها والحفاظ عليها؛ لذا كان من الممكن أن يبتاع (بلهارز) بعض المومياوات التي يتم العثور عليها في الجنوب أثناء أعمال الحفر والبناء، وأن يجري عليها تجاربه..

وكان هذا يعني بالطبع نبش قبور القدامى واستخراج مومياواتهم بل وتشريحها والتمثيل بها أيضاً..

ولقد نجحت تجارب (تيودور بلهارز) إلى حدٍ كبير؛ إذ أثبت بالفعل أن المصريين القدامى أصابته (البلهارزيا) منذ آلاف السنين بل وعثر على بعض الديدان المحنطة داخلهم بالفعل..

ولكن فجأة.. وقبل أن يسجل (بلهارز) تجاربه رسمياً وعلمياً، أصابته حمى مجهولة..

حمى لا تشبه التيفوئيد أو أية حمى معروفة أخرى..

ومع الحمى التي لم يتم تشخيصها أو علاجها بالطبع، راح (بلهارز) يهذي ويصرخ ويهذي وترأوده هلاوس عجيبة حول المومياوات التي قام بتشريحها والتي بدت له وكأنها قد عادت إلى الحياة لتنتقم من ذلك الذي أقلق راحتها ومثل بها و..

ومات (تيودور بلهارز) عام 1862م وهو بعد في السابعة والثلاثين من عمره بتلك الحمى المجهولة التي لم يتم تشخيص أعراضها حتى يومنا هذا..

وفي هذه المرحلة لا يحاول الكتاب وضع تفسيرات علمية أو منطقية لما أصاب (شامبليون) أو (بلهارز) ربما لأنه شغف بمحاولة تأكيد فكرة لعنة الفراعنة بأكثر مما اهتم بتفسيرها..

ولكن هذا كان دأب الجميع في تلك المرحلة الزمنية، خاصة وأن الفكرة نفسها بدت جذابة ومثيرة، خاصة وهي ترتبط بعالم الأسرار والأساطير وحمى السحر والتنجيم والغموض..

ودون أية دلائل علمية أو تاريخية أعقت ذلك الكتاب عدة كتب أخرى تنسب موت عشرات المشاهير إلى لعنة الفراعنة التي صارت صرعة النصف الأول من القرن العشرين..

حتى (بوليوس قيصر) نفسه ادعوا أن لعنة الفراعنة قد طاردته وأصابته عقله بحمى جنونية دفعته إلى تلك الأفعال الديكتاتورية التي انتهت بمقتله واغتياله على يد مجموعة من المقربين له وعلى رأسهم ربييه (بروتس)..

وأصيب الناس بالضجر والملل من هذه الكتب السخيفة وقرّروا تجاهلها فجأة فانخفضت مبيعاتها إلى حدّ كبيرٍ وبدا وكأن لعبة لعنة الفراعنة هذه قد بلغت نهايتها و..

وفجأة ظهر كتابٌ جديدٌ في الأسواق..

كتاب قلب كل الموازين رأساً على عقب..

وبمنتهى العنف.

\*\*\*

في صيف 1985م وبعد أشهر من البحث استقل البروفيسير (روبرت بولارد) المتخصّص في تصوير الأعماق الغوّاصة العلمية (ألفن) والمجهزة للغوص حتى مسافة 13 ألف قدم تحت سطح المحيط لاستكمال مشروع البحث عن حطام سفينة غرقت منذ ثلاثة وسبعين عاماً تقريباً..

كانت الغوّاصة (ألفن) مزوّدة بإنسان آلي صغير يكمن في تجويف خاص في مقدمتها، ويمكن إطلاقه بواسطة قائدها إلى مسافاتٍ تعجز الغوّاصة عن بلوغها في أعماق الأعماق..

وعبر كاميرا صغيرة في مقدمة الآلي (أرجو) راح البروفيسير (بولارد) يتلقّى عشرات الصور لأعماق المحيط الأطلنطي فيفحصها ويراجعها بمنتهى الدقة دون أن يعثر فيها على أدنى أثر لما يبحث عنه..

ثم فجأة بدأ (أرجو) يرسل مجموعة من الصور الإيجابية..

صور لم تكن واضحة في البداية، إلا أنها لم يلبث أن اتضحت رويدًا رويدًا وأصبحت جلية نقية على نحوٍ انتفض به قلب (بولارد) بين ضلوعه وتفتَّح معه الحماس في قلوب كل رجلٍ من رجال بعثته الصغيرة..

هذا لأن (أرجو) قد عثر أخيرًا على السفينة موضع البحث..

والأهم أنها لم تكن سفينة عادية..

بل كانت أشهر سفينة غارقة في التاريخ الحديث كله..

كانت (تايتانيك)..

و(تايتانيك) هذه كانت سفينة عظيمة هائلة تعتبر طفرة تاريخية في تاريخ صناعة وبناء السفن؛ إذ إنها أضخم سفينة ركاب شهدها العالم حتى تاريخها؛ إذ بلغ وزنها 52310 طنًا، وبلغ طولها 882 قدمًا، وعرضها 94 قدمًا في المتوسط، كما أن ارتفاعها كان يبلغ ارتفاع مبنى من أحد عشر طابقًا..

حتى اسمها كان يعني المارد..

ولم تكف (تايتانيك) بالضخامة وإنما أضافت إليها الفخامة المفرطة أيضًا والتي لم تعرفها سفينة ركاب من قبل وبالأدات في درجتها الأولى ذات حجرات النوم الهولندية، وقاعات الطعام الكبيرة، والصالونات الفاخرة، والشرفات الضخمة.

وعندما تم الإعلان عن تدشين (تايتانيك) تسابق كبار الأثرياء والتجار لحجز أماكنهم عليها؛ للفوز بأولى رحلاتها التي ستعبر خلالها المحيط حتى تصل إلى الشاطئ الأمريكي.

وفي العاشر من أبريل 1912م ترقَّب العالم بمنتهى الלהفة رحلة (تايتانيك) الأولى عبر المحيط وأحيطت تلك الرحلة بدعاية هائلة حتى لقد اصطف آلاف الناس على رصيف ميناء (كوينستون) في (إنجلترا) بين مودعين ومشاهدين لمراقبة السفينة العملاقة والانبهار بها ومشاهدة انطلاقها الأولى وعلى متنها صفوة الأثرياء ورجال المجتمع وفي قاعها مئات من مسافري الدرجتين الثانية والثالثة..

وانطلقت (تايتانيك)..

انطلقت تمخر عباب المحيط في زهوٍ وخيلاء، وصاحبها يُعلن في تعالٍ مغرور أن سفينة من القوة والضخامة، حتى إن القدر نفسه لا يمكنه أن يغرقها..

ويا لها من عبارة جاحدة متجنية مغرورة حمقاء..

ففي الرابع عشر من أبريل، وبعد أربعة أيام فحسب من بدء رحلتها وبخطأ ملاحى صغير ارتطمت العملاقة (تايتانيك) بجبل جليدي ضخّم لم يدر أحدٌ حتى هذه اللحظة كيف لم يره قبطانها ومهندسوها وبحارتها..

وعلى الرغم من أن السفينة الماردة كانت مصممة بحيث يمكن عزل أي قسم يصاب منها عن باقي أجزائها، إلا أن المياه قد غمرتها بسرعة مدهشة لم تسمح باتخاذ أي إجراءات وقائية..

وابتسم القدر في سخرية عندما بدأت (تايتانيك) تواجه ما تصوّر صانعوها أنه مستحيل!

الغرق..

وطوال اثنتي عشرة ساعة كاملة، وكم هائل من الرعب واضطراب ما له من حدود، راحت (تايتانيك) تغرق.. وتغرق.. وتغرق..

وفي يوم 15 أبريل 1912م اختفت (تايتانيك) تمامًا في قاع المحيط الأطلنطي..

وكان يمكن ألا نربط بين غرقها ولعنة الفراعنة بأيّ حالٍ من الأحوال لولا ما نشره أحد الناجين منها فيما بعد مع روايته كشاهد على عملية غرق أشهر سفينة في التاريخ..

ففي شهادته أشار الرجل بشكلٍ عابرٍ إلى أن مخزن بضائع السفينة كان يضم تابوتًا لكاهنة فرعونية ارتبط وجوده بأحداث مخيفة رهيبة قبل أن يغرق مع كل ما غرق ومن غرق مع (تايتانيك)..

فمنذ تم وضع التابوت في مخزن البضائع في قاع (تايتانيك)، كان عمال المخزن يرون ويسمعون ما أصابهم بالرعب، وجعلهم يطالبون بإعفائهم من العمل أو نقلهم إلى وظيفة أخرى حتى ولو تم تخفيض رواتبهم أو مضاعفة جهدهم..

فما إن يحل الليل كانوا يسمعون تأوهات الكاهنة ويرون شبحتها..

والواقع أنني شخصيًا لا أصدق حرفًا واحدًا من كل هذا، بل وأشعر معه بالكثير من الخيال والتدليس، خاصة وأنه ليس من السهل أن تتواجد امرأة في عالم الكهنة في (مصر) الفرعونية..

ثم أن أحدًا لم يعثر على ذلك التابوت المزعوم قط بعد العثور على حطام (تايتانيك)، وكل ما كان على سطحها تقريبًا..

إلا أن القصة تجد صدى كبيرًا لدى كل المتابعين لأسطورة لعنة الفراعنة، وكل من يسعى لإثبات صحتها أو عدمها حتى إنك ستجدها في عشرات الكتب والمراجع الخاصة بهذا الأمر..

وعندما تم سؤال البروفيسير (روبرت بولارد) عن قصة تابوت الكاهنة هذه جاءت إجابته غامضة للغاية؛ إذ إنه لم يؤكد وجوده كما لم يؤكد في الوقت ذاته العثور على عشرات الأشياء الأخرى، ولكنه لم ينف فكرة تواجده تمامًا، وإنما أشار إلى أن عشرات السنين التي قضتها (تايتانيك) في قاع المحيط الأطلسي كانت كافية تمامًا لتحلل وفساد واختفاء عشرات الأشياء من سطحها وقاعها ومخزن بضائعها بالطبع..

وجواب البروفيسير (بولارد) منطقي تمامًا فالتابوت كان مصنوعًا من الخشب وليس من الحجر والمومياء ستنتفح حتمًا وسط المياه المالحة، وربما تلتهما الأسماك أيضًا..

أو أن هناك تفسيرًا آخر..

ففور الإعلان عن العثور على حطام السفينة العملاقة تسابق مئات من هواة التحف والأثرية لحجز وشراء أي شيء تم العثور عليه داخلها..

وهناك شائعة قوية تقول: إن أحد كبار الأثرياء الأمريكيين قد ابتاع التابوت سرًا وبدخله مومياء الكاهنة بالطبع خشية أن يطالب به متحف (نيويورك) رسميًا نظرًا لأنه كان مشحونًا لحسابه بالفعل عندما غرقت (تايتانيك)..

ولكنها تبقى مجرد شائعة..

تمامًا ككل ما يرتبط بتلك اللعنة الوهمية المزعومة..

فمن المدهش أنه وعلى الرغم من انتشار المصطلح ومن آلاف القصص والروايات وأفلام السينما والكتب التي دارت حوله؛ إلا أنه لا توجد قصة دقيقة واحدة أو حتى رسالة علمية منطقية حاولت البحث عن الأمر..

كل ما حدث هو عملية رصد دقيقة لحالات الوفيات بين معظم من عملوا في مجال البحث عن الآثار الفرعونية..

والفرعونية بالتحديد..

فالعجيب أن أحدًا لم يتحدث عن أية لعنة تُصيب الباحثين عن الآثار الرومانية أو اليونانية أو الآشورية أو حتى حضارات الأنكا في (أمريكا) الجنوبية.. فقد ارتبطت اللعنة بالآثار الفرعونية..

وبالذين سعوا خلف الآثار الفرعونية..

الرحالة الشهير (بلزوني) مثلًا جاب العالم بحثًا عن الآثار في مختلف البلدان وحقق انتصارات مدهشة ومثيرة دون أن يصيبه مكروه..

ثم جاء إلى (مصر) وبدأ ينبش قبور الفراعنة ونقل قاعدة تمثال (أمون) من (الأقصر) وانتشل مسلة من قاع النيل وأجرى أبحاثاً طويلة عن هرم (خوفو) بحثاً عن مدخله واقتحم المقابر والمعابد واستخرج الجثث والمومياء والعظام..

ثم فجأة أصابه ذلك المرض الغامض الذي أصاب معظم علماء الآثار فسيطرت عليه حمى لاهية وأصابه الهذيان وطاردته الهلوس، حتى لقي حتفه في مساء الثالث من ديسمبر عام 1823م وهو بعد في الخامسة والأربعين من عمره..

نفس الحمى..

ونفس النهاية..

ولأن حالات الموت متشابهة دوماً في كل من أصابته لعنة الفراعنة المزعومة؛ فقد جذب هذا انتباه واهتمام البروفيسير الألماني (فيليب فاندنبرج) والذي خرج إلينا بتفسير جديد للعنة الفراعنة..

تفسير علمي..

ولأول مرة.

\*\*\*

عبر السنوات الطويلة التي تردّد خلالها مصطلح (لعنة الفراعنة) كانت معظم الكتب والدراسات الخاصة بها تقتصر على تسجيل ورصد الحالات التي ارتبطت بالتنقيب عن آثار فرعونية، والتي لاقت مصيراً غامضاً، وعانت من حمى غامضة مجهولة تنتهي عادة بالوفاة..

ثم جاء كتاب البروفيسير الألماني (فيليب فاندنبرج)..

وكتاب (فاندنبرج) يُعدّ موسوعة علمية متكاملة عن (لعنة الفراعنة) ومحاولة شديدة الجراءة؛ للبحث عن تفسير علمي لها من خلال مختلف اتجاهات العلم بدءاً من الكيمياء ووصولاً إلى الإشعاعات النووية..

ولقد اهتم (فاندنبرج) كثيراً بتسجيل معظم الحالات التي أصابها (لعنة الفراعنة) من وجهة نظره ثم توقّف طويلاً عند تلك الحمى التي أصيبت بها معظم الحالات والتي أدت إلى الهذيان والهلوسة ثم الموت في ما بعد..

ومن هنا وضع العالم الألماني نظريته..

ونظرية (فاندنبرج) تربط لعنة الفراعنة بثلاثة احتمالات علمية تبدو في جانب منها منطقية ومعقولة إلى حدٍ كبيرٍ..

الاحتمال الأول هو أن تحوي مقابر الفراعنة وملوكهم على وجه الخصوص غازات سامة أو عقاقير وأتربة بطيئة المفعول من ابتكار الكهنة الذين أخفوا دومًا علومهم عن العامة وإن تركوا لنا دلائلها من خلال سرِّ التحنيط الذي حار فيه علماء الكيمياء حتى يومنا هذا..

ومن وجهة نظر العالم الألماني أن الكهنة قد ابتكروا نوعًا من السموم شديدة البطء أشبه بعقاقير الهلوسة، ومزجوها بأتربة المقابر الخاصة بالملوك كوسيلة لعقاب كل من تسول له نفسه نبشها أو سرقتها..

وربما كانت تلك العقاقير أكثر تأثيرًا في الماضي، وأسرع مفعولًا، إلا أن خواصها قد تغيرت تمامًا عبر آلاف السنين من التخزين، ولكنها وفي كل الأحوال تترك أثرها في دماء كل من يقتحم المقابر الفرعونية ويستشق ترابها، ثم يبدأ تأثيرها بعد عدة سنوات على شكل حمى وهذيان وهلوسة..

والاحتمال قد يبدو منطقيًا للوهلة الأولى، إلا أن قليل من التفكير فيه يجعلنا ندرك عقمه تمامًا؛ إذ إن العلم قد قطع شوطًا ضخمًا في السنوات العشر الأخيرة، وأصبح من السهل تحليل أتربة المقابر ومعرفة كل ما تحويه، بل إنه هناك مراكز متخصصة لأبحاث التربة يمكنها تحديد مكونات أية عينة من الأتربة بمنتهى الدقة..

وبمنتهى السرعة أيضًا..

والكشوف الأثرية ما زالت مستمرة ولم تتوقف حتى الآن، ولو أن احتمال السموم بطيئة المفعول هذا وارد لتوصل إليه العلم الحديث فورًا..

ولكن (فاندنبرج) نشر كتابه في سبعينيات القرن العشرين، وقبل أن يبلغ العلم هذا الحد أو تظهر أجهزة وبرامج الكمبيوتر التي قلبت كل الموازين رأسًا على عقب..

ولكن دعونا لا نتوقف طويلًا عند الاحتمال الأول، ولننتقل منه إلى الاحتمال الثاني والأقرب إلى المنطق..

الفيروسات..

فالبروفيسير الألماني يفترض أنه كان هناك فيروس قديم كامن في أتربة مقابر ملوك الفراعنة..

فيروس ساد في القرون القديمة أو استخدمه الكهنة أيضًا في فترة ما أو أنهم قد ورثوه من حضارة سابقة!

وذلك الفيروس ينتقل إلى أجساد من يقتحم المقابر ويسري في دمه وأنسجته ليقضي فيها فترة حضانتها التي تبلغ سنوات وسنوات، وترتبط بالقابلية الشخصية للإصابة وبقوة مناعة الجسم التي تختلف من شخص إلى آخر.. وعندما يبدأ ذلك الفيروس المفترض نشاطه يصاب الإنسان بالحمى التي تهاجم المخ على الأرجح مسببة الهذيان والهلوسة..

والاحتمال هذه المرة منطقي وعلمي تمامًا ويمكننا هضمه واستيعابه إلى حدٍ كبيرٍ وخاصة بعد ظهور فيروس (الإيدز) الذي يكمن في الأجساد لسنواتٍ طويلة بالفعل قبل أن تبدأ أعراضه في الظهور..

ثم إن فكرة الفيروس هذه تتناسب مع الحمى المخية والهذيان والهلوسة والوفاة أيضًا..

وكذلك تتفق مع عجز الأطباء عن تشخيص المرض في عصر لم تكن الأبحاث الطبية قد تطوّرت إلى الحد الكافي لكشف مثل هذه الكائنات الدقيقة واستيعاب طبيعتها وأعراضها..

ولكن تعود بنا الخيوط إلى السؤال الأوّل..

لماذا لم يعد ذلك الفيروس يظهر في الكشوف العلمية والأثرية الحديثة؟! هذا السؤال نتركه للبروفيسير الألماني، ونتركه لعقولنا ندرسه وتناقشه وتحلله..

ثم نتوصل إلى نتائجه..

أما نحن فسننتقل إلى الاحتمال الثالث في نظرية (فاندنبرج)..

والاحتمال الثالث مدهش ومثير للحيرة، ولست أدري حتى كيف وضعه العالم الجليل، ولكن يبدو أن إيمانه بالفراعنة كان يتجاوز كل الحدود..

فذلك الاحتمال هو أن ترتبط (لعنة الفراعنة) بنشاط إشعاعي ذري ظل مختزنًا داخل مقابر الملوك لآلاف السنين لينطلق في وجه كل من ينبشها..

وربما يتفق الاحتمال مع بُعد التأثير، ومع أعراض الحمى والهلوسة والهذيان والموت في نهاية المطاف كما يتفق أيضًا مع عجز الأطباء القدامى عن تشخيص الحالات وحيرتهم في مواجهتها، إلا أنها تضعنا أمام احتمالٍ جديدٍ يبدو أكثر خيالًا من كل ما سبقه..

احتمال أن الفراعنة كانت لديهم معرفة دقيقة بالنشاطات الإشعاعية.. وهذا أمرٌ غيرٌ مقبولٍ على الإطلاق..

حتى لو افترضنا أنهم قد توصلوا إلى تراب اليورانيوم مثلاً، وأن الكهنة قد أدركوا أنه يختلف عن التراب العادي، وأن له تأثيرات فتاكة على كل من يلمسه أو يستنشقه فسننتساءل بدورنا كيف أمكنهم

اتقاء تأثيره عليهم دون أن تكون عندهم أبحاث ودراسات ووسائل مقاومة؟!!

ولو افترضنا أن هذا قد حدث بالمصادفة ودون وعي منهم، وأن بعض المواد الداخلة في مساحيق التحنيط، كانت مواد مشعة فتاكة فأين ذهبت هذه المواد، ولماذا غاب تأثيرها واختفت من المقابر على الرغم من أنها قد بقيت لآلاف السنين؟!!

ثم لماذا تواجدت في الكشوف القديمة ولم تتواجد في الكشوف الحديثة؟! كل هذا ينبغي أن يقودنا إلى نتيجة واحدة لا غير مع جزيل احترامنا للبروفيسير (فيليب فاندنبرج) وشهرته وعلمه الغزير..

يقودنا إلى أنه لا وجود لما يسمى بـ (لعنة الفراعنة)!

ربما كانت هناك حوادث عديدة ترتبط بكل من نقَّب عن الآثار في أزمتته انخفضت فيها درجة الوعي الصحي، إلا أن هذا لا يعني وجود لعنة أسطورية صالحة لخيال الكتاب والسينمائيين، ولكنها غير قادرة على إقناع أي صاحب عقلية علمية أو منطقية..

وهنا ينبغي أن أضم صوتي لكل الأصوات التي ترفض وبشدة فكرة (لعنة الفراعنة) هذه والتي تستنكر حتى ترديد المصطلح أو حتى مناقشة احتمالات صحته..

وأهم ما ينبغي معرفته في هذا الشأن هو أن أكثر من هاجم الفكرة وحارب لإثبات زيفها وحمقها هو الشخص الذي ارتبط اسمه بمنشئها منذ أول مرة ظهر فيها المصطلح..

(هوارد كارتر) شخصياً..

فمع شغف الناس بالحديث عن الأمر وترديده، كتب (كارتر) عددًا كبيرًا من المقالات وألقى مئات المحاضرات واشترك في عشرات الندوات ليهاجم الفكرة ويؤكد أنها مجموعة من المصادفات السخيفة بدليل أنه أول من دخل مقبرة (توت عنخ آمون) أو أول من رصد ما بداخلها لو شئنا الدقة ولم تصبه أي أعراض يمكن أن ترتبط بالمصطلح..

لا ألم أو حمى أو هذيان أو هلوسة..

ولقد عاش (كارتر) حتى عام 1939م في صحة جيدة ودون أن يعاني سوى من الأعراض الطبيعية للتقدم في العمر حتى مات ميتة هادئة في فراشه وهو يواصل إنكاره واستنكاره لفكرة (لعنة الفراعنة)..

ولكن العجيب والمدهش أن أحدًا لم يستمع إليه..

هذا لأن الفكرة بما تحويه من أسطورية وغيبيات قد استهوت الناس في كل أنحاء العالم، وأصبحت مادة تجارية رابحة ووسيلة لترويج مئات الكتب والروايات والدراسات وأفلام السينما..

وهكذا أغلقنا جميعًا باب العقل والمنطق وغرقنا حتى النخاع في هلاوس وخزعبلات وخرافات وروايات لا أصل أو أساس لها..

أو ربما نفعل هذا كجزء من لعنة تلازمنا جميعًا بلا هوادة..

لعنة الفراعنة.

لعنة الفراعنة.

\*\*\*

## فوق العقل

ترى ما هي حدود قدرات العقل البشري؟!!

قديمًا كانوا مبهورين بما كشفوه من حدوده التي لم تتجاوز أيامها سوى قدرته على التحكم في الحواس الخمس الأساسية..

ثم تطوّر العلم وأدركوا أنه قادر أيضًا على مزج تلك الحواس بعضها ببعض..

وحتى منتصف العشرينيات عندما كان العلماء يتصورون أنهم قد بلغوا ذروة العلم كانت معارفهم عن العقل البشري محدودة للغاية، على الرغم من أنهم كانوا يجرون أبحاثهم عن الفص الأمامي والجسم الصنوبري في المخيخ..

والواقع أنه حتى زمن قريب للغاية كان الفص الأمامي للمخ يمثل لغزًا علميًا محيرًا لأطباء وجراحي المخ والأعصاب، خاصة وأنه هناك حالة مسجلة لرجل أصابه خنجر في جبهته وانغرس لعشر سننيمترات كاملة دون أن يؤدي هذا إلى أي خلل في وظائف جسده..

أو عقله..

مع تلك الحادثة راح العلماء يدرسون الفص الأمامي للمخ في اهتمام بالغ..

فحصوه..

ووزنوه..

وقطّعوه..

وحلّوه..

ولكن هذا لم يوصلهم لشيء..

أي شيء..

وحار العلماء أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

وتضاعفت أبحاثهم..

وتكثفت..

وتضاعفت..

وعندما أعيتهم الحيلة بدأوا في وضع النظريات..

والمدهش أن تلك النظريات كانت أقرب إلى الفلسفة منها إلى العلم..

فالقاعدة التي يؤمن بها كل العلماء هي أنه ما من جزءٍ عبيثٍ في جسد الإنسان كله..

جميعهم يؤمنون بهذا..

المؤمنون منهم وحتى الملحدون..

إذا فما دام الفص الأمامي موجودًا فله حتمًا وظيفة ما..

وظيفة مستترة ولكنها هامة.. للغاية..

فماذا يمكن أن تكون تلك الوظيفة..

افترض فريق منهم أن الفص الأمامي للمخ هو المسؤول عن الأحلام، ولكن الدراسات التي أجريت على كل من أصيب فصهم الأمامي أثبتت أنهم يحلمون بصورة طبيعية للغاية..

وهنا خرج فريق آخر من العلماء بنظرية ثانية..

نظرية تفترض أن الفص الأمامي للمخ هو المسؤول عن السمات الشخصية للإنسان خاصة وأنهم قد لاحظوا بعض التغيرات في شخصية من أصيبوا في فصوصهم الأمامية..

وارتاح العلماء لهذا التفسير..

وهناؤوا أنفسهم..

وبعضهم..

...

ولكن فرحتهم هذه لم تكتمل؛ إذ جاء علماء النفس ليقبلوا تلك النظرية رأسًا على عقب..

وبمنتهى العنف.

\*\*\*

علماء النفس البشرية قرأوا ما كتبه وتوصل إليه علماء المخ..

ورفضوه..

وبمنتهى الشدة..

فمن منظورهم، ووفقاً لدراساتهم ومشاهداتهم لا يمكن أن تكون السمات الشخصية للمرء كامنة في  
الفص الأمامي للمخ..

ولا حتى في أي فصّ منه..

فالسّمات البشرية من منظورهم ليست عاملاً وراثياً يمكن أن يكمن في فصوص المخ أو الجينات بل  
هي أمرٌ متغيرٌ مع تغيُّر البيئة وقدرات المرء على التفاعل معها وهو ما تؤكد أبحاثهم التي أثبتت أنه  
حتى التوائم المتماثلة يمكن أن تكتسب سمات مختلفة أو حتى متعارضة وفقاً للبيئة التي تنمو فيها  
واختلافاتها..

وأسقط في يد علماء المخ والأعصاب..

فما فائدة الفص الأمامي إذا؟!!

ومع الحيرة تُولد دوماً نظرية علمية جديدة..

والنظرية هذه المرة كانت تعتمد على فكرة الاحتياطي المختزن..

والفكرة ببساطة أن المخ قد يتعرّض إلى تلف جزئي من جراء صدمة أو إصابة..

وقد يخسر بعض خلاياه الحيوية..

ولأن الخلايا العصبية غير قابلة للنمو أو الالتئام (وفقاً للعلوم الحالية) فالخلايا في الفص الأمامي  
(الصامت) لديها القدرة على أن تحل محل الخلايا التالفة أيّاً كانت..

وكم ارتاح العلماء لهذه النظرية وهذا التفسير؛ إذ إنه يفسر غموض الفص الأمامي ويمنحهم تفسيراً  
مرضياً في الوقت ذاته حول حالات التحسن والشفاء من إصابات المخ على الرغم من قاعدة عدم  
النمو العصبي..

وهدأت الأمور..

نسيئاً..

ومرحلياً..

فبسرعة بدأ بعضهم يتساءل: وماذا لو نزعنا الفصّ الأمامي للمخ ثم تسببنا في تلف جزئي لخلايا المخ؟!

وقد كان..

ففي أمخاخ حيوانات التجارب تم بتر الفص الأمامي بأكمله وإصابة بعض خلايا المخ بتلف جزئي..

ثم انتظر العلماء..

ورصدوا..

وتابعوا..

وسجلوا..

واندهشوا أيضاً..

فالمخ أمكنه أن يستعيض عن الأجزاء التالفة مع التدريب والتحفيز المستمرين..

ودون الفص الأمامي..

وهكذا أثبت العلماء خطأ نظرية الاحتياطي المختزن..

وفتحوا باباً جديداً للتساؤل والحيرة..

وعاد الفص الأمامي لغزاً محيراً..

وعاد البحث عن نظرية جديدة..

ومن هنا نشأت نظرية الأحلام..

أحد العلماء أشار إلى أن الفص الأمامي للمخ هو المسئول عن الأحلام وأن تلفه يعني غياب الأحلام من فترات النوم..

ولما كانت الأحلام ضرورية للغاية في شخصية الإنسان وحالته النفسية؛ فقد اهتم العلماء بشدة بتلك النظرية وبدأوا في دراستها وإجراء تجاربهم عليها بالفعل..

وهنا انتبهوا إلى حقيقة مدهشة..

حقيقة أنهم يجهلون من الأساس ماهية النوم..

وماهية الأحلام..

لذا كان من الضروري أن تبدأ أبحاثهم من بعيد..

بعيد جداً.

\*\*\*

لماذا ننام؟!!

السؤال يبدو سهلاً للغاية في البداية..

والجواب أسهل..

فنحن ننام لأن الجسد يجهد، ويتعب، ويستنفد طاقته، ويحتاج إلى النوم حتى يسترد عافيته وقوته..

هذا هو الجواب الذي سنحصل عليه من أي شخص..

وسنفتتح به..

تماماً..

ولكن الواقع أنه ليس الجواب الصحيح من الناحية العلمية...

فكل الأبحاث التي أجراها العلماء تؤكد أن النوم لا يستعيد الطاقة التي نفقدها طوال النهار، وأنه لا يعيد إلينا سعراً واحداً منها..

ربما يدهشك هذا أو تستنكره أو تغضب منه..

أو ربما حتى تتهم كاتبه بالتخريف والتلفيق ومحاولة الإثارة دون منطق...

ولكنه العلم..

فالعالم لا شأن له بما نتصوره أو نتوقعه أو حتى تربينا عليه..

العلم يؤمن فقط بالأرقام والحسابات والدراسات والتجارب..

ولقد أُجريَ آلاف منها على مسألة النوم تلك..

في البداية كان الفكر النمطي يقول إن النوم حالة يستعويض بها العقل والجسد ما فقده من طاقة؛ لذا حسب العلماء طاقة الجسم قبل وبعد النوم فلم يجدوا اختلافاً بينهما..

وحاروا..

وارتبكوا..

وأجروا المزيد والمزيد من التجارب والدراسات...

ومن أهم تلك التجارب أنهم أخضعوا مجموعة من المتطوعين إلى حالة من اليقظة المستمرة في نفس الوقت الذي تمتعت فيه مجموعة أخرى بنوم منتظم عميق..

وبدأت دراسة مقارنة للفريقين..

في البداية بدأ أفراد الفريق المحروم من النوم أكثر خمولاً وعصبية وأبطأ في الاستجابة وردود الأفعال وكأنما فقد حيويته مع قلة النوم..

ثم حدث تطوُّر مدهش..

أفراد الفريق المستيقظ استعادوا حيويتهم في اليوم الثالث بل وأصبحوا أكثر حيوية ونشاطاً من الفريق الذي ينام على نحوٍ منتظم..

الأغرب أن ملكاتهم الإبداعية ومهاراتهم اليدوية أصبحت أكثر وأدق وهم يحاولون الاستفادة بالوقت الطويل الذي حصلوا عليه مع حذف ساعات النوم..

وفي نهاية الأسبوع كان العلماء في حيرة أكبر وهم يطرحون السؤال نفسه: لماذا ننام؟!!

فالفرقان تساويا في الأداء مع ميل الكفة تجاه المستيقظين، وليس كما توقع الكل..

هناك سبب آخر إذن للنوم بخلاف استعادة الطاقة..

وعبر بعض التجارب انتبه أحد العلماء إلى أن الجسد البشري يفرز مادة طبيعية شبيهة بالمورفين أطلق عليها اسم الأندورفين أي المورفين الداخلي..

ولأن الجسم يفرزها بصورة طبيعية؛ فقد افترض بعضهم أن تلك الأندورفينات تتراكم في الجسد وفي المخ بالتحديد مما يصيبه بشيء من التخدير يدفعه إلى النوم..

ونظرياً بدت الفكرة منطقية ومعقولة للغاية..

والأندورفينات أصبحت حقيقة مثبتة..

وكان هذا يعني حل لغز النوم أخيراً..

ولكن في العلم النظريات وحدها لا تكفي لا بُدَّ من التجارب والدراسات والاختبارات و...

والانقلابات..

وكان هذا بمثابة صدمة جديدة للعلماء وإضافة محيرة للغز الكبير..

لغز النوم و..

وللحديث بقية..

طويلة.

\*\*\*

مرة أخرى صدم العلماء بأن ما تصوّروه سبباً للنوم هو في الواقع ليس كذلك على الإطلاق..

وهكذا عاد اللغز إلى بدايته..

وعاد السؤال يطرح نفسه مع كم أكبر وأضخم من الحيرة..

ومن التوتر أيضاً..

فالسؤال الذي بدا بسيطاً مباشراً في البداية، وبدت إجابته سهلة يسيرة للعامة أصبح من وجهة نظر العلم لغزاً من أكبر ألغاز العقل البشري..

لغز النوم..

ومع الأبحاث المتتالية صار النوم لغزًا أكبر..

وأكبر..

وأكبر..

فالتجارب التي أجريت على البشر أثبتت كلها أن الإنسان يستطيع الاستغناء عن النوم تمامًا لو تم تدريبه على هذا..

بل إن بعض الأمراض ترتبط بعدم القدرة على النوم لسنوات وسنوات..

النوم إذاً ليس ضرورة حيوية كما كان متصورًا من قبل وهذه حقيقة علمية مدهشة على الرغم من كل ما ألفناه وعهدناه وتصورناه في عمرنا وتاريخنا كله..

ولكنه ضرورة نفسية لا شك فيها؛ فالذين حرّموا من النوم لفترات طويلة اكتسبوا نشاطًا ليليًا مدهشًا، وأصبحوا أكثر عرضة للإصابة بالأمراض النفسية والعصبية..

وهذا يعيدنا إلى الموضوع الرئيسي الذي دفع بنا إلى نهر العلم الفرعي هذا..

الفص الأمامي للمخ..

فمع حيرة العلماء وضع أحدهم نظرية تقول إن الفص الأمامي هو المسؤول عن الأحلام التي تراودنا في مرحلة النوم العميق..

وبعد دراسات حدّد العلماء مرحلة الأحلام هذه بارتجافة الجفون أثناء النوم، وراحوا يرصدون هذا ويسجلونه ويربطون بينه وبين مراحل النوم الأخرى..

وبعد أبحاث مجهدة تمكن العلماء من قراءة لغة الجفون وهي ليست لغة عاطفية كلغة العيون، ولكنها لغة خاصة بالأحلام تحدّد ما إذا الشخص يحلم حلمًا جميلًا أم مضطربًا أم يعاني من كابوس عنيف..

كان من الضروري أن تكون هذه هي البداية لدراسة علاقة الفص الأمامي للمخ بعالم الأحلام..

العلماء فحصوا أصحاب الفصوص الأمامية الطبيعية وأصحاب الفصوص المصابة وحتى المصابين بأورام في الفصوص الأمامية لأمخاخهم..

فحصوهم جميعًا أثناء نومهم العميق..

ومرة أخرى خيبت النتائج آمالهم وتوقعاتهم..

الكل نام..

واستغرق في النوم..

وحلم..

وفي متوسطهم كانت أحلامهم عادية ومنطقية ومتقاربة..

كلهم مرّ بأحلام وردية ومضطربة، وعانى من بعض الكوابيس والهواجس بلا فارق بين ما عليه فصوصهم الأمامية..

ودون الخوض في عالم الأحلام ودلالاته وهو ما سنتحدث عنه في موضوع لاحق؛ فقد أثبتت تلك التجارب أن علاقة الفص الأمامي للمخ بعالم الأحلام تساوي صفرًا كبيرًا..

صفر اتسع ليلتهم كل أبحاث العلماء بلا رحمة أو هوادة..

وبقي الفص الأمامي لغزًا..

وطوال تلك الفترة التي انشغل فيها علماء الغرب بالبحث عن أغاز الفص المخي كان السوفييت يتعاملون معه من منظور آخر تمامًا..

منظور التقطوه من التراث الصيني والياباني، ومن الرهبان التبتيين الذين أثاروا انتباه العالم كله في مرحلة تالية..

فالرهبان كانوا يعيشون حياة شديدة التقشف في ظروفٍ مناخية غاية في السوء، وبموارد تكاد تكون منعدمة، إلا أنهم كانوا يتعايشون مع هذا كله بثباتٍ وصبرٍ شديدين ويمارسون نوعًا مدهشًا من الرياضات الروحية جعلهم يكتسبون قدرات لم يكن العلم يتصوّر أنه من الممكن أن يكتسبها بشر..

ففي جسمنا البشري نوعان من الأعصاب والعضلات..

نوع إرادي؛ أي أننا نتحكم فيه بإرادتنا مثل حركة أجسادنا وأطرافنا وحواسنا..

ونوع لا إرادي أي أنه من المفترض أن حركته لا تخضع لإرادتنا مثل معدّل النبض والتنفس واحتراق السعرات الحرارية أو ما يعرف بالأبيض وحركة الدم في العروق..

ولكن رهبان التبت برياضتهم الروحية وأجسادهم النحيلة أثبتوا أمرًا مدهشًا..

ومذهلاً..

لقد أخضعوا اللا إراديات إلى إرادتهم..

جعلوا اللا إرادي، إرادياً..

بإرادتهم..

وكان هذا بالنسبة للعلم طفرة..

طفرة قلبت الموازين كلها رأساً على عقب..

وبمنتهى العنف.

\*\*\*

رهبان التبت كسروا كل معلومات العلماء عن قدرات المخ البشري، وأثبتوا أن طاقاته تفوق كل ما أمكنهم تخيُّله خلال سنوات وسنوات من العلم والدراسة والاختبارات..

ولأنهم درسوا كل ملليمتر من المخ؛ فقد تصوَّروا أن تلك الطاقات الجديدة لا بُدَّ وأن تتبع من المنطقة الوحيدة التي لم يمكنهم سبر أغوارها بعد..

الفص الأمامي..

ولكن المشكلة أنه لا توجد أي إصابات في الفص الأمامي لدى رهبان التبت؛ لدراسة تأثيرها على قدراتهم، ومن المستحيل في الوقت ذاته إحداث إصابة متعمدة في أحدهم أيضاً.

ليس هناك إذاً سوى البحث عن وسيلة أخرى لدراسة هذا..

وهنا اتجه العلماء إلى دراسة الأمر عبر وسيلة مختلفة تماماً..

رسَّام المخ الكهربى..

جهاز يلتقط الموجات الكهرومغناطيسية للمخ، ويقوم بتسجيلها على هيئة خطوط ومنحنيات تحدد نشاط المخ في كل لحظة..

في البداية بدأت عملية تسجيل لإشارات المخ لأكثر من مائة شخص من مختلف الأعمار والظروف، وبعدها تم تسجيل الإشارات المخية للرهبان أثناء نشاطاتهم اليومية المعتادة..

ثم دخل الرهبان حالة التركيز وراحوا فيما يشبه الغيبوبة..

وانطلقت طاقاتهم العقلية..

وانطلقت..

وانطلقت..

وعلى رسام المخ الكهربى قفزت الإشارات إلى حدّ مدهش..

حد لم تبلغه حتى في أشد لحظات الانفعال..

وبمنتهى الدهول راجع العلماء إشارات المخ مرّةً وثانيةً وثالثةً..

ولم يكن هناك مبرّر من الاعتراف بأنهم أمام ظاهرة مدهشة..

فأولئك الرهبان النحيلون الذين يبدون وكأن أجسادهم قد استنزفت من الجوع نقلوا كل طاقاتهم إلى عقولهم لينطلقوا بها خارج الحدود..

كل الحدود..

ولأن العلماء يحتاجون إلى قواعد وأسس يبنون عليها علومهم ونظرياتهم؛ فقد بدأوا في دراسة حياة رهبان التبت وتدريباتهم الروحية؛ لمعرفة تأثيرها المدهش على العقل وقدرته على إخضاع اللاإراديات إلى إرادته..

وفي هذا السبيل سجلوا مجموعة من التجارب المذهلة..

فأحد الرهبان تم دفنه في تابوت تحت الأرض دون تزويده بأي طعام أو شراب، ودون مصدر للهواء مع توصيل جسده بجهاز خاص (Polygram)؛ لقياس معدل أيضه ونبضات قلبه وتنفسه..

ولقد ظلّ ذلك الراهب مدفوناً لثلاثة أيام والأجهزة كلها تسجل حالة لم ير العلماء مثلها في حياته كلها..

فالتمثيل الغذائي (الأيض) انخفض إلى حدّ مذهل بحيث صار الجسد يستهلك سعراً واحداً في الساعة تقريباً ونبضات القلب أصبحت نبضة واحدة في الدقيقة..

أما معدّل التنفس فقد بدا مذهلاً، كما لو أن ذلك الراهب يستهلك ذرات الهواء ذرة بذرة..

وهكذا خرج الراهب من تحت الأرض بعد ثلاثة أيام كاملة سليماً معافى، على الرغم من أن الهواء المتاح لا يكفي أيّ إنسان عادي لأكثر من ساعتين!

قدرة مذهلة تؤكد أن طاقات العقل البشري هائلة أكثر مما يمكن حتى أن نتخيل..

كل ما علينا هو أن نستوعب قانون العقل الذي يتيح له الانطلاق على هذا النحو المدهش..

وهذا ما حاول العلماء التوصل إليه عبر دراسات طويلة لعقول ونمط حياة رهبان التبت، وبذلوا جهداً رهيباً لربط كل هذا بالفص الأمامي للمخ الذي ما زال يربكهم ويحيرهم كثيراً..

كان منتهى أملهم أن يضربوا عصفورين بحجرٍ واحدٍ، وأن يتوصلوا إلى تفسير واحد للظاهرتين معاً..

وبعد عامين تقريباً بدا لهم أنهم قد توصلوا إلى نتائج مدهشة تقول إن الجوع لفترات طويلة يقلل الجهد الواقع على الجسد ويطلق العنان للمخ..

وبسرعة خرجت عشرات الكتب التي تؤيد هذه النظرية ووجدت لها ملايين المؤيدين في كافة أنحاء العالم خاصة وأنها تتفق مع مبدأ (جوعوا تصحوا) و(المعدة بيت الداء والحمية أصل الدواء) وكلاهما يتردد على ألسنة الكافة منذ قديم الزمان..

وعلى الرغم من غياب التجارب العلمية التأكيدية بات معظم العلماء على ثقة من أن النظرية صحيحة تماماً..

أو فلنقل إنهم تمنوا هذا..

ولكن المشكلة أن العقل البشري يُصير دوماً على أن يثبت للعلماء أنهم ما أوتوا من العلم إلا قليلاً، وأنهم مهما تصوروا سيواجهون حتماً تحدياً جديداً في كل خطوة..

فالكشوف العلمية -كما وصفها أحد العلماء- هي إهانة مستمرة للذكاء البشري؛ فكلما تصوّر الإنسان أنه قد بلغ ذروة المعرفة صدمته نتيجة علمية جديدة تفسّر نقطة حيرته وتثبت خطأ نقاط أخرى كان يتصور أنه قد حلّ ألغازها وكشف مغاليقها..

وفي هذه المرة جاءت الطعنة من خارج المحيط العلمي تماماً..

ومن شاب نحيل أيضاً..

شاب هدم النظرية من أساسها..

تماماً..

\*\*\*

يوري جيلر.. شاب يهودي ضئيل نحيل لا يمكن أن يثير انتباهك لحظة لو أنك التقيته في مكان عام، وربما يثير منتهى الملل في نفسك لو وقفت تتحدث إليه لثانية واحدة..

ولكن يوري هذا أثار انتباه علماء العالم كلهم ذات يوم من أيام عام 1974م عندما قدمه عالم جليل من علوم فوق الطبيعيات وهو البروفيسير (أندريا بوهاريتش) في كتاب باسم (ظاهرة جيلر)..

وعبر صفحات الكتاب فاجأنا (بوهاريتش) بتجربة فريدة قلبت دراسات المخ كلها رأساً على عقب..

ف (يوري) هذا يمتلك مقدرة عقلية مدهشة تختلف عن كل ما خبره العلماء من قبل؛ إذ إنه يستطيع ثني أي معادن مهما بلغت صلابتها ليس بعضلاته وإنما بعقله..

عقله وحده..

وكل ما يفعله يوري هو أنه يمسك أية أداة معدنية ويتحسسها بأصابعه بمنتهى الرفق والهدوء فتلين بين أصابعه كما لو أنها مصنوعة من الشمع..

وظاهرة كهذه لا يمكن أن يرضى بها العلماء أو يفتتكون بسهولة؛ لأنها أمر يفوق قدرات البشر ويتجاوز حتى حدود العلم والمنطق..

ثم إنه كان هناك الرافضون للأمر لمجرد أن يوري يهودي والذين اتهموا مؤيديه بالكفر والخروج عن العقيدة المسيحية ومن ثاروا وهلّوا وصرخوا..

ولكن العلماء لا تعنيهم كل هذه الانفعالات، ولا يمكن أن يتوقفوا عندها..

كل ما يعينهم هو الشك العلمي..

والاختبار العلمي..

ولقد وافق يوري على الخضوع لاختباراتهم في أي مكان وأي زمان وأي ظروف..

ولأنهم متشككون بطبعهم قرّر العلماء بناء حجرة خاصة من الرصاص المانع للموجات، وفحصوا كل معدن وضعوه أمام يوري واستخدموا في هذا أحدث أجهزة اختبار مقاومة المواد، ودرسوا القوة اللازمة لثني كل أداة معدنية منها وسجلوا كل هذا بمنتهى الدقة، ثم أخضعوا يوري لمجموعة ضخمة من الفحوص والتحليل؛ للتيقن من أنه لا يتناول أية عقاقير منشطة أو مقوية وحلّوا دمه وبوله ولعابه وحتى ثيابه..

ثم وضعوه داخل الحجرة الرصاصية مع أدوات معدنية مختلفة..

وأمسك يوري الأدوات وتحسّسها برفقٍ ونظر إليها بمنتهى التركيز..

وانتنت الأدوات..

كل الأدوات..

وعلى الرغم من ذهول العلماء قرّروا تكرار التجربة مع مجموعة فحوصات كثيرة جديدة..

ومرة أخرى جلس يوري داخل الحجرة المصنوعة من الرصاص مع مجموعة أدوات من معادن مختلفة، وجسده موصول هذه المرة بأجهزة ترصد دقات قلبه، وسرعة تنفسه، ونشاط مخه، وإفرازات عرقه..

وكرّر ما فعله..

ومرة أخرى انتنت المعادن..

وفي هذه المرة سجل العلماء كل التغيرات التي مرت بـ (يوري) قبل وأثناء وبعد الثني..

وجاءت نتائجه كلها مقبولة بالنسبة لشخصٍ بذلَ جهدًا محدودًا..

فيما عدا نتائج رسّام المخ الكهربائي..

لقد بدا من الواضح أن نشاط مخ يوري جيلر قد حقّق قفزةً واضحةً عندما بدأ يثني تلك المعادن، على الرغم من أن جسده لم يبذل جهدًا مساويًا أو حتى قريبًا..

يوري يستخدم عقله إذًا..

وهذا يحتاج إلى اختبارات أكثر دقة وأكثر تحديدًا؛ لرصد ذلك الجزء من المخ الذي يصدر كل هذه الطاقة فوق العقلية المدهشة..

ودون الخوض في تفاصيل سيدركها القارئ مسبقًا يكفي أن نقول إنهم قد وجدوا أن النقطة الرئيسية التي تنطلق منها تلك الطاقة المدهشة على الرغم من اشتراك كافة أجزاء المخ في الأمر هي الفص الأمامي..

وكان هذا يعني وضع أول نقطة فوق حرف حاروا في نطقه أو تحديد هويته طويلًا..

ويعني أيضًا بداية نظرية جديدة تحدّد وظيفة الفص الأمامي للمخ..

ومع بداية الثمانينيات راحت مجموعة من الكتب تغمر الأسواق وكلها تتحدث عن الفص الأمامي للمخ وكونه منطقة انطلاق الطاقات فوق العقلية..

ولكن إقرار حقيقة كهذه ليس بالأمر السهل خاصة وأن القوى فوق العقلية نفسها مازالت أمرًا ينفيه ويعارضه ويهاجمه بمنتهى العنف عددٌ كبيرٌ من العلماء التجريبيين الذين يؤكدون أنه أمر لا يمكن الجزم به أو تحديد قواعد ثابتة له؛ لقلّة الحالات في مضماره..

أما العلماء الذين يؤيدون هذه القوى فيرون أن البشر جميعهم يمتلكونها، إلا أن حياة المدنية التي زوّدت الإنسان بعشرات الوسائل الصناعية الحديثة قد أدت إلى ضمور تلك الطاقات الطبيعية في عقولنا وفقًا لمبدأ: «القدرة المستخدمة تنمو والقدرة المهملة تضر»..

والصراع بين الفريقين ما زال مستمرًا حتى هذه اللحظة على الرغم من أن الرافضين لوجود تلك القوى عاجزون عن تفسير عدة ظواهر فوق عقلية أخرى؛ إذ أن جيلر ليس الحالة الوحيدة..

بل هناك حالات.. وحالات.. وحالات.. و..

ولهذا حديث طويل.

\*\*\*

في إحدى ليالي نوفمبر في عام 1966م جلس السوفييتي (نيكولايف) وحيدًا داخل حجرة من الرصاص غير المنفذ للإشعاعات أو الموجات اللاسلكية في العاصمة السوفييتية (موسكو)، وقد اتصلت بعقله أجهزة قياس خاصة جدًا ترصد إشارات مخه ومعدلات نبضه وتنفسه وأمامه ورقة صغيرة خط عليها أحد العلماء - من وحي اللحظة - كلمات غير مترابطة ورسمًا لا معنى له راح (نيكولايف) يحدق فيهما طويلًا دون أن تسجّل أجهزة العلماء أيّ تغيرات في معدلاته الحيوية..

وفي الوقت ذاته كان زميله (كاتشسكي) يجلس في ظروفٍ مماثلة في (لينجراد) على بُعد ألف كيلو متر من (موسكو) وقد بدا غارقًا في حالة من التركيز الشديد ثم لم يلبث أن النقط القلم أمامه وراح يخط الكلمات نفسها والرسم ذاته على ورقة بيضاء ناولها لأحد العلماء المجاورين له وهو يقول:

- لست أدري ما الذي يقصده من هذا العبث، ولكن هذا ما أرسله.

وأصيب العلماء بالذهول في (موسكو) و(لينجراد) في نفس اللحظة فعبر ألف كيلو متر استقبال (كاتشسكي) رسالةً عقلية من (نيكولايف) بمنتهى الدقة، ونقلها بمنتهى الوضوح كما لو أن عقله جهاز استقبال لاسلكي فائق التطور..

وفي البلدين السوفيتيتين سجّل العلماء نشاطًا زائدًا لعقل (نيكولايف) ونشاطًا عاديًا لعقل (كاتشسكي)..

المرسل إذاً أطلق طاقة عقله والمستقبل استرخى لالتقاطها فحسب..

وعلى مسافة ألف كيلومتر!

وغرق العلماء في حالة فائقة من الدهشة..

والحيرة..

والغموض..

وانطلق ذلك السؤال الذي ما زال يطرح نفسه حتى يومنا هذا..

كيف حدث هذا؟

بل كيف يمكن أن يحدث؟

لقد أعلن تلك القصة سالفة الذكر عالم جليل يتمتع بسمعة علمية لا تشوبها شائبة وهو العالم السوفييتي (فلاديمير فيدلمان)؛ واحد من أشهر علماء ما فوق الطبيعيات وطرحها في مؤتمر لبحث الظواهر الخارقة للمألوف عام 1968م دون أن يحاول وضع تفسير علمي للظاهرة، وإنما اكتفى بأن أطلق عليها اسم التخاطر العقلي عن بعد..

أو (التليباتي)..

والعجيب أن المصطلح لم يكن جديدًا بالنسبة لزمرة علماء الظواهر فوق الطبيعية الذي حضروا ذلك المؤتمر، بل كان مصطلحًا قديمًا لظاهرة ما زالت تثير جدلاً علميًا حتى لحظة كتابة هذه السطور..

فمع مطلع عام 1862م وبينما انشغل نصف سكان العالم في الاحتفال بأعياد رأس السنة الميلادية أغلق عالم نصف معروف يدعى (ف . مايرز) (F.Mayrs) معمله على نفسه، وانهمك في سلسلة من التجارب والدراسات المعقدة استغرقت تسعة أشهر من عمره، قبل أن يخرج إلى العالم بذلك المصطلح الجديد (التليباتي) (Telepathy) ..

ولم يتصور (مايرز) أو يتخيّل ولو لحظة واحدة أن مصطلحه هذا سيثير أكبر وأطول جدل علمي في التاريخ كله..

تاريخ علم الطبيعيات..

وفوق الطبيعيات..

وأنة وبعد مرور أكثر من قرن كامل على إطلاقه هذا المصطلح لم ينجح شخص واحد أو جهة علمية - صغرت أو عظمت - في إثبات أو نفي هذه الظاهرة.

وكلمة (تليباثي) كما تقول القواميس المتخصصة تعني (التخاطر عن بعد) أو انتقال الأفكار من شخص إلى آخر - أو آخرين - دون استخدام وسيلة مادية.

أو هي ببساطة ظاهرة (قراءة الأفكار) كما يطلق عليها العامة..

وعلى الرغم من كل ما أثارته ظاهرة (التخاطر عن بعد) من جدل وما أطلقتها من خيال العلماء والأدباء، إلا أن التجارب الجادة حولها لم تبدأ إلا في عام 1921م عندما قام ثلاثة من علماء جامعة (جروونجن) بسلسلة طويلة من التجارب والمشاهدات انتهت بإصدار تقرير كبير اقتنع به عدد من العلماء..

ورفضته الغالبية العظمى منهم..

وهذا أمر معتاد في دنيا العلم..

ومن العجيب أن تلك الظاهرة تذهب بالعلماء دائماً إلى طرفي نقيض؛ فإما أن يؤيدها البعض في حماس أو يرفضها البعض الآخر في عنادٍ وإصرارٍ يتجاوز حتى المنطق العلمي أحياناً..

ولعلّ من أعظم مؤيديها العالم البريطاني (جوزيف سينل) الذي قضى القسم الأعظم من حياته في محاولة إثبات وجود هذه الظاهرة المدهشة التي كانت وما زالت تخلب الألباب..

وعن لسانه يصف (سينل) تلك الظاهرة بقوله: «إنها تشبه عملية الاتصالات اللاسلكية المعروفة؛ فالعقل البشري يُموج بالإشارات الكهربائية التي تنتقل دوماً بين المخ والأعصاب، وتربطه بأعضاء الجسم، وعندما تبلغ هذه الإشارات حدّاً مناسباً يمكنها أن تنتقل دون الحاجة إلى الأسلاك (الأعصاب) فتسافر من عقل إلى عقل»..

أما أشهر العلماء في هذا المجال وهو (ج.ب. راين) فيقول: «الأمر عبارة عن نوع من الشفافية الروحانية التي تتيح للروح الالتقاء بالأرواح الأخرى واستنطاقها عما يدور في أجساد وعقول أصحابها»..

ولكن الرأي الأخير يبدو فلسفياً أكثر مما يبدو علمياً أو منهجياً، ولهذا السبب رفضه كل العلماء تقريباً، على الرغم من أن (راين) هو صاحب أول تجارب مدروسة لفحص الظاهرة؛ فلقد ابتكر عام 1934 في جامعة (ديوك) أسلوباً جديداً يُعرَف باسم (اختبار أوراق اللعب) وفيه يحاول الشخص

المفترض اكتسابه للقدرة على التخاطر العقلي استنتاج ترتيب خمس أوراق لعب مختلفة يتم ترتيبها عشوائياً..

وقد يبدو هذا الاختبار هيناً، ولكنه ليس كذلك في الواقع؛ فاحتمال استنتاج موضع ورقة واحدة أو تخمينه هو واحدٌ إلى خمسة ( )، أما احتمال استنتاج موضع الأوراق الخمسة هو واحد إلى ثلاثة آلاف ومائة وخمس وعشرين ( ) وهذا يجعل التخمين مستحيلاً بالطبع.

ولعلّ من أكثر ما يؤيد وجود هذه الظاهرة رجل يحفظ كل دارسي الظواهر فوق النفسية اسمه عن ظهر قلب..

رجل هولندي يدعى (بيتر هيركوس)..

ولهذا قصة أخرى..

\*\*\*

في عام 1911م وُلِدَ الهولندي (بيتر هيركوس) وظلّ يحيا كشاب عادي حتى انقلبت حياته رأسه على عقب فجأة في عام 1941م.

في ذلك العام كان (بيتر) يعاون والده في طلاء بناء من أربعة طوابق عندما زلت قدمه وسقط من الطابق الرابع، وتم نقله إلى المستشفى في سرعة في العاشر من يوليو 1941م؛ حيث تم إسعافه وقدر له أن ينجو، وأن يغادر المستشفى في الخامس من أغسطس من العام نفسه..

ولكن شتان ما بين الدخول والخروج..

لقد كشف (بيتر) وهو يرقد على فراشه في المستشفى أنه قد اكتسب خاصية عجيبة وهي أنه ما إن يمس شيئاً.. أي شيء.. حتى تندفع إلى رأسه كل المشاهد والأصوات والأحداث التي عايشها هذا الشيء.. جماداً كان أو حيواناً أو نباتاً..

وكاد المسكين يُصاب بالجنون في البداية..

بل لقد تصور أنه قد أُصيب به بالفعل..

ثم اتضحت له حقيقة موهبته الجديدة شيئاً فشيئاً..

والعجيب في ظاهرة (هيركوس) أنه ولأول مرة في التاريخ اعترفت إدارة (إسكوتلانديارد) بموهبة شخصٍ يحوز صفة فوق طبيعية بل استدعت (بيتر هيركوس) إلى إنجلترا) عام 1951م؛ حيث

عاون مفتشيها على حل غموض اختفاء الماسة الشهيرة (سكون)، وبعدها استعانت به عدة هيئات بوليسية أوروبية وحقق في كل مرة انتصاراً مبهراً..

وعلى الرغم من هذا لم يحظَ (بيتر) باعتراف أو تأييد الأوساط العلمية، ولم يحاول عالم واحد ممن أنكروا موهبته اختبار وجود هذه الموهبة بأية وسيلة حتى إن الصحفية (نورما - لي - براوننج) التي كانت من أشد المؤيدين لـ (بيتر) قد علقت على هذا بقولها: «لقد خسروا فرصة مثالية لفحص ظاهرة غامضة»..

وهي على حقّ في قولها هذا؛ فربما أدى فحص (بيتر هيركوس) إلى إمطة اللثام عن تلك الظاهرة..

ولكن يبدو أن البعض يخشى إمطة هذا اللثام..

وهذا أيضاً صحيح..

إن الرافضين لوجود هذه الظاهرة يقولون: إنه لو صح وجودها فسيغني هذا أن الأسوار التي تحيط بالعقل قد تهاوت، وأنه لم يعد هناك مكان آمن لحفظ أي أسرار مهما بلغت خطورتها؛ فالقاعدة الأولى في عالم المخبرات مثلاً تحظر الاحتفاظ بمعلومات مكتوبة وتصر على ضرورة حفظها عن ظهر قلب بافتراض أن العقل البشري هو الحصن الحصين الذي يستحيل اختراقه أو نسيانه داخل درج مغلق أو فوق مائدة القمار؛ وعلى الرغم من ذلك فمن يمتلك القدرة على قراءة الأفكار سيغير أسوار العقل في يسر وسهولة، ودون أن يقا تل العمالقة مثل (جيمس بوند) أو يحتال ويتخابث مثل (أرسين لوبين).

بل قد يتماذى أصحاب هذه المقدرة الفذة فيفتتحون مكاتب خاصة على غرار مكاتب البوليس الخاص يعلقون على أبوابها لافتة تقول: «هنا أسرار للبيع»..

قد تبدو الصورة خيالية على الورق، ولكنها ليست كذلك في نظر العديد من العلماء وأجهزة مخبرات الشرق والغرب، بل إنهم يولونها اهتماماً بالغاً وينكبون على دراستها في سرية ودقة حتى إننا نجد في المخبرات الأمريكية والسوفيتية ما يُعرّف باسم (الاستخبارات فوق النفسية)..

ولعل القارئ يتصور الآن أننا لو استبعدنا الفريق الرافض من العلماء فسيتبقى أمامنا المؤيدون للظاهرة فحسب.

ولكن هذا غير صحيح..

الواقع أنه ما من عالم - في الكرة الأرضية كلها - يمكنه أن يجزم أو ينفي وجود هذه الظاهرة بصفة قاطعة فبعد استبعاد الرافضين لوجودها سينقسم الباقون إلى قسم أعظم يقف على الحياد غير مؤيد أو

معارض أو هو ينتظر ما سيتوصل إليه الآخرون وقسم صغير يميل إلى الإيمان بوجود الظاهرة، ولكنه يلقي سؤالاً أكثر أهمية وهو يقلب بين يديه نموذجاً صغيراً للمخ البشري..

من أين تتبع هذه الظاهرة؟

فعلى الرغم من التقدم الطبي والتكنولوجي والتقني الذي توصل إليه العالم في هذه السنوات الأخيرة من القرن العشرين، إلا أن أجزاءً كبيرة من المخ البشري ما زالت غامضة تماماً، وما زال ذلك العضو الرخوي البيضاوي الذي يبلغ وزنه التقريبي في الرجل حوالي رطلين وعشرة أوقيات (أي ما يساوي من وزن الجسم تقريباً) يثير حيرة أعلم العلماء..

إذ إن المخ يتكون (تشريحيًا) من نصفين أيمن وأيسر يشتركان معاً لصنع الفص الأمامي والفص الخلفي، ثم يحوز كل منهما فصاً جدارياً وآخر صدغيًا، في حين يلتقيان من الخلف عند المخيخ والجسم الصنوبري الصغير..

ولقد درس العلماء كل خلية من خلايا هذا المخ وعرفوا وظيفة كل جزء فيه فيما عدا منطقتين توقّف أمامهما الجميع في حيرة وهما الجسم الصنوبري، والفص الأمامي فتوصلوا إلى جزء ضئيل من وظائف الأول، وعجزوا تمامًا عن فهم وظيفة الثاني (مع الإيمان التام بأن الله - سبحانه وتعالى - لم يخلق شيئاً عبثاً)..

ومع كشف تلك القدرات فوق العقلية عاد سؤال خطير يطرح نفسه..

هل الفص الأمامي هو محطة الإرسال والاستقبال التخاطري؟

ولم يأتِ الجواب بعد..

ولن يأتني؛ لأن إثبات ظاهرة فوق نفسية مثل التخاطر العقلي كان وسيظل عسيرًا؛ لأن العلماء سيعجزون دومًا عن إمساكها بأيديهم وتقليبها ووضعها تحت المجهر وتصويرها وتكبيرها و... و...، وإلى أن يأتي ذلك اليوم (المستحيل) سنظل نردد قول أحد كبار العلماء المؤمنين بوجود الظاهرة:

«ينبغي أن يتوقف العلم عن محاولاته الدائبة لإثبات وجود هذه الظواهر ويحصر جهوده في بحث كيفية الإفادة منها حتى لا نكون كمن يقضي عمره كله في محاولة إثبات كونه حيًّا ثم تنقضي حياته دون أن يصنع فيها شيئاً واحدًا..»

وإلى أن تحظى ظاهرة (التليباتي) بالاعتراف، لن يتوقف العلماء عندها طويلاً؛ فما زالت أمامهم ألغاز بلا حدود تكمن داخل فص المخ..

وللحديث بقية.

\*\*\*

المخابرات السوفيتية كانت أول من أقر بوجود القوى فوق العقلية سواء أكانت تتبع من الفص الأمامي للمخ أو من غيره..

كان كل ما يكفيها هو أن أمخاخ أولئك الذين يتمتعون بقوى فوق عقلية تتضاعف إشاراتهما في حالات التجلي..

ثم إنه لديهم ما يعرف باسم (مشاهدات الأمومة)..

فقبل حتى الخوض في احتمالية وجود قوى فوق عقلية، لاحظ العلماء وجود رابطة عجيبة بين الأم وأطفالها؛ فقد تكون غارقة في نوم عميق ثم تهب منه فجأة دون أي مبرر وتهرع إلى حجرة طفلها المجاورة لتجد أنه يكاد يختنق بوسادة مهده دون أن يصدر عنه أدنى صوت!

وفي واحدة من الحالات المسجلة قطعت أم أمريكية مائة ميل بعد منتصف الليل لتتفقد ابنتها التي تقضي فترتها الجامعية في ولاية أخرى، ووصلت لتجدها محمولة مريضة. وبعد أن تعافت أبدت دهشتها البالغة مما فعلته أمها مؤكدة أنها خلال مرضها تمننت لو أن الأم إلى جوارها!

وعبر مائة ميل؛ أي ما يزيد عن مائة وستين كيلومترا تلقت الأم الرسالة..

وأنت..

كانت تلك القصة وغيرها كافية لتبدأ المخابرات السوفيتية أبحاثاً طويلة مكثفة حول القدرات فوق العقلية وإمكانية الاستفادة منها في أعمال التخابر، مثل قراءة أفكار الخصم وسبر أغواره وتحديد قراراته ونواياه مسبقاً.

ومن أجل هذا الغرض أنشأت المخابرات السوفيتية في أواخر الخمسينيات فرعاً خاصاً عُرفَ باسم (الاستخبارات فوق النفسية)..

وعلى الرغم من أن السوفييت قد أحاطوا فرع مخابراتهم الجديد هذا بستار حديدي سميك وبذلوا جهداً هائلاً لإخفاء نتائج أبحاثهم فيه؛ فقد كشف الأمريكيون أمره في منتصف الستينيات..

في البداية سخروا من الفكرة كلها، واعتبروها مجرد تخاريف سوفيتية سخيفة، حتى أجروا تجربة واحدة قلبت موازينهم كلها رأساً على عقب..

لقد فصلوا أنثى أرنب عن صغارها ووضعوها في غواصة على بُعد ستين كيلومتر من الشاطئ وعمق كيلومتر واحد تحت سطح الماء..

ثم بدأوا في ذبحهم واحدًا بعد الآخر..

وسجل علماءهم نتائج مذهلة..

ففي كل مرة يتم فيها ذبح أحد الصغار كانت الأرنبة تصاب بحالة من التوتر العصبي الشديد، كما لو أنها تشعر بما يعاينيه صغارها عبر كل تلك المسافة..

ومع ذهولهم كرّر العلماء التجربة مرة ثانية وثالثة.. ورابعة..

وفي كل مرة كانت النتائج واحدة..

هناك اتصال عقلي فائق مؤكد بين الأم وأبنائها..

وبين بعض البشر وبعضهم أيضًا..

وهكذا أنشأ الأمريكيون بدورهم فرع المخبرات فوق النفسية في مخبراتهم..

واتخذت حرب الجاسوسية مسارًا جديدًا..

ومدهشًا..

والواقع أن دخول المخبرات إلى المضمار أدى إلى تسارع تجارب القوى فوق النفسية على نحو ملحوظ باعتبارها قد أصبحت سلاحًا حربيًا جديدًا يسعى كل طرف إلى التفوق فيه والفوز بسباقه..

وهنا فقط بدأت تظهر نتائج واضحة ومسجلة للأمر..

فلأول مرة يربط العلماء بالفعل بين نشاط الفص الأمامي للمخ والقدرات فوق العقلية بوساطة الدقة البالغة التي تقفّر إليها الحسابات البشرية وتتفوق فيها أجهزة الكمبيوتر..

ولأول مرة يلاحظون أن أصحاب القدرات فوق العقلية يتميزون بزيادة طفيفة في حجم فصوصهم الأمامية..

ولأول مرة أيضًا توضع قاعدة للاتصالات العقلية الفائقة التي تُعرَف باسم (التليباتي)..

فكل حالة من الاتصال العقلي الفائق تحتاج إلى طرفين مؤهلين مرسل.. ومستقبل..

ولكي ينجح الاتصال الفائق لا بُدَّ من وضع المرسل والمستقبل في الحالة المطلوبة لتحقيق شرط الاتصال؛ إذ لا بُدَّ وأن يكون المرسل في حالة توتر أو لهفة لإتمام الاتصال والمستقبل في حالة

استرخاء تام..

هذا لأن الأمر يعتمد عضوياً على هرمونين أساسيين في الجسم البشري..

الأدرينالين وهو هرمون يتم إنتاجه في نخاع الغدة الكظرية ويفرز في حالات التوتر والانفعال ليزيد من ضغط الدم وسرعة النبض وقوة انقباض العضلات..

والكولين استراز وهو هرمون ذو تأثير معاكس تمامًا لتأثير الأدرينالين يعمل على خفض الضغط وسرعة النبض وإرخاء العضلات..

المرسل لا بُدَّ وأن يكون في حالة استنفار (أدرينيرجيا)..

والمستقبل في حالة استرخاء (كولينيرجيا)..

هنا فقط يحدث الاتصال العقلي الفائق وهو ما يفسر حالات الاتصال الأمومي عندما يعاني الأطفال من خطر ما فيندفع الأدرينالين في دمائهم، وتكون الأم نائمة أو مسترخية وهو ما ثبت في كل حالات الاتصال الأمومي الفائق..

وبينما يسجل العلماء تجاربهم هذه ويرصدون مستويات الأدرينالين والكولين في الدم، قفز أحدهم إلى كشف جديد مذهش..

كشفت وثبت بالتجارب العقلية إلى آفاق جديدة..

آفاق بلا حدود.

\*\*\*

المخ يصدر موجات «جاما» عندما يعمل..

العبرة السابقة على بساطتها كانت فتحًا كبيرًا في عالم الدراسات فوق العقلية؛ إذ إنها تشير -وللمرة الأولى- إلى أن المخ البشري يصدر طاقة ما يمكن قياسها وحسابها..

ومع أجهزة القياس المتوفرة في زمن الكشف، صار من الممكن أن يرصد العلماء كل تغيير في انبعاث أشعة «جاما» من المخ مع نشاطاته المختلفة..

ومع مرور الزمن تطوّرت أجهزة القياس، وتطوّرت معها وسائل الفحص والتقييم..

فالمخ يبعث موجات جاما في حالة الغضب تختلف عما يبعثه في حالة الفرح أو الخوف أو حتى التفكير العميق، وهذا يعني أن قياس موجات جاما المنبعثة من المخ يمكنه أن يحدد مشاعر صاحب هذا المخ حتى ولو لم يفصح عنها..

ولفترة طويلة تم التعامل مع الأمر من هذا المنظور، حتى كان أحد المؤتمرات في عام 1988م، عندما قال أحد الخطباء دون أن يعني سوى التعبير البليغ: إن هذا أشبه بقراءة الأفكار..

والتقط أحد العلماء العبارة وعاد إلى معمله وأغلقه خلفه وراح يدرس العبارة ويفكر فيها طويلاً..

طويلاً جداً..

فلو أن موجات جاما تتغير بالفعل مع تغيُّر المشاعر والأحاسيس؛ فلماذا لا يتم رصدها؛ لقراءة أفكار الآخرين بالفعل..

ومن هنا ومع أجهزة القياس المحدودة، وضع ذلك العالم فرضية جديدة تقول: إن عملية قراءة الأفكار أو الاتصال العقلي الفائق (التليباتي) ما هي إلا موهبة عند البعض لرصد موجات جاما التي تطلقها عقول الآخرين..

ولكن فرضيته هذه لم تلق رواجاً كبيراً؛ نظراً لأن حالات الاتصال العقلي الفائق كانت تحدث في كثير من الأحيان بين أناس تفصلهم مئات الكيلومترات والأميال..

إلا أنها كانت بداية لعصر جديد من عصور الدراسات العقلية وفوق العقلية..

فلعدة سنوات تالية راح فريق من العلماء يدرس موجات جاما التي يبثها المخ في حالاته المختلفة وطرق الاستفادة منها..

في ذلك الحين كان التطور العسكري يبلغ مراحل كبيرة وسرعة الطائرات المقاتلة تتزايد..

وتتزايد..

وتتزايد..

ومع تضاعف السرعة التي بلغت سرعة الصوت (340 م/ثانية)، أصبحت أكبر مشكلة هي رفع سرعة استجابة الطيارين بحيث يمكنهم رصد الهدف والتصويب عليه وإصابته وهم ينطلقون بهذه السرعة الكبيرة..

وكانت المشكلة تكمن فيما يعرف باسم (المعادلة العصبية)..

وتلك المعادلة العصبية هي الفترة التي يحتاجها المخ البشري الطبيعي لإدراك ما يواجهه واتخاذ رد الفعل المناسب للتعامل معه وهي تختلف من شخص إلى آخر ويمكن تنميتها بالتدريب والمران المستمر..

وإلى حد ما ومن خلال تدريبات شاقة وعنيفة تمكّن الطيارون من ضبط سرعة استجاباتهم؛ لتتوافق مع سرعة طائراتهم..

ولكن الطائرات تطورت أكثر وتضاعفت سرعتها فأصبحت ضعفي سرعة الصوت، ثم لم تلبث أن فاقت هذه السرعة إلى حدّ لم يعد من الممكن أو المنطقي رفع سرعات الاستجابة إليه مهما بذل الطيارون من جهد..

أو من عمر..

وعندئذ كان لا بُدّ من التفكير في وسيلة جديدة تتيح الرصد والتصويب والإصابة في هذه السرعة الرهيبة..

وهنا برزت فكرة أشعة جاما المنبعثة من المخ..

وطوال ما يقرب من عام كامل وباعتمادات مالية ضخمة وإمكانيات متاحة غير محدودة تمكّن العلماء من تحديد أطوال موجات جاما التي تنبعث من المخ البشري في حالات الرصد والتسديد والإصابة وبدقة متناهية جعلتهم قادرين على صنع أول جهاز توجيه يختصر المعادلة العصبية إلى أقصى حد ممكن..

خوذة جاما..

خوذة توضع على الرأس وتسجل انطباعات وردود أفعال الطيار عندما يرصد هدفًا ما لتنتقل الفكرة من مخه إلى أجهزة إطلاق النار مباشرة..

بمعنى أكثر وضوحًا: يرى الطيار الهدف، ويقرّر إصابته، ويُصدر عقله موجات جاما التي تتفق مع هذه الرغبة فتنتقلها الخوذة إلى أجهزة الإطلاق مباشرة دون المرور بالمسار الطبيعي الذي كان ينقلها إلى اليد فتستجيب بالضغط على زر الإطلاق..

ونجحت الفكرة نجاحًا ساحقًا..

سرعة الاستجابة العقلية عبر خوذة جاما كانت تفوق سرعة الاستجابة الجسدية بخمس مرات على الأقل..

وهكذا تحوّل العقل ولأوّل مرة عمليًا إلى سلاح حربي خطير..

خطير للغاية..

ودفع هذا العلماء إلى إجراء تجارب أكثر وأكثر على خوذة جاما باعتبار أن وسائل استغلالها ما زالت كثيرة.. كثيرة للغاية..

وعلى الرغم من اعتبارها سلاحًا حربيًا سرّيًا فوجئ قادة القوات الجوية الأمريكية ذات يوم بإعلان كبيرٍ عن بيع خوذة جاما في الصفحة الأولى من أكبر صحفهم وأوسعها انتشارًا و..

وكانت كارثة..

\*\*\*

ذات صباح في أواخر الثمانينيات تصدّر إعلان كبير الصفحة الأولى لكبرى الصحف الأمريكية حاملًا اسم شركة ألعاب كمبيوتر شهيرة تبشر زبائنها بابتكار وسيلة توجيه جديدة لألعاب المستقبل..

ومع العبارات الأنيقة كانت هناك صورة خوذة..

خوذة (جاما)..

لم تكن على نفس الهيئة التي ابتكرها عليها علماء الجيش والقوات الجوية الأمريكية، إلا أنها كانت تعتمد على النظرية نفسها..

تحديد رد فعل اللاعب عبر انبعاثات موجات (جاما) من مخه ونقلها مباشرة إلى أجهزة التصويب..

ومع التطور الجديد أكّدت الشركة المنتجة أن هذا يمنحها فرصة مضاعفة سرعة ألعابها إلى حد يتجاوز قدرات البشر العاديين، ولكنه يمنح متعة لا حدود لها لمن يرتدي الخوذة الجديدة..

وفور ظهور الإعلان في الصحيفة تم حجز أكثر من عشرة آلاف خوذة من الشركة المنتجة وموزعها خلال ساعة واحدة..

وفي الساعة التالية كان رجال مخابرات الجيش الأمريكي يملأون مقر الشركة ويحتلون مكاتبها ويستجوبون رئيس مجلس إدارتها حول كيفية حصوله على هذا السر الخطير..

ولكن إجابة رئيس مجلس الإدارة كانت أخطر بكثير..

فالرجل أكّد بالأوراق والوثائق والسجلات أن علماء شركته هم الذين ابتكروا الفكرة وصنعوا الخوذة..

وأسقط في يد خبراء الجيش الأمريكي..

فمن أعظم سمات العلم أنه ليس حكرًا على أحد..

وأن الفكرة الواحدة يمكن أن تقفز إلى ألف عقل وعقل..

ولأن الشركة سجلت اختراعها وحصلت على حق إنتاجه وتوزيعه لم يملك الجيش الأمريكي منعها وإنما اضطر إلى توقيع عقد احتكار معها يجعله المشتري الوحيد لكل ما كانت تتضمنه خطتها من إنتاج تلك الخوذة العجيبة..

ولأن الخوذة قد انتشرت بين عشرة آلاف مستهلك، كان لا بُدَّ من العمل على تطويرها بسرعة بحيث يحو الجيل الثاني منها كل امتياز يمكن أن يمنحه الجيل الأوّل لمستخدميه..

ثم إن سلسلة العلم قد اتصلت عبر قنوات أخرى عديدة..

ابتكار الكمبيوتر الشخصي مثلاً وتطوراته السريعة المتلاحقة والقدرة على تصغيره ودمجه ساعدت كلها على تطوير وسائل قياس ورصد موجّهات (جاما)؛ للوصول بها إلى أقصى قدرٍ ممكن من الدقة..

وهكذا أصبح من الممكن رصد أدق التغيرات في المشاعر البشرية عبر رصد موجات (جاما) التي تتبع من المخ أثناءها..

وهنا أصبح الخيال ممكناً..

العلماء يعملون الآن على قدم وساق لتحويل الجيل الرابع لخوذة (جاما) في القرن الحادي والعشرين إلى آلة لقراءة الأفكار بالفعل..

والمدهش أنه هناك نموذج أولي بالفعل لها..

خوذة (جاما) يرتديها شخصٌ ما لتبث كل تغيير مهما بلغت ضالته من مخه إلى جهاز رصد مباشرة..

ولا سلكياً..

وبمعاونة فريق من الخبراء يمكن رصد تلك التغيرات الموجية عبر خطوط ومنحنيات يمكن للمتخصّص قراءتها وتحديد معانيها..

باختصار: يمكنه قراءة أفكار مرتديها..

وهذا ليس قمة التطور في هذا المضمار؛ إذ يعمل العلماء الآن على عملية مزدوجة عبر استخدام خوذتي (جاما) إحداها للبحث، والأخرى للاستقبال بحيث ترسل إحداها أفكار مرتديها إلى عقل الآخر فيشعر بنفس المشاعر وكأنه يقرأ أفكار صاحبه..

والأمر لن يقتصر على هذا؛ فالموجات التي تطلقها عقول أصحاب القدرات فوق العقلية يجري الآن رصدها وبرمجتها في خوذات (جاما) من الجيل الخامس؛ بحيث يمكن أن يرتديها شخص عادي فيمتلك القدرة على التخاطر (التليباثي) أو تحريك الأشياء عن بُعد (سيكوكينيزيس) أو غيرها..

وهكذا تقفز خوذات (جاما) بالبشر من العقل إلى ما فوق العقل.. بل وربما تغوص في أعماقهم أيضًا..

فمطورو الجيل الخامس يؤكدون أنهم في غضون أعوام قليلة سيتمكنهم بوساطتها اختراق عالم الأحلام..

ليس مجازيًا ولكن فعليًا..

..و

ولهذا رواية أخرى..

\*\*\*

العلماء لم يدركوا أبدًا من أين تتبع الأحلام..

ولكنهم سجلوا موجاتها..

سجلوا كل ما يبعثه العقل البشري من موجات (جاما) قبل وأثناء وبعد الأحلام..

ولأن الإنسان يستيقظ في الصباح وهو لا يذكر أكثر من خمسة في المائة مما مرَّ بعقله من أحلام طيلة ليله؛ فقد ابتكر العلماء وسيلة دقيقة تعمل على إيقاظ النائم فور الانتهاء من أحد أحلامه عبر رصد حركة جفنيه، وبهذا يتسنى له أن يذكر حلمه..

أو معظمه على الأقل..

وبهذه الوسيلة تمكّن العلماء من تحديد طبيعة الموجات التي يبثها المخ مع الأحلام السعيدة والحزينة..

وحتى الكوابيس..

ومع تطوّر وسائل القياس وأجهزة الكمبيوتر أصبح من الممكن رصد وتسجيل كل هذا بدقة..

بل بمنتهى الدقة..

وعلى الجانب الآخر كان فريقٌ آخر من العلماء قد سجّل وبرمج كل انبعاثات المخ الخاصة بمشاعره المختلفة..

وهكذا وبعد مؤتمر علمي لتبادل الأفكار والمعلومات نشأت تلك الفكرة الجديدة..

لماذا لا يتم زرع الأحلام؟!!

كانت هناك محاولة سابقة لزرع الأفكار في رأس شخص ما باستخدام خوذة (جاما)، إلا أن تلك المحاولة باءت بالفشل؛ بسبب الإرادة البشرية التي تصدّت للأفكار الدخيلة..

هذا بالنسبة لشخص متيقظ..

ولكن ماذا عن النائم؟!!

هل يمكن برمجة مخه المسترخي بحُلمٍ خاصٍ جدًّا..

حلم سعيد أو حزين..

حلم عن رحلة في الفضاء مثلاً..

أو عن مغامرة مثيرة..

أو قصة حب ساخنة..

من الناحية النظرية بدا هذا ممكناً جدًّا وقابلاً للحدوث..

بل وللتطوير أيضاً..

ولقد تمادى أحد رجال الأعمال فافترض أن المستقبل سيكون زرع كل أنواع الأحلام في رأس النائم، ورأى في هذا مشروعاً استثمارياً ضخماً فسارع بتسجيل الفكرة..

وهكذا في عام 2005م أصبح هناك بالفعل مشروع لزرع الأحلام..

ومشروع يعني استثمارات وتمويل ومزيد من التجارب؛ للتوصّل إلى فكرة تتجاوز كل الأحلام..

و الواقع أن التجارب الأولية قد حققت نتائج ملحوظة..

صحيح أنها ليست النتائج المنشودة الكفيلة بإنجاح مشروع كهذا، إلا أنها بداية جيدة..

والعلم دومًا يسعى خلف البداية..

خلف كسر الحاجز..

ولقد كسر العلماء بالفعل حاجز عالم الأحلام السري الغامض والخاص جدًا جدًا..

وبقي أن يفهموه ويدرسوه ويتفوقوا عليه و..

ويزرعوه..

وبقدر ما يبدو عليه هذا من إيهار؛ فقد رآه العديد من العلماء نوعًا من العبث لا طائل من ورائه..

فبم يفيد زرع الأحلام في رؤوس النائمين؟!!

ماذا يستفيد العالم من شخص يصحو من حلم مبهج؟!!

وهذا الفريق يحارب الفكرة بشدة، ويطالب بتطوير خوزة (جاما)؛ لاستخدامها فيما يفيد البشر كافة وليس المرفهين وحدهم..

ولكن الفريق المعارض كان له رأيٌ آخر..

فزرع الأحلام ليس وسيلة للرفاهية فحسب..

إنه أيضًا علاج..

علاجٌ شافٍ من العديد من الأمراض النفسية وعلى رأسها حالات الخوف المرضي المبالغ فيها أو ما يطلق عليه العلم اسم (الفوبيا) و..

ولهذا حديث آخر..

مستقل.

\*\*\*

## فوبيا

مَن مَنَّا يمكن أن يدّعي وبصدق أنه شخص بلا مخاوف؟!!

علماء النفس يؤكدون أنه حتى أشجع وأقوى الرجال لا يمكنه أن يدّعي هذا، ولو فعلها؛ فهو كاذب حتمًا، وهم يتحدونه أن يجتاز بقوله هذا اختبار جهاز كشف الكذب بنجاح!

هذا لأن ما من مخلوق حي بلا مخاوف..

ففي أعماق أعماق كلِّ مَنَّا هناك حتمًا خوفٌ ما من شيءٍ ما يحتل مساحة ما من عقولنا أو قلوبنا أو أي مكان آخر من أجسادنا..

خوفٌ سجلته عقولنا الباطنة في لحظة ما ربما لا تبتعد كثيرًا عن لحظة مولدنا واختزنته وأخفته في بقعة مظلمة لا تُضاء إلا بعامل مساعد أو فعل شرطي منعكس وعندئذ فقط تسترجع العقول الخفية ذلك الموقف القديم وتستعيده وتطلقه في العقل الواعي و..

ونخاف..

ومخاوف البشر لا حصر لها؛ إذ إنها ترتبط بأي شيء وكل شيء، ويمكن في بعض الأحيان أن تكمن في لحظات أو أشياء لا يمكن أن تثير ذرة واحدة من الخوف في نفس أي مخلوق طبيعي كملعقة فضية مثلًا أو نوع بعينه من السجائر أو دقائق الساعة أو أي أمر آخر..

وهذا هو العامل المساعد الذي يضيء تلك البقعة المظلمة في أعماق أعماقنا ليفجّر خوفنا ورعبنا وفزعنا وهلعنا، وكل تلك المشاعر التي تطلق عليها القواميس الطبية والعلمية اسم (الفوبيا)..

و(فوبيا) هو مصطلح لاتيني يعني الخوف من شيءٍ ما، ويمكن ربطه بكل أنواع المخاوف المعتادة وغير المعتادة أيضًا، وعندما يحدث هذا؛ فنحن نشير إلى نوعٍ خاص من الخوف..

النوع المرضي.. جدًّا..

فالخوف من الأماكن المظلمة أو المغلقة هو أمرٌ طبيعيٌّ عند الكثير من الناس، ولكنه عند البعض الآخر يتحوّل إلى (فوبيا) أو خوف مرضي عندما يواجه هؤلاء البعض الموقف بارتعاشات عنيفة وعرق غزير وأعراض قد تبلغ حد التخشب أو الغيبوبة التامة أو حتى الموت في حالات نادرة ومحدودة..

ومن أشهر تلك المخاوف التي يعرفها ملايين البشر الخوف من رؤية الدم ذلك السائل الحيوي الذي يجري في عروقنا وتخفق به قلوبنا وينقي الهواء في رئتينا مع عشرات الوظائف الأخرى..

وارتباط الإنسان بالدم ارتباط عجيب للغاية؛ فهو يعشقه عندما يجري في عروقه ويورّد وجنيته ويملأ قلبه ويعلن حيويته وقوته ونشاطه، بل ويسعى دومًا إلى أية أطعمة أو مشروبات يُقال عنها إنها قادرة على تقويته وتنشيطه ودفعه أكثر وأكثر في أوعيته الدموية وخلاياه الحية وحتى نصف الحية..

أما لو تدفّق هذا الدم خارج جسده أو حتى خارج أجساد الآخرين فهي الطامة الكبرى والكارثة والمصيبة ومصدر الرعب والهلع و..

و(الفوبيا) أيضًا في بعض الأحيان..

فالعديد من البشر لا يمكنهم رؤية الدم البشري أو حتى الحيواني دون أن ترتجف أجسادهم وترتعد خلاياهم وتسري في كيانهم قشعريرة باردة كالتلج وتتسع عيونهم في هلع..

وبعض البشر قد يصرخ لمرأى الدم أو يفقد الوعي أو تنتابه الكوابيس لأسابيع طويلة وكأنما رأى وحشًا كاسرًا..

هذا لأن الدم يرتبط في أذهاننا جميعًا بالحياة، وفقدانه يعني دومًا الموت والفناء، وعندما يرى المصابون بهذه (الفوبيا) الدماء، تقفز أذهانهم فورًا إلى تصوّر الموت..

موتهم هم بالطبع..

ولأن كل المخلوقات الحية تخشى الموت؛ فإن عقولهم الباطنة تدفع في عقولهم الواعية كل المخاوف المختزنة فيها فيبلغ رعبهم ذلك الحد المرضي العنيف للغاية..

ولا بُدَّ وأن نستثني هنا الجراحين، والجزارين، وعمال وموظفي بنوك الدم، وكل من يحتم عليه عمله رؤية الدم طوال الوقت..

ولكن حتى هؤلاء تبقى في أعماقهم لمحة من خوف الدم..

وهذا ما أدركه كتّاب الرعب ومخرجو السينما الغربية، عندما أغرقونا بسلسلة من الأفلام حول مصاصي الدماء الذين ينشطون ليلاً ويرقدون في أعماق توابعهم نهارًا وينفضون دومًا على الأوردة العنقية لضحاياهم ليغرزوا فيها أنيابهم باعتبارها من أكبر وأغزر موارد الدم، ويمتصون الدماء في شراهة ونهم حتى تموت الضحية التي لا تلبث أن تعود إلى الحياة بعدها في هيئة مصاص دماء جديد وهكذا..

والطريف أن كل هذه الأفلام السينمائية قد بنيت على أحداث تلك الرواية الشهيرة (دراكيولا) للروائي البريطاني (برام ستوكر) والتي استوحاها بدوره من سيرة الأمير الروماني (فلاد يتيبس)

والذي سفك دماء آلاف من المحتلين وعُرفَ باسم (مصاص الدماء) وذلك خلال فترة حكمه ما بين عامي 1456 و1462م..

وعندما كتب (ستوكر) روايته عام 1897م لم يكن علم النفس قد تطوّر إلى الحد الذي يكفي لتحديد مخاوف الناس بشكلٍ علمي إلا أنه كان يدرك على نحوٍ فطري تمامًا أن ذكر الدم يثير الرعب في النفوس..

كل النفوس..

ولكن الذي ينبغي أن يثير مخاوفنا أكثر هو أن الحالة التي تحدّث عنها (ستوكر)، والتي أصبحت شهيرة ومعروفة في الأدب والسينما لم تعد مجرد خيال محض، وإنما كشف العلم أن مصاصي الدماء حقيقة..

حقيقة طبية معروفة ومسجلة في عدد كبير من المراجع والكتب!

فمن بين عناصر الدم توجد مادة اسمها (البروفيرين) وهي ضرورية لتكوين وتثبيت مادة (الهيموجلوبين) اللازمة لصلاحية الدم كمادة لنقل الغذاء والأكسجين إلى خلايا الجسم، وفي بعض الحالات النادرة يحدث نقص شديد في هذه المادة ما يؤدي إلى الإصابة بمرض غاية في الندرة من أمراض الدم يسمى (البروفيريا)..

والمدّهِش أن المصابين بهذا المرض لهم وجوه شاحبة أشبه بوجوه الموتى وتطول أنيابهم على نحوٍ واضح، كما تكون لديهم حساسية مفرطة لضوء الشمس ولديهم احتياج دائم للدم لتعويض النقص الشديد في (الهيموجلوبين) في أجسادهم..

وفي عام 1985م كشف طبيب أمريكي ثلاث حالات مصابة بمرض (البروفيريا) في عائلة واحدة؛ فأعلن عن المرض، وعن أن مصاصي الدماء قد يكونون حقيقة وليس خيالاً..

ومن الطبيعي أن يثير هذا رعب الناس أكثر وأكثر، وخوفهم الغريزي من رؤية الدماء وبالذات دماءهم هم، إذا ما نزفت من أجسادهم لسبب أو لآخر..

وحالات (الفوبيا) المرضية من الدم لا تعتبر الأعلى بين حالات (الفوبيا) الأخرى، ولكنها أوسع انتشاراً وتواجدًا في معظم الشعوب والجنسيات والديانات..

هذا لأننا جميعًا بشرٌ تجري الدماء في عروقنا..

أو خارجها..

و(فوبيا) الدم هذه ليست كلها من طراز واحد؛ فبعضها يرتبط بالدماء البشرية وحدها عندما تسيل بغزارة أكثر من المعتاد، والبعض الآخر يرتبط بأية دماء نازفة من أي مخلوق حي؛ لذا فأصحابها لا يحتملون رؤية حيوان يذبح أو طائر ينحر..

وفي حالات أخرى لا يحتمل المريض رؤية قطرة واحدة من الدم سواء من بشر أو حيوان أو طير أو حتى حشرة..

ومع حالات أكثر ندرة يصاب المرضى بهلع عنيف إذا ما وقعت أبصارهم على أي شيء بلون الدم، حتى ولو كان قطعة من القماش أو بقعة فوق لوحة تجريدية..

ورد الفعل إزاء تلك (الفوبيا) يختلف في كل حالة عن أخرى، ومع كل مريض عن آخر؛ ففي واحدة من الحالات النادرة أصيب المريض بصدمة عصبية عنيفة مع رؤية بركة من الدم سألت من مصاب في حادثة سير وانتهى به الأمر إلى أن عقله قد استبعد اللون القرمزي الدموي تمامًا من كل شيء في الوجود..

حتى الألوان التي يدخل في تركيبها اللون القرمزي أصبح ذلك المريض يراها خالية منه فاللون البرتقالي تحوّل إلى الأصفر والبنفسجي إلى الأزرق أما الوردي والقرمزي فقد تحوّل إلى اللون الأبيض أو الرمادي..

ولقد احتاج ذلك المريض إلى علاج نفسي طويل قبل أن يتجاوز هذه (الفوبيا) ويعود لرؤية لون الدم مرة أخرى، ولكنه لم يتخلص من (فوبيا) الدم أبدًا على الرغم من المحاولات المتصلة..

ولقد أجريت دراسات عديدة حول (فوبيا) الدم إلا أنها لم تلقَ اهتمامًا على المستوى العام؛ فقد حجبتها تمامًا (فوبيا) أخرى يشترك فيها تسعون في المائة من البشر على الأقل..

(فوبيا) أكثر انتشارًا..

بكثير.

\*\*\*

تخيّل نفسك في مكان ما لا تألفه جيّدًا ثم انقطعت الأضواء كلها فجأة ووجدت نفسك في قلب الظلام..

ظلام دامس رهيب يحيط بك من كل جانب ويرسم في خيالك عشرات الصور والأوهام والمخاوف ويرهف حواسك حتى لتبدو أية حركة بسيطة أشبه بزحف ثعبان سام أو انقضاضة خفاش قاتل أو فحيح عفريت من الجن أو.. أو..

كل هذا سيصنعه عقلك في قلب الظلام الذي سيجعلك ترتجف وترتجف، وربما إلى درجة الرعب..

وهنا تكمن (الفوبيا)..

(فوبيا) الظلام..

و(فوبيا) الظلام هذه هي أكثر أنواع المخاوف المرضية انتشارًا، وتعود أسبابها في نظر معظم علماء النفس الأمريكيين إلى خوف الإنسان الغريزي من المجهول..

أي مجهول..

فمنذ عصور ما قبل التاريخ كان الإنسان يدرك أنه محاط بمخاوف لا حصر لها..

مخاوف من الأعداء والوحوش والحيوانات والحشرات السامة وحتى من الطبيعة نفسها..

ولأنه لم يدرِ أبدًا من أين تأتيه الضربة أصبح يخشى كل من حوله..

وكل ما حوله..

ولأن الظلام غامض ومجهول، ووسائله لا تسمح له بكشف ما يحدث داخله؛ فقد اعتاد الإنسان القديم أن يخشى الظلام ويخافه ويتحاشاه بكل الوسائل الممكنة..

وربما لهذا اخترع الإنسان النار لكي يبدد بوهجها ما يحيط به من ظلام ويخيف أعداءه ويرى طريقه طوال الوقت..

وعلى الرغم من تطوّر العلم ووسائل الإنارة احتفظ الإنسان بخوفه المرضي الموروث من الظلام والمجهول، وكل ما يستغلّق عليه معرفته أو فهمه..

بل ويقول البعض إن تطوّر وسائل الإنارة قد ضاعف من خوف الإنسان الحديث من الظلام؛ فقد اعتاد مع الوقت أن يحيا في أضواء مبهرة تحيط به في كل لحظة وأن يطوّعها ويطوّرها بضغطة زر واحدة فيغيّر من شدتها وتوهّجها وانتشارها..

ولأنه قد اعتاد هذا؛ فما إن يحيط به الظلام حتى ينتابه خوف مرضي عنيف فيضطرب ويتخبّط ويدور حول نفسه، وربما يبلغ مرحلة الرعب العنيف أيضًا..

والواقع أن الحداثة قد أضافت إلى البشر عشرات المخاوف التي ترتبط كلها بالظلام، وخاصة مع موجة أفلام الرعب والأشباح والعمالقة التي ساعدت خياله على أن يتصوّر عشرات الأعداء الوهميين الذين يتحفزون للانقضاض عليه من كل ركن مظلم..

ونحن نساهم كثيرًا في زرع (فوبيا) الظلام في نفوس أبنائنا وبناتنا عندما نروي لهم قصص الجن والعفاريت وغيرها..

الأمر الطريف أن بعض أنواع الحيوانات أيضًا تخشى الظلام، وتسعى دومًا للتواجد في أية بقعة من الضوء ما يوحي بأن هذا الخوف بالذات له أصول في خلايانا وأدمغتنا ونفوسنا كذلك..

والخوف المرضي من الظلام يتشارك مع خوف آخر على نحو متلازم في كثير من الأحياء ومنفصل في أحيانٍ أخرى وهو الخوف من الأماكن المغلقة..

وتلازم الخوف من الظلام مع (فوبيا) الأماكن المغلقة يعود أيضًا إلى خشية الإنسان الشديدة من الموت؛ إذ تبدو له الأماكن المغلقة أشبه بالقبر؛ فإذا ما أضيف إليها الظلام تضاعفت الصورة وتضخمت وبلغت حد الانهيار..

وفي حالات عديدة أصيب أمثال هؤلاء المرضى بجنون مطبق بعد بقائهم لخمس ساعات فقط في أماكن مظلمة مغلقة و97% منهم أصابهم هذا داخل مصاعد معطلة أثناء حالات انقطاع التيار العرضية..

وهلع المصاعد هو الصورة المثلى، والأكثر انتشارًا لمرضى (فوبيا) الأماكن المغلقة؛ فبالنسبة لهذه الفئة يعتبر المصعد مجرد قبر متحرك حتى إنه هناك حالة مسجلة لمواطن أمريكي ظل طيلة عمره يقيم في أدوار منخفضة أو في منازل مستقلة من طابق أو طابقين على الأكثر، وكان يرفض العديد من الوظائف الممتازة على الرغم من كفاءته الشديدة؛ لمجرد أن الشركات التي تلقى عروضها تحتل بعض الطوابق العليا في ناطحات سحاب شاهقة، وعندما قبل أخيرًا عرضًا لشركة (ميكروسوفت) في فرع لها في الطابق الخامس من بناية كبيرة ظل طوال فترة عمله فيها يصعد إلى مكتبه عبر درجات السلم، ولم يستقل المصعد مرة واحدة..

وهناك حالة مسجلة أخرى لمريضة شابة لم تصعد منفردة في أي مصعد قط، حتى إنها كانت تقف إلى جوار أي مصعد لساعات حتى يظهر راكب آخر لتشعر أنها ليست وحدها داخل مصعد مغلق..

وحتى في وجود ركاب آخرين كانت تصاب بحالة عجيبة من التخشب طوال الوقت أثناء صعود أو هبوط المصعد وتتسع عيناها في رعب هائل على نحو يوحي بأنها تخوض أشد لحظاتها صعوبة..

وعلى عكس تلك الحالة تمامًا كانت هناك حالة أخرى لامرأة في منتصف العمر ترفض تمامًا أن تستقل المصعد في وجود آخرين على الرغم من خوفها الشديد من الأماكن المغلقة، ولكنها كانت مصابة بخوف أكثر مرضية من الغرباء..

أي غرباء..

والخوف من الظلام والأماكن المغلقة يقود إلى خوفٍ آخرٍ مشابهٍ أو متلازمٍ أو ينتمي إلى المجموعة نفسها..

الخوف من البحر..

أو من أعماق البحر..

والخوف من البحر وأعماق البحر ينتمي إلى (فوبيا) ذات مجموعة ضخمة للغاية ألا وهي (فوبيا) المجهول..

أي مجهول..

فالبحر يمثل لأصحاب هذا المرض مساحة ممتدة إلى مدى البصر، وأعماق غامضة مريية لا يمكنهم رؤيتها أو معرفتها أو استنباط ما يدور فيها أو ينتشر عبرها..

وكل مجهول يعطي البحر للمرضى بهذه (الفوبيا) شعورًا غامضًا بالخوف، وعدم الأمان خاصة، وأن خيالهم يضخم دومًا كل ما يتلقونه من معلومات عن أعماق البحر، ويمزج كل هذه المعلومات بمخاوفهم بحيث يتصورون طوال الوقت أن وحشًا سينقض عليهم أو كائنًا مفترسًا سيلتهمهم أو حتى دوامة مفاجئة ستبتلعهم، أو تيار قوي سيسحبهم إلى أعماق حيث يموتون مختنقين على نحوٍ يثير رعبهم حتى في أحلامهم وكوابيسهم..

والمصابون بهذه (الفوبيا) لا يمارسون رياضة السباحة أو الغوص أبدًا بل إن بعضهم قد يتحاشى رؤية أية أفلام سينمائية تتحدث عن البحر وأعماقه أو قراءة أية رواية من روايات البحر..

وبعض الحالات الخفيفة من (فوبيا) الأعماق يتمكن أصحابها من السباحة والغوص، ولكن في أحواض السباحة فقط حيث يمكنهم رؤية القاع في وضوح وتحديد كل تفاصيله أو تضاريسه قبل المجازفة بالغوص في أعماقه..

وفي واحدة من الحالات المسجلة كانت المريضة ترفض وضع قدميها في أي مساحة من المياه حتى في حوض الاستحمام المنزلي، بل إنها كانت ترتجف ارتجافًا عنيفة لرؤية أي حوض استحمام ولو كان فارغًا تمامًا..

وفي حالة أكثر عنفًا كان المريض يرفض تناول ماء الشرب نفسه ما لم يكن داخل وعاء شفاف يمكنه منه رؤية قاعه في وضوح..

وهناك حالة نادرة للغاية لشاب وُلد في أسرة من الصيادين ظلَّ طفلة عمره يخشى مجرد لمس مياه البحر لقدميه، وعندما حاول أفراد أسرته تخليصه من هذا الخوف المرضي بأسلوبهم البسيط المباشر

حملوه عنوة وألقوه وسط الماء على مسافة متر واحد من الشاطئ، وعلى الرغم من أن عمق المياه هناك لم يكن يتجاوز السنتمترات العشرة، إلا أن الشاب أصيب بفرع شديد، وراح يضرب الماء بذراعيه بكل رعب الدنيا في نفس الوقت الذي دفن فيه رأسه في شبر من الماء دون سبب معروف، على الرغم من محاولة الكل انتشاله حتى لقي مصرعه غرقاً أمام عيون الجميع!

ولقد أصيب الكل بالذهول وهم يخرجون جثته ويضعونها على الشاطئ دون أدنى تفسير لما فعله بنفسه والذي يتجاوز حدود كل عقل أو منطق..

ولكن أي عقل وأي منطق مع (فوبيا) مرضية؟!

لقد فعلها الشاب أيًا كانت الأسباب، وقتل نفسه في شبر من المياه بسبب رعب هائل بلا حدود ملك جوارحه وألغى عقله تمامًا مع كل حواسه الأخرى..

رعب (فوبيا) الأعماق..

وهذا الرعب يرتبط بنوع آخر من (الفوبيا)..

نوع حيواني..

جدًّا.

\*\*\*

(الفوبيا) هذه المرة من نوع متميِّز ومختلف وخاص..

خاص جدًّا..

(فوبيا) لها أنياب.. ومخالب..

(فوبيا) الحيوانات..

وربما يتبادر إلى ذهنك مع الوهلة الأولى أن هذا النوع من (الفوبيا) أو الخوف المرضي من الحيوانات يقتصر على الحيوانات المفترسة وحدها دون سواها حيث ترتبط في أذهان الناس دومًا بالوحشية والعنف والدم والألم والموت أيضًا..

ولكن الحقيقة تختلف كثيرًا..

فالمصابون بهذا النوع من (الفوبيا) يصابون بالخوف المرضي والفرع والرعب والهلع وكل المشاعر المشابهة الأخرى من كل أنواع الحيوانات المفترسة والأليفة وحتى الوديعه منها..

ومن المؤكّد أنك قد التقيت في حياتك حتمًا بأحد المصابين بهذه الحالة العجيبة وأنك قد رأيت من يصاب برعب بلا حدود عند رؤية قط أو كلب منزلي أو أرنب أو حتى حمار..

وربما ترتبط بعض الحالات بذكرى مؤلمة في فترات الطفولة أو الصبا كأن يداعب طفلاً هرتة مثلاً فتخدشه بعنف؛ مما يولد لديه خوفاً مرضياً من القطط طوال العمر أو حتى يشاهد كلباً يعقر شخصاً آخر ويرى الألام الرهيبة التي يعانيتها هذا الآخر فيخشى الكلاب حتى آخر لحظة في عمره..

ولكن هناك حالات أخرى لم يجد الأطباء النفسيون في تاريخها كله وحتى تحت تأثير التنويم المغناطيسي أيّ موقف أو حادث يمكن أن يكون السبب في إصابتها بهذا الخوف المرضي من الحيوانات..

كل الحيوانات..

وحالات الخوف من الحيوانات تختلف من مريض إلى آخر ككل أنواع (الفوبيا) فهناك مريض يصيبه الفرع عند رؤية حيوان يجري هنا أو هناك أيًا كانت نوعيته أو كان حجمه..

وفي حالات أخرى لا يرتبط الخوف المرضي إلا بالحيوانات الحية ويتلاشى تمامًا أمام أي حيوان ميت باعتبار أن موته يعني انتهاء شروره أو ما يمكن أن يسببه من أذى للآخرين..

وهناك حالة مسجلة عن مريض لم يكن باستطاعته أبدًا التطلّع إلى عيني أي حيوان ويتصوّر دومًا أنه إذا ما التقت عيناه بحيوانٍ ما؛ فإن هذا الحيوان سيتحداه ويستقره وسينتهز أية فرصة سانحة للانقضاض عليه واقتراسه بلا رحمة..

وهناك حالة أخرى لمريضة كان يمكنها أن تتعامل مع الحيوانات بكل أنواعها لو أنها حبيسة الأقفاس أو بعيدة عن متناول يدها، أما لو لمسها أي حيوان فهي تصرخ وتولول وتبكي وتتهار وتقضّى ساعات وساعات في غسل ذلك الموضع الذي لامسه الحيوان حتى إنها ذات مرة أزالت جلد ساعدها وألهبته من فرط محاولتها تنظيفه..

والخوف المرضي من الحيوانات لا يرتبط بقوة المرء أو شجاعته العامة في مواجهة أية مواقف أخرى بل هو نوع منفصل تمامًا من المخاوف ينمو في ظروف خاصة تختلف دومًا عن الظروف الطبيعية..

وأكبر مثال لهذا هو حالة (دي لوكا)..

و(دي لوكا) هذا كان رجلاً ضخماً الجثة عريض المنكبين طويل القامة له ملامح غليظة صارمة وأطراف كبيرة على نحو مفرط بحيث يبدو في معطفه الداكن أشبه بصورة حية لمسح (فرانكنشتاين) الشهير..

أما وظيفته فكانت القتل!

نعم.. كان (دي لوكا) قاتلاً محترفاً يعمل لحساب (الماфия) الإيطالية في الثلاثينيات ويلتزم زعماءها ملازمة الظل، وينفذ أوامره بلا مناقشة وبلا تردد أيضاً فيكفي أن يشير أحدهم إلى شخص ما حتى يعتبر (دي لوكا) هذا أمراً بالقتل لا بُدَّ وأن يعمل على تنفيذه بأي ثمن..

وعلى الرغم من أن ذكاء (دي لوكا) كان محدوداً للغاية في النواحي الحسابية والاجتماعية والعلمية بالطبع، إلا أنه كان يمتلك ذكاءً وحشياً عجباً فيما يختص بعمليات القتل إذ كان يدبرها ويخطط لها وينفذها في براعة مدهشة حتى إن كل وسيلة لحماية الضحية لم تكن لتحول بينه وبينها قط..

ومن الناحية العملية كان (دي لوكا) قاتلاً بلا قلب أو مشاعر يمكنه أن يكمل مذبحه بشعة تسيل لها دماء الأطفال والنساء والشيوخ قبل الرجال دون أن يطرّف له جفن أو تهتز في جسده شعرة..

باختصار: كان كتلة من الغلظة والقسوة والوحشية والقوة إلا لو وقع بصره على ثعبان!

أي ثعبان!

فما إن يرى (دي لوكا) ثعباناً يزحف أمامه حتى ولو داخل قفص من زجاج سميكاً ومضاد للرياح حتى تتسع عيناه عن آخرهما ويرتجف من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، ويغرقه العرق وكأنما خرج من بحرٍ وتتخشب أطرافه كالموتى ويخفق قلبه بمنتهى العنف حتى يكاد يثب من قفصه الصدري بكل قوته..

ولقد تم كشف نقطة ضعف (دي لوكا) هذه بالمصادفة البحتة عندما خرج لتنفيذ واحدة من عمليات القتل الاحترافية ثم فوجئ بأن الهدف يهودي تربية بعض الثعابين في أقفاص زجاجية في حجرة مكتبه..

يومها فشل (دي لوكا) تماماً في المضي ولو خطوة واحدة داخل حجرة المكتب، وتراجع بكل رعب الدنيا، بل وانطلق يعدو عبر شوارع (شيكاغو) حتى بلغ منزله؛ فوثب تحت أغطية فراشه وراح يرتجف حتى صباح اليوم التالي، وذهنه عاجز عن محو صورة الثعابين وهي تزحف في نعومة داخل أقفاصها الكبيرة..

وانتبه الضحية إلى ما حدث..

انتبه إلى أنه الهدف التالي للمحترف (دي لوكا) وإلى أن شيطان (المافيا) كما كانوا يطلقون عليه مصاب بهلع مرضي من الثعابين؛ بكل أنواعها..

وفي اليوم التالي مباشرة تسلل بعضهم إلى حجرة (دي لوكا) وأودعوا في فراشه وعاءً يحوي عددًا من الأفاعي الصغيرة..

وعاد (دي لوكا) إلى منزله وأوى إلى فراشه ورقد بين الثعابين ثم انتبه إلى وجودها و..

وفي الصباح التالي عثروا على قاتل (المافيا) القاسي المحترف ميتًا في فراشه، وعلى وجهه نظرة رعب هائل قضى عليه تمامًا، على الرغم من أن الثعابين كلها كانت من النوع البسيط غير السام..

(دي لوكا) المرعب لم يمت بسم الثعابين إذًا، وإنما بسبب خوفه المرضي الرهيب منها فحسب!

وهناك حالة أخرى لامرأة وحيدة تعيش في مزرعة صغيرة في جنوب (فرنسا) مصابة بهلع مرضي من الفئران حتى إنها كانت تتفق نصف دخلها السنوي على الشركات المتخصصة في إبادتهم، وطردهم، ومنعهم من التسلل إلى منزلها الصغير..

وعلى الرغم من أن المنزل كان يخلو من أجهزة الإنذار ونظم الأمن والتأمين المعتادة فإنه كان يحوي عشرات من أجهزة الموجات فوق الصوتية التي تدعى بعض الشركات قدرتها على طرد الفئران وأبعادها..

في كل حجرة وضعت المرأة جهازين على الأقل من هذه الأجهزة حتى تشعر بالأمان وتبعد عنها الفئران تمامًا..

ولكن من عجائب القدر أن هناك مثلًا قديمًا يقول: "إن من يخشى العفريت يراه" ولقد تحقَّق هذا المثل بحذافيره في حالة هذه المرأة بالذات..

ف ذات يوم أصابتها أزمة قلبية مفاجئة أعقبتها حالة شلل رباعي كما أكد تقرير الطب الشرعي فيما بعد ومع سقوطها أرضًا وعجزها عن الاتصال بأي شخص لمعاونتها نفذ وقود المولدات التي تمد منزلها بالطاقة؛ فحل الظلام وتوقفت أجهزة طرد الفئران عن العمل؛ فانطلقت بالعشرات نحو المزرعة وكأنما تنتقم من فترة الإبعاد الطويلة وهاجمت العجوز العاجزة في حجرة نومها والتهمتها حية وصراخها يملأ الجو دون أن يسمعها أحد! الصورة تبدو مفزعة للغاية وستزعج خيالك طويلًا إلا أنها لن تصيبك بالخوف المرضي من الفئران..

أو ربما تفعل!

ولكنها في كل الأحوال واقعة حقيقية على الرغم من بشاعتها..

واقعة ارتبطت بالخوف المرضي من أنواع بعينها من الحيوانات مثل الخوف من أسماك القرش أو الأخطبوط أو السحالي أو الثعابين..

والخوف من الحيوانات شديد وواسع الانتشار، وتصاب به النساء بأكثر مما يصاب به الرجال وهو يشترك في مواصفاته وطبيعته مع نوع آخر من (الفوبيا) المرضية..

نوع أقل شيوعاً، ولكنه أكثر إثارة للاهتمام والحيرة.

والدهشة أيضاً..

الدهشة الكبيرة.

\*\*\*

في دقة وحسم وتنسيق وتنظيم ما لهم من مثل، وفي اتجاه واضح معروف يزحف دوماً ذلك الجيش الصغير..

جيش الحشرات..

وأياً كانت نوعية تلك الحشرات فهي لا تتواجد منفردة أبداً حتى ولو بدا كل منها وحيداً يسعى إلى رزقه في اتجاه يخصه..

فالحشرات تتواجد في مجموعات وبأعداد غزيرة في مجتمعات بعينها أو في بيئات تتناسب نموها تماماً..

وعلى الرغم من أنه لا توجد إلا أنواع نادرة للغاية في الحشرات المفترسة للإنسان، ومن أن حجم أضخم حشرة لا يمكن أن يُقارَن بحجم أصغر إنسان، إلا أن هناك حالات عديدة للخوف المرضي من الحشرات..

صحيح أنها ليست الأكثر شيوعاً بين حالات (الفوبيا) الأخرى، إلا أنها ليست نادرة أو منعدمة..

وقبل أن نتحدث عن هذه (الفوبيا) لا بُدَّ وأن نفرِّق بين أمرين مختلفين تماماً، وهما الاشمئزاز أو (الرف) من الحشرات بأنواعها والخوف منها..

فالعديدون منا قد يصيبهم الاشمئزاز من رؤية حشرات بعينها! ربما لأنها ترتبط في الأذهان بالقاذورات أو الموت والحيفة وغيرها، بدليل أننا لا نشعر بالاشمئزاز نفسه تجاه الفراشات مثلاً؛ نظراً لألوانها الزاهية الجميلة..

أما الخوف المرضى فهو أمر مختلف تمامًا..

فكما أوضحنا في حالات (الفوبيا) السابقة يصاب المريض بالهلع والرعب والفرع إذا ما وقع بصره على سرب من الحشرات وبخاصة إذا ما كانت هذه الحشرات بأعداد كبيرة!

وربما يعود هذا إلى ثقة الإنسان في أن الحشرات على الرغم من صغرٍ وضآلة أحجامها يمكنها أن تصبح قوة ضاربة إذا ما اتحدت وتآزرت وانقضت على نحوٍ مثابر ومنظم..

وهذا صحيح تمامًا؛ فالنمل مثلاً يمكن أن يهاجم حشرات أخرى تفوقه حجمًا بمائة ضعف في بعض الأحيان ويتآزر للدغها في مواضع شتى حتى تنهار وتموت ويجعل منها مخزونًا غذائيًا له..

وهناك عشرات التنبؤات العلمية وروايات الخيال العلمي التي حاولت تخيل ما يمكن أن يحدث إذا ما انقلبت الحشرات على البشر، وجعلت منه خصمًا تقاقله وتحاربه وتسعى لحره وهزيمته..

وفي كل الخيالات والتنبؤات العلمية كانت الغلبة دومًا للحشرات بأعدادها الهائلة وانتشارها في كل أرجاء الأرض وتنوعاتها التي تبلغ مئات الفصائل وآلاف الأنواع..

ومعظمنا لم يقرأ هذه الدراسات العلمية أبدًا إلا أن بعضنا يحمل خوفًا مرضيًا من الحشرات..

ومن حسن الحظ أن (فوبيا) كل أنواع الحشرات حالة شديدة الندرة حتى تكاد تكون منعدمة؛ إذ إن صاحبها لن يمكنه تقاضى كافة أنواعها حتى ولو حبس نفسه في وعاء معقم كما يقولون..

ولكن هناك (فوبيا) تجاه أنواع بعينها من الحشرات وعلى رأسها (فوبيا) العناكب..

فلسبب ما ترتبط العناكب في أذهان البعض بالرعب والموت والفرع؛ فهي تصنع شبكاتها وتترقب الفريسة التي تلتصق بالشبكة لتتقض عليها بلا رحمة وتمتص حياتها بلا هوادة..

وربما يتصور المرضى بهذا النوع من (فوبيا) العناكب أنهم مجرد حشرات صغيرة قد تقع يومًا في شباك العناكب التي تتقض عليها أيضًا بلا رحمة أو هوادة..

أو أنهم ضحايا بعض الأفلام القديمة التي تحدّثت عن عناكب عملاقة تهاجم البشر وتوقعها في شبكاتها ثم تلتهمها في مشاهد مرعبة تفنن في تقديمها وتصويرها مبدعو (هوليوود) ومخرجوها..

أو أنه خوف غريزي يرتبط بالموت، وكل ما يمكن أن يسببه للبشر أو حتى للحشرات الأخرى..

و(فوبيا) العناكب هذه لا ترتبط بأنواع بعينها منها أو حتى بالأحجام الكبيرة دون الصغيرة بل هي (فوبيا) شاملة تتعلق بكل أنواع وأصناف وأحجام العناكب.. الكبير منها والصغير والوديع والمفترس وكل ما يجري على أقدام ثمان..

والعناكب في حد ذاتها فصيلة خاصة جدًا من الحشرات لها ثماني أرجل وليس ستّ كسائر الحشرات، وهي ضرورية تمامًا لإتمام دورة الحياة الطبيعية شأنها شأن باقي الفصائل؛ إذ إنها تفتك بعدد من الأنواع الضارة وسمها كاف لتخدير الفريسة وقليل منها يفرز أنواعًا من السموم يمكنها قتل البشر!

ومن أسفل مؤخرة الكتلة الخلفية للعناكب تبرز المغازل وهي مراكز تكوين مادة حريرية تصنع منها العناكب شباكها ومنازلها وشراكها وأكياس بيضها أيضًا؛ كما تستعمل خيوط العناكب هذه في صناعة بعض الآلات البصرية الدقيقة..

وفي بعض الدراسات يقول فريق من العلماء إن العناكب تتميز بحاسة سادسة عجيبة، وقدرة مدهشة على التنبؤ المستقبلي تتمثل في فرارها المبكر من أية محاولة لاقتناصها أو السيطرة عليها..

ويقول الهنود إن عقل الإنسان يرتبط أحيانًا بعقول العناكب عبر هذه الحاسة السادسة الخاصة، وأن هذا قد يكون السبب الرئيسي لما يعرف باسم (فوبيا) العناكب..

ولكن هذه مجرد أقوال بدائية لا توجد أية دراسات علمية يمكن أن تؤيدها؛ لأن الحاسة السادسة في حد ذاتها سواء لدى الإنسان أو العناكب لم تجد من يمكنه إثباتها أو تأييدها بعد في أية مراجع علمية أو طبية..

ولقد بحث العديد من العلماء عن تاريخ واضح يمنحنا سببًا باطنياً مقبولاً ومعقولاً لهذا النوع من (الفوبيا)، إلا أن معظم المصابين بها ليست لديهم أية أسباب في طفولتهم أو حداثتهم تدفعهم إلى خوف مرضي من العناكب، بل إن بعضهم يصاب بهذا الخوف أو الهلع الفائق في فترات الطفولة والصبا، وبعضهم يمتد به الخوف إلى كل ما يتحرك بأسلوب مشابه للعناكب حتى لو كان ينتمي لفصائل أخرى أو متباعدة كسرطان البحر مثلاً، بل وحتى لو كان في صورة آلية أو هيكلية..

وهذا يعني أن السبب ما زال مجهولاً تمامًا تحت أية مقاييس، وأنه ينشأ من أعماق أعماق المخ البشري أو أغوار عقلا الباطن أو يكمن في مكان غامض مجهول من جيناتنا الوراثية..

وعدد المصابين بالخوف المرضى من العناكب عديون وكثيرون، ومنتشرون في أركان الأرض الأربعة، وفي كل قارات الدنيا حتى في أدغال (أفريقيا) التي تحوي عشرات الأنواع من العناكب التي تتراوح بين الميكروسكوبيات والشعريات وذات الأحجام الضخمة الرهيبة..

وبالنسبة لأنواع (فوبيا) الحشرات تحتل (فوبيا) العناكب المركز الأوّل بلا منازع ولا تتنافسها سوى (فوبيا) النحل والدبابير..

وهذه (الفوبيا) الأخيرة تبدو منطقية ومفهومة إلى حد كبير فعلى الرغم من احترامنا وتقديرنا الشديدين للنحل باعتباره مصدرًا للعسل الذي يحوي شفاءً، إلا أننا نعلم جيّدًا كم تؤلم لدغة النحل،

وكم تؤلم أكثر لدغة الدبابير مما يفسّر الخوف المرضي لبعض الناس منهما.

وعلى عكس (فوبيا) العناكب، يرى العلماء أن (فوبيا) النحل والدبابير مكتسبة وليست أساسية؛ فالطفل قد يخاف النحلة أو الدبور عندما يحومان حوله بأزيمهما المتصل، وقد يبكي وينكمش على نفسه، ولكنه إذا ما رآهما ساكنين فقد تمتد يده للعب بأيهما ما يعرضه للدغة مؤلمة تتكوّن بعدها هذه (الفوبيا)..

وإلى الأبد..

و(فوبيا) النحل والدبابير قد تكون غريزية أيضًا لدى بعض الناس الذين يعانون من حساسية مفرطة تجاه لدغات النوعين، والذين تكفي لدغة واحدة لتنتفخ أجسادهم وتتورّم ويقضون نحبهم أيضًا لو لم يتم علاجهم في الوقت المناسب وبالسرعة الكافية..

والسؤال الحائر هنا هو: كيف يدرك هؤلاء أنهم مصابون بالحساسية المفرطة بسمّ النحل والدبابير بحيث يصيبهم هذا النوع من (الفوبيا)؟!

أهي غريزة أم نوع من الاتصال العقلي الفائق، أم هو استبصار خارق للمستقبل؟؟

والجملة الأخيرة قد تدهشك، إلا أنها تحمل لمحة من الحقيقة على نحو فجّر حيرة العلماء على نحو كبير وهم يدرسون بعض الأنواع الأخرى من هذه (الفوبيا) العجيبة..

أنواع مدهشة..

للمغاية.

\*\*\*

\* من أشهر أنواع (الفوبيا) التي يعرفها العامة من كثرة الحديث عنها في الروايات وأفلام السينما (فوبيا) المرتفعات..

ومن الطبيعي للمغاية أن يخشى الإنسان المرتفعات، وأن يشعر بالقلق وعدم الأمان إذا ما وقف في منطقة مرتفعة بحيث تبدو الأشياء، ويبدو الأشخاص تحته في أحجام صغيرة دقيقة..

ومن الطبيعي أيضًا أن ينتابه الخوف إذا ما وقف على حافة مرتفعة أو طرف بناية شاهقة..

ولكن ماذا لو أنه يصاب بهلع رهيب إذا أطل من شرفة مرتفعة مؤمنة أو حتى عبر زجاج سميك قوي ومصفح؟!

هنا يصبح الخوف من المرتفعات مرضياً ومتجاوزاً لكل الحدود الطبيعية والمألوفة والمعروفة..

والمصابون بمرض (فوبيا) المرتفعات يشعرون بدوارٍ عنيف وفقدان تام للاتزان، وترتجف أطرافهم وتنبس، وقد تعجز سيقانهم عن حملهم أيضاً إذا ما تواجدوا في مكان مرتفع أو حتى شاهدوا صورة تم التقاطها من مكان مرتفع..

وفي واحدة من الاختبارات النفسية تم وضع المريض في حجرة خاصة في الطابق الأرضي، وتم عرض صورة كبيرة على أرضية الحجرة تم التقاطها من أعلى ناطحة سحاب، وعلى الرغم من أن المريض يدرك جيداً موقعه، وأن ما يراه مجرد صورة فقد انتابته المشاعر نفسها التي تنتابه في البنايات المرتفعة، وارتجف إلى حد الهلع وانهار تماماً وهو يصرخ صرخات رهيبه انخلعت لها قلوب من حوله..

المسألة ليست مرتفعات ومنخفضات إذًا، وإنما هي مشكلة نفسية عويصة ترتبط بالشعور أو بالعلاقة البصرية بين المخ والجسد..

ولقد أجرى العلماء تجاربهم على حالات من المصابين بهذا الخوف الرهيب من كل المرتفعات؛ بأن عصبوا أعينهم وجعلوهم يسيرون فوق سطح شديد الارتفاع فلم يعانِ سبع وثمانون في المائة منهم أية مشكلات إلا بعد رفع العصابة وإدراكهم أنهم فوق قمة مرتفعة..

ولقد دعت هذه التجربة إلى دراسة العصب البصري والأذن الداخلية للمصابين بمرض (فوبيا) المرتفعات لبحث ما إذا كانت له علاقة بأيهما، وجاءت النتيجة تشير إلى هذا الاحتمال بنسبة سبعة وخمسين في المائة؛ مما جعل من العسير الجزم بصحته من عدمها!

وهناك حالة خاصة جدًا توقف عندها الباحثون طويلاً من حالات (فوبيا) المرتفعات الفائقة وهي حالة ظل صاحبها يصاب بذلك الهلع الفائق طوال الوقت، دون أن يفلح أي علاج في تخليصه منه وهو يصر دومًا على أنه سيلقى حتفه سقوطًا من ارتفاع عالٍ يومًا ما..

وطوال حياته حرص ذلك المريض دومًا على تجنب المرتفعات؛ فلم يسافر يومًا بطائرة ولم يقيم أو يعمل في أي مكانٍ مرتفعٍ إطلاقًا..

وعلى الرغم من هذا فقد سقط هذا المريض فجأة في حفرة أرضية بلغ عمقها ثمانية عشر مترًا فلقي مصرعه في الحال!

لقد سقط إذًا من ارتفاع كبير في أعماق الأرض!

ويا لها من مفارقة!

والمفارقة هنا تقودنا إلى نوع آخر من أنواع (الفوبيا) يعتبر عكس (فوبيا) المرتفعات تمامًا وإن كان بعض العلماء يعتبرونه مجرد اشتقاق من هذه (الفوبيا) نفسها على نحو آخر..

إنه (فوبيا) الأعماق..

وفي هذه (الفوبيا) يرتجف المريض ويرتعد عند مواجهة حفرة عميقة أو بئر سحيقة ولا يجرؤ حتى على النظر إليها وينتابه شعور دائم بأنه لو تطلع إليها فسيقسط فيها حتمًا..

والفريق الذي يتصور أن هذا مجرد اشتقاق من (فوبيا) المرتفعات يرى أن المريض هنا يخشى المسافات البعيدة سواء أكانت من مكان مرتفع أو منخفض أو أنه لا يستطيع التطلع إلى أية مسافات رأسية طويلة بأي حالٍ من الأحوال..

ولكن التجارب العملية ترفض هذا المنطق في كثير من الأحيان؛ إذ إن معظم الحالات المصابة بالخوف المرضي من الأعماق لم تعانٍ من الأمر نفسه مع المرتفعات، وفي حالات أخرى تلازم هذا مع ذلك، ولكن الأعراض اختلفت في الحالتين فكانت أكثر عنفًا في الأعماق منها في المرتفعات..

والفريق المؤمن بانفرادية (فوبيا) الأعماق يرى أن سببها يعود إلى ربطها دومًا بالموت والقبور، ورؤيتها تسبب الهلع للمريض؛ لأنه يتصور أنه يرى قبره بعينه، وأن جثمانه سيرقد يومًا ما في حفرة كهذه ويهال عليه التراب!

ولأن البشر يخشون الموت بطبيعتهم ويكرهون فقدان كل متع الحياة؛ فإن عقولهم الباطنة تبغض القبور، وتعكس هذا البغض على العقل الواعي في شكل (فوبيا) الأعماق!

و(فوبيا) الأعماق مثلها مثل (فوبيا) المرتفعات ذات منشأ نفسي بحت؛ بحيث لا يشترط تواجد الشخص في حفرة عميقة بالفعل، وإنما يكفي الإيحاء له بهذا أو حتى إخباره بضرورة أن يفترض هذا حتى يصاب بكل الأعراض دون أي اختلاف..

وكل أنواع (الفوبيا) يختلف الأمر من مريضٍ إلى آخر؛ فبعض المرضى يُصابون بالهلع من الأماكن شديدة العمق، والبعض الآخر لا يمكنهم حتى التواجد في قبو منزل أو في أي طابق تحت مستوى الأرض..

وبعض المرضى يمكنهم أن ينتبهوا حتى وهم مغمضو العينين إلى أنه قد تجاوز مستوى الأرض، والبعض الآخر لا يمكن أن يدركوا هذا إلا لو تم إبلاغهم به؛ والنوع الأول هو الذي يثير انتباه واهتمام العلماء أكثر لأنه يمتلك حاسة نادرة لا بُدَّ من دراستها والبحث عن أسبابها ونتائجها ووسائل توجيهها والاستفادة منها..

تمامًا كحاسة تحديد الاتجاهات والتي يملكها بعض البشر دون البعض الآخر، وتتفاوت قوتها بين من يملكونها على نحو يستحق الاهتمام والدراسة بالفعل؛ فبعض الناس يمكنهم تحديد الاتجاهات بدقة حتى لو أغمضت عينيه وسرت به عبر غابة شاسعة في مسار شديد التعرُّج والتعقيد، بل ويمكنهم الإشارة بأصابعهم نحو نقاط بعينها في دقة مذهلة لو طلب منهم هذا.. والبعض الآخر يمكنه الاتجاه نحو الشمال المغناطيسي بدقة مذهلة تفوق دقة البوصلة نفسها دون أية معرفة سابقة بمكان تواجدهم!

ولكن هذه قصة أخرى..

دعنا هنا نركز أبحاثنا حول (الفوبيا) بأنواعها المختلفة وتفرعاتها العجيبة وتعقيداتها وأعراضها اللانهائية..

وما تحدَّثنا عنه يعتبر الأنواع الشهيرة فقط من (الفوبيا) والتي يمكن أن تتواجد في البشر على نحو غريزي أو مكتسب والتي تنتشر في أعداد كبيرة من الناس، ولكنَّ هناك أنواعًا أخرى من (الفوبيا) لا حصر لها وكلها أنواع مكتسبة نشأت بسبب واقعة بعينها أو موقف أثار رعب الإنسان وفضعه في مرحلة أولية من حياته وتبدو غامضة ومحيرة بالنسبة لعلماء النفس والدارسين وخاصة عندما ترتبط بأشياء عادية أو مألوفة أو يمكن تواجدها في كل مكان؛ كالسجائر مثلًا أو القذّاحات أو الأقداح الزجاجية أو أنواع سيارات بعينها أو حتى الملاعق والأشواك الفضية..

وهناك امرأة ظلت طيلة عمرها تصاب بهلع مرضي من عبور أي طريق تعبره السيارات، وعندما تم تحليلها نفسيًا ودفعها إلى العودة بذاكرتها إلى سنوات طفولتها الأولى تبين أنها قد شاهدت وهي في الثالثة من عمرها حادثة سير لسيارة مسرعة أصابت طفلًا في العاشرة من عمره، وقذفت به إلى حديقة منزل بعيد لينزف حتى الموت..

وعندما تقدّمت هي في العمر طرح عقلها الواعي الموقف كله في بقعة مظلمة من مخها، ولكنه لم ينجح في محوه من عقلها الباطن الذي يستعيد المشهد سرًّا كلما حاولت عبور الطريق؛ فتصاب بالفزع والهلع وتتصوّر أن سيارة ما ستصدمها كما فعلت بذلك الطفل من قبل وستلقى مصرعها مثله..

وعندما تم التوصل إلى السبب الحقيقي لمشكلتها والتعامل معه بالحرفية اللازمة، انتهت القضية وتصلح عقلها الواعي مع عقلها الباطن، ولم تعد تخشى عبور الطرقات..

وهذا الحديث يقودنا إلى الجولة الأخيرة والفصل الختامي من هذه الدراسة الخاصة بمختلف أنواع (الفوبيا)..

الفصل الذي لا يتحدّث عن المشكلة وإنما عن الحل..

عن مواجهة (الفوبيا) ووسائل التعامل معها وعلاجها و...

ولهذا حديث آخر.

\*\*\*

تؤكد كل النظريات الجديدة في العلم الحديث أن إصابة المرء بأي مرض في الوجود يحتاج إلى عاملين أساسيين وهما عامل الوراثة وعامل البيئة..

وبمعنى أدق: لا بدّ وأن تحوي الضفيرة الجينية للمرء العامل الوراثي الخاص بالمرض، وأن تحيط به ظروف بيئية مناسبة لظهور المرض وصعوده إلى الجسم..

ولقد أكدت الأبحاث صحة هذه النظريات وحتمية تشاؤك العاملين معاً؛ بحيث لا يكفي أحدهما وحده لظهور المرض أيّاً كانت نوعيته عضوية أو حتى نفسية..

النظريات والأبحاث الجديدة إذاً تؤكد أنه حتى (الفوبيا) بأنواعها تحتاج إلى عامل وراثي في جينات الجسم، وإلى ظروف بيئية مناسبة تضغط على هذا العامل الوراثي وتظهره ليصاب الإنسان بحالة من حالات (الفوبيا) أيّاً كان نوعها..

ولتوضيح الأمر أكثر دعونا نفترض وجود طفلين تعرّضا لواقعة واحدة، ولتكن لدغة النحل مثلاً في عامهما الأوّل الأوّل يحمل الجينات المناسبة والآخر لا يحملها..

كلاهما سيصاب عندئذ بالألم والذعر والفرع وسيبكي كثيراً وطويلاً ثم تمضي الواقعة مع بعض التورّمات والكريمات المرطبة ومضادات الحساسية المفرطة؛ وينتهي الأمر بأحدهما وهو الذي يحمل الجينات بالإصابة بحالة (فوبيا) النحل طيلة عمره في حين ينسى الآخر الأمر تماماً، وربما تزداد مخاوفه المستقبلية من النحل إلا أنها لن تتحوّل أبداً إلى خوف مرضي أو هلع مفرط..

التوصّل إلى هذا قلب كل موازين العلاج التي كان يستخدمها الأطباء والمعالجون النفسيون قديماً للتعامل مع أنواع (الفوبيا) الجينية..

وهذا لا ينطبق على (الفوبيا) البسيطة أو المكتسبة والتي ما زالت أساليب مواجهتها وعلاجها متشابهة مع ما كان يحدث قديماً..

فالخطوة الأولى دوماً هي معرفة تاريخ (الفوبيا) ومتى ظهرت أو نشأت وهل تتطوّر إلى الأسوأ أم إلى الأفضل مع مرور الزمن..

وبعدها لا بدّ من الغوص في أعماق المريض للوصول إلى منشأ المشكلة..

وهناك عدة وسائل للقيام بهذا الغوص النفسي الخاص جداً لبلوغ قاع حالات (الفوبيا) إذ إن هذا يمكن أن يتم عن طريق التحدّث المنظم والهادئ مع المريض على فترات منتظمة متباعدة أو مقاربة وفقاً

لنوع وشدة الحالة حتى يصل المعالج إلى النقطة التي تفجرت عندها (الفوبيا) وإيضاحها للمريض على نحو مباشر وهادئ أيضاً..

وفي معظم الحالات المكتسبة يمكن أن ينهي هذا المشكلة؛ إذ ما إن يزِيل المعالج الحاجز بين العقل والباطن حتى تتضح الصورة للمريض وتبدأ في اتخاذ حجمها الحقيقي بحيث تتحوّل من عقدة كبيرة إلى مشكلة محدودة يسهل التعامل معها ومواجهتها ببعض العقاقير الطبية أو الجلسات النفسية المكثفة..

وفي حالات أخرى يعجز المريض نفسه عن تحديد بداية المشكلة على الرغم من المحاولات والمحاورات؛ لذا يصبح من الضروري الانتقال إلى مرحلة أكثر حرفية..

إلى التنويم المغناطيسي..

والتنويم المغناطيسي ليس نوعاً من الدجل أو الشعوذة بل هو أمر علمي تماماً ويرتبط بالعديد من العوامل أهمها الشخص نفسه؛ فوفقاً للدراسات ليس كل إنسان قابل للخضوع للتنويم المغناطيسي؛ فهناك عقول مقاومة بشدة لهذا الأمر ولا يمكن تنويمها أبداً..

لا بُدَّ إذاً وأن يوافق المريض على الخضوع للتنويم المغناطيسي، وأن يستسلم لمعالجه تماماً رغبة منه في كشف طبيعة مرضه والقضاء عليه تماماً..

والمزية الرئيسية للتنويم المغناطيسي هي أنه يشدّ كل حواس الإنسان وذاكرته ويساعده على استرجاع تفاصيل دقيقة من أعماق عقله الباطن على نحو يعجز عن فعله على نحو إرادي مهما بذل من جهد..

ولكن هذا يحتم أن يكون المعالج نفسه شديد البراعة في تعامله مع المنوم مغناطيسياً؛ فمنذ سنوات قليلة كشف أحد العلماء أن المعالج قد يقود المريض الخاضع للتنويم المغناطيسي إلى أمور لم تحدث في عالم الواقع، ولكنه هو أوحى له بحدوثها دون أن يدري..

إذا فالأمر يحتاج إلى دقة شديدة..

دقة تترك المريض حراً وتسمح بتداعي أفكاره وذاكرياته في انسيابية هادئة حتى يتوصّل المعالج إلى قلب المشكلة ويفجّر الحقائق كلها في وضوح دون أن يزرع أية أوهاام في عقل مريضه..

وهناك حالات عديدة من (الفوبيا) تم علاجها تماماً عن طريق التنويم المغناطيسي إما بتوضيح المشكلة وعلاجها أو بدفع المريض إلى محوها تماماً من عقله..

والأسلوب الأوّل هو الأكثر دقة وضمانًا بالتأكيد؛ إذ إن محو المشكلة من العقل أمرٌ مستحيل كما يؤكد بعض العلماء ما يعنى أنها قد تعود إلى البروز بغتة ودون سابق إنذار بعد فترة تطول أو تقصر، ولكن عودتها ستعيد (الفوبيا) مرة أخرى..

وربما على نحو أكثر عنفاً..

وكل هذا كما سبق أن قلنا يرتبط بحالات (الفوبيا) المكتسبة وحدها دون سواها..

أما حالات (الفوبيا) الجينية؛ فعلاجها يستلزم ما يُعرف باسم العلاج الجيني، وهذا النوع من العلاج لم يتطوّر إلى الحد الكافي بعد، إلا أن الحالات القليلة التي عولجت به، أعطت نتائج مدهشة في حالات مرض السكر والهيموفيليا ونقص المناعة الوراثي وغيرها..

والمجال ليس مفتوحاً هنا للحديث بالتفصيل عن العلاج الجيني، ولكنه وسيلة لإحلال ضفيرة جينية محل أخرى في مناطق الإحلال والتجديد مثل نخاع العظام بحيث تنمو وتتضاعف وتخلص الجسم من تأثيرات جينية بعينها بعد فترة محدودة من الوقت..

ونجاح العلاج الجيني في الأمراض العضوية لا يعني نجاحه في الأمراض النفسية أيضاً أو أنه ليست هناك أية تجارب واضحة في هذا الشأن على الأقل حتى لحظة كتابة هذه السطور؛ ولكنه وسيلة مستقبلية تنبأ لها العلماء والأطباء بالنجاح الفائق، وبقدرتها على تغيير وجه العالم طبيّاً ونفسياً مع مطلع العقد الثاني من القرن الحالي..

والأمر الذي يستحق الانتباه في هذا الشأن هو أن معظم حالات (الفوبيا) التي خضعت للعلاج المكثف وأقرّ الأطباء بنجاحها، وبأنها قد عولجت تماماً لم يمكن الجزم بأن علاجها سيستمر إلى الأبد..

ففي وجود العامل الوراثي قد تتوارى (الفوبيا) أو تنكمش وتهادن العقل الواعي لبعض الوقت بعد كشف الصدمة البيئية التي سببت ظهورها، ولكنها تظل دوماً متأهبة للظهور ثانية مع أية صدمة بيئية جديدة..

ففي اثنين وثلاثين في المائة من الحالات ارتدت (الفوبيا) مرة أخرى بعد ثلاث إلى خمس سنوات من الشفاء بسبب واقعة واحدة، وقد تقل كثيراً عن الواقعة الأصلية التي كانت السبب في ظهورها في مرحلة الإصابة الأولى..

وإذا ما عادت (الفوبيا)؛ فإن علاجها يستلزم عندئذ وقتاً أطول وجهداً أكبر تماماً مثلما يحدث في لعبة (اليويو) التي يدفعها الأطفال إلى أسفل ثم يجذبونها إلى أعلى فتدور حول خيطها لترتفع ثم تعاود الانخفاض وهكذا..

ولو أنك تابعت (اليويو) لوجدت أنه يلتهم في المرة الأولى مساحة كبيرة في الخيط في سرعة مدهشة، ثم يلتهم مساحة أقل في سرعة أقل في دورته الثانية، وكذلك في الثالثة وما بعدها..

ومن هنا أطلق العلماء على عملية عودة (الفوبيا) وعلاجها لأكثر من مرة اسم (مبدأ اليويو)..

ومؤخرًا لجأ العلماء إلى خوذة جاما التي يبتون من خلالها موجات خاصة تتعادل مع موجات خوفه وتخمدها..

وهذا يعطي نتائج مدهشة..

ولكنها مؤقتة للأسف..

ربما لأن المخ سرعان ما يستعيد موجاته الأولى ويعود إلى مخاوفه الدفينة..

وهذا لا يعني أن (الفوبيا) غير قابلة للشفاء، ولكن يعني حتمية الحرص الشديد في التعامل مع مريضها بعد العلاج بحيث يبتعد تمامًا عن كل المؤثرات التي يمكن أن تصيبه بصدمة بيئية أخرى..

وقبل أن نختم حديثنا لا بُدَّ وأن نشير هنا إلى أن أحد الأسباب القوية التي تمنع علاج مرض (الفوبيا) هو نوعٌ من (الفوبيا) أيضًا..

(فوبيا) الأطباء..

فالمرضى هنا لا يخشون في الدنيا كلها قدر الأطباء والمستشفيات وحجرات العلاج والعناية المركزة و... و...

وسيطول الحديث إلى ما لا نهاية؛ لأننا نتحدَّث عن حالة يمكن أن نضعها في ألف صورة وصورة..

حالة (فوبيا)..

\*\*\*

## المستقبل

حقيقة أم خيال!؟

منذ بداية القرن العشرين، ومع الثورة الصناعية الكبرى التي أعلنت عن وجودها عبر الآلات الضخمة والمصانع العملاقة، تفتحت شهية الإنسان إلى العلم، وإلى المزيد والمزيد من التقدم العلمي الذي ارتبط في الأذهان. كل الأذهان بالرخاء والتطور والانتعاش الاقتصادي المرتقب..

ثم جاء (ألبرت آينشتاين) في عام 1905م لينشر نظريته عن النسبية الخاصة التي أدهشت العلماء بعض الوقت، ثم لم تلبث أن فجرت فيهم وفي العامة من بعدهم حالة من الشغف والانبهار التي ضاعفت من شعور البشر بالأمل ومن طموحاتهم الهائلة في المستقبل..

وعلى الرغم من اندلاع الحرب العالمية الأولى لم يفقد الإنسان أبدًا أمله في المستقبل، وإنما عاش سنوات الحرب يحلم بالسلام، وبما يمكن أن يجلبه من استقرار واسترخاء..

وانتهت الحرب وعاد السلام، وتصور الكل أن حلم الرقي والحضارة سيتواصل، وأن سنوات الدمار والخراب قد ولت وانتهت، وأن المستقبل سيجمل حتمًا الكثير من الأمل على الرغم من الأزمات الاقتصادية والمنغصات التجارية والمشكلات الاجتماعية...

واندلعت الحرب العالمية الثانية..

اندلعت على نحوٍ يختلف تمام الاختلاف عن الحرب الأولى..

ففي هذه المرة كانت المصانع قد أخرجت أسلحة رهيبة ذات قدرات تدميرية عالية وطوّرت أسلحة قديمة بحيث صارت أكثر عنفاً وقسوة وقدرة على نشر الخراب والدمار..

وفي الحرب العالمية الثانية ساد شعورٌ مختلفٌ تمامًا..

شعور بأن الثورة الصناعية التي كانت تحمل الأمل في مستقبل أفضل هي نفسها التي حملت الخراب والدمار والعنف..

وهنا بدأ الخوف..

بدأ وراح يتصاعد ويتصاعد حتى بلغ ذروته في السادس من أغسطس عام 1945م عندما أسقطت (أمريكا) قنبلتها الذرية الأولى على مدينة (هيروشيما) اليابانية..

انفجار هائل رهيب أشبه بفطر عش الغراب العملاق مع نار ودمار وخراب ودماء ورعب لم يشهد العالم له مثيلاً منذ بدء الخليقة، ومنذ مولد الحضارة التي نعرفها الآن..

ومنذ ذلك الحين تلاشى الحلم..

وربما إلى الأبد..

لم يعد المستقبل يحمل الأمل والطموح واللهفة، بل صار مرادفاً للخوف والرعب والخراب والدمار..

الكل بات يخشى حرباً نووية جديدة، وخراباً مفاجئاً مثل ذلك الذي محا مدينتي (هيروشيما) و(ناجازاكي) من الوجود..

ولقد تضاعف الخوف والرعب ألف مرة عندما حصل السوفييت على سرّ القنبلة النووية في ذروة حربهم الباردة مع الغرب، وأصبح على ذلك الغرب أن يحيا الفرع نفسه الذي عاش فيه الآخرون طويلاً..

وبدأ سر القنبلة النووية ينتشر وينتشر، وأدرك الكل بعد ثلاثة عقود من الزمن أن استخدامها عسكرياً أشبه بالانتحار، وأن أحداً لن يحاول اللجوء إليها أبداً إلا كوسيلة للردع النووي فحسب..

ومع مولد التسعينيات وسقوط الاتحاد السوفييتي، عاد الأمل يراود الكل في المستقبل، وعاد الحلم يطل في العقود والأذهان ويداعب الطموحات والآمال..

وبدأ العلم يتطوّر بعجلة تصاعدية مدهشة حتى إننا أصبحنا نقرأ عن كشف جديدة ومدهشة كل يوم ولعل أهمها ابتكار أجهزة الكمبيوتر المنزلية وشبكات الكمبيوتر الصناعية وشبكة الاتصالات والإنترنت التي انضمت إلى شبكات الأقمار الصناعية لتجعل من العالم قرية صغيرة لا يمكن أن يحدث أمر ما في طرفها دون أن يعلم به الكل في كل الأطراف وفي القلب أيضاً..

والبعض يقول: إن هذا التطور السريع والمدهش قد أفقد الناس قدرتها على الاندهاش والانبهار، وأنهم أصبحوا يتوقعون اختراع أي شيء حتى تلك الأشياء التي كانت قاصرة فيما مضى على روايات الخيال العلمي وحدها..

بل إن ما يحيط بنا الآن يبدو بالفعل أشبه بتلك الصورة التي كُنّا نراها في أفلام الخيال العلمي في الستينيات والسبعينيات وربما في الثمانينيات أيضاً عندما كنا نتصوّر أن القرن الحادي والعشرين لن يأتي إلا وهو يحمل ذروة التقدّم والتطوّر والرخاء..

والسلام أيضاً..

ولكن القرن الحادي والعشرين أتى وهو يحمل تطورات علمية شبيهة خرافية تكاد تنافس الخيال، ولكنه لم يحمل لنا أي رخاء أو حتى سلام.. ولو تجاهلنا ما حدث سياسيًا وعسكريًا؛ فسنجد أن القرن الحادي والعشرين قد حقق بالفعل تلك الأحلام التي كانت تراود أبناء القرن العشرين والذين وُلدوا في بداياته أو بعد نصفه الأوّل بالتحديد..

فوسائل الانتقال أصبحت أقوى وأسرع وأكثر متعة وفخامة وأصبحت السيارة الشخصية تحوي من المعدات الرقمية أو الشاشات الإلكترونية ما لم تكن تحظى به طائرات القرن العشرين أو حتى تحلم به..

ووسائل الحفظ والتخزين بلغت مبلغًا مدهشًا لم يتخيلها حتى أبناء السنوات العشرين الأخيرة من القرن السابق..

أما وسائل الاتصال فقد قامت حتى أحلام الماضي القريب جدًا..

تقنية الاستنساخ وحدها وكشف خريطة الجينوم البشري حققت حلم العلماء الألمان في أواخر النصف الأوّل من القرن العشرين عندما فكروا في استنساخ الفوهلر (أدولف هتلر) وحفظ بعض النسخ منه للمستقبل (ومن حسن حظ العالم أنه لم تكن لديهم أيامها التقنية الكافية لتحقيق هذا)..

وهناك تطور مدهش آخر في آلات الصناعة وسبل التقييم ووسائل الإنتاج... و... و..

ولكن ماذا عن المستقبل؟!

ما الذي يمكن أن يحمله لنا من تطورات جديدة أو مدهشة؟!

ما الذي يمكن أن نحلم به بشأنه؟!

الواقع أن العلم لا يتوقّف قط، والتطور لا يبلغ أبدًا خط النهاية مهما تصوّر الإنسان ومهما خُيّل إليه..

ففي كل عصر وكل أوان وزمان تصوّر الإنسان أنه قد بلغ ذروة العلم والتقدّم، وأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان..

فعند اكتشاف الكهرباء مثلًا انبهر بها العالم كله، وقال أحد العلماء حينذاك: «لست أدري أي أمرٍ يمكن أن يبلغه العلم بعد هذا الاكتشاف الرهيب»..

وفجّرت الكهرباء أيامها أحلام العلماء ورجال الصناعة وقريحة كُتاب الخيال العلمي أيضًا الذين تصوّروا أن هذه الطاقة الجديدة قادرة على صنع المستحيلات..

بل إن بعضهم قد تمادى إلى حد كتابة بعض الروايات الخيالية حول قدرة الكهرباء على إحياء الموتى!

ثم جاءت الطاقة النووية..

وعاد الكل ينبهر ويحلم ويتخيل ويتصور..

ويخاف..

والآن.. وبعد أن أحاط بنا العلم من كل صوب، وسيطر على كل لحظة من حياتنا منذ نفتح أعيننا في الصباح على رنين المنبه الرقمي وحتى نغلقهما مرة أخرى في المساء وقد أرهقت متابعة الفضائيات عيوننا يتصور البعض نفس التصور القديم بأننا قد بلغنا الذروة، وأنه لم يعد في الإمكان أبدع مما كان و..

ولكن المستقبل ما زال أمامنا، وما زال يحمل لنا الكثير والكثير..

والكثير أيضًا..

وحتى لا يتهمنا أحدًا بالإغراق في التفاؤل والخيال فستحدث عن المستقبل من وجهة نظر علمية بحتة..

ومن خلال أبحاث علمية ومصادر علمية ومراجع علمية أيضًا..

وعلى الرغم من هذا فسيحمل لنا الحديث عن المستقبل مفاجآت..

مفاجآت عديدة.. ومثيرة و..

ومذهلة..

\*\*\*

ملا بسنا كلها ألوان.. ألوان زاهية أو هادئة متألفة أو خافتة متداخلة أو منفردة..

ولكن المشكلة أن كل هذه الألوان عبارة عن أصباغ تختلف في تركيباتها وأنواعها ودرجات وضوحها وثباتها، ولكنها كلها مواد كيميائية تلامس أجسادنا طوال الوقت شئنا أم أبينا وتتعامل مع جلودنا على نحو مباشر أو عبر حواجز رقيقة.. وقديمًا في العصور البدائية كان البشر يرتدون ثيابًا من جلود الحيوانات.. ثيابا طبيعية..

من مواد طبيعية..

ولهذا لم يكن الإنسان الأول يصاب بالتهاب الجلد..

أو أمراضه..

أو حساسياته..

لم يكن يعاني من التهاب الجيوب الأنفية التي تشم ما لا ندركه من روائح الأصباغ والكيماويات..

ولم يكن يعالج من حساسيات الصدر التي انتشرت في العصور الحديثة على نحوٍ لم يسبق له مثيل..

بل ولم يصب بها قط..

وهذا ما أدركه العلماء..

وما انتبهوا إليه مؤخرًا..

وما أصبح بالنسبة لهم ولنا مشكلة صحية كبرى..

ففي كل شيء في حياتنا تقريبًا انتشرت الألوان الصناعية..

في ملابسنا..

وطعامنا..

وشرابنا..

وحتى في حلوى أطفالنا..

الخطورة تتضاعف وتزايد حتى إن العلماء قد بدأوا منذ مطلع ثمانينيات القرن العشرين حربًا طاحنة على الألوان..

كل الألوان الصناعية..

في البداية كانت حربهم ضد الألوان الصناعية في الحلوى والمشروبات..

وعبر حملة دعائية كبرى نجحت الجهات الصحية في تحجيم استخدام الألوان الصناعية في الأطعمة، وتم استبدالها كلها بمجموعة من الألوان الطبيعية المستخلصة من مصادر حيوية مثل

الفواكه والخضراوات والأشجار والألياف، وكان هذا انتصاراً صحياً..

ولكن بقيت ألوان وأصباغ الملابس..

فالألوان الطبيعية التي تمنح الحلوى والمشروبات زهاءها لا تصلح لصبغة الملابس، ولا للحفاظ على ثباتها؛ إذ إن معظمها إما يذوب في الماء أو يفسد بسرعة مع الاستخدام المتكرر..

لذا فقد راح العلماء يبحثون عن وسيلة أخرى لصبغة الملابس..

حاولوا أولاً استنباط مواد صبغية ثابتة من مستخلصات طبيعية..

وربما حققوا نجاحات محدودة في هذا الشأن..

ولكنها لم تكن كافية..

أبداً..

ثم فجأة.. ومع تطور هندسة الوراثة، توصل أحد العلماء إلى نتيجة مذهشة لم تخطر ببال أحد منذ البداية..

لقد بدأ سلسلة من الأبحاث والتجارب منذ أوائل تسعينيات القرن العشرين حول زراعة القطن وبذرة القطن..

في البداية كان عمله كله يختصر في تزويد القطن بصفات وراثية جديدة تتيح له مقاومة الدودة ودفعها إلى الانصراف عنه إلى نبات آخر..

ثم ظهرت في القطن بعض بقع ملونة..

وتحول مسار الأبحاث كلها..

وبعد عشر سنوات في العمل الشاق ومئات التجارب والاختبارات والنتائج، بدأ الأمر يؤتي ثماره..

بدأ القطن ينمو في الحقول ملوناً..

نعم.. لم تعد هناك حاجة إلى أصباغ كيميائية أو ألوان صناعية..

فالقطن سينمو بالألوان التي نريدها..

ووفقاً لمتغيرات الموضة..

ففي هذا العام سيزرع الفلاحون قطنًا أزرق..

وفي العام التالي برتقاليًا..

وفيما يليه بنفسجيًا..

وستصبح حقول القطن نفسها متعة للناظرين مع اختلاف الألوان من حقل إلى آخر..

وكل هذا بالعلم..

وبالعلم وحده..

وقبل أن يدهشك هذا دعني أحدثك عن سيارة المستقبل التي ستقودها دون وقود أو كهرباء وإنما بطاقة مستمدة منك أنت..

من مخك..

وحده..

\*\*\*

هل سألت نفسك يوماً كم تبلغ طاقة مخك بالضبط؟!.. وكم فولت يمكن أن يخرج منه؟!!

قديمًا كان العلماء يدرسون المخ باعتباره جهازًا عصبيًا مركزيًا يتلقى الإشارة من كل أجزاء الجسم ويبرمجها وينسقها، ثم يبث استجاباته لها مرة أخرى إلى كل أجزاء الجسم أيضًا عبر النخاع الشوكي وما يتصل به من أعصاب.. وهذا تعريف سليم..

فالمخ ليس مجرد سنترال مركزي مرتبط بخيوط حسية توصله بأجزاء الجسم..

إنه أكبر من هذا بكثير..

فمع قيامه بعمله الذي لا يتوقف ثانية ولا حتى «فيمتو» ثانية منذ تكون وحتى بعد الوفاة الرسمية والعلمية بقليل يستهلك المخ طاقة كبيرة..

طاقة يستمدّها من شبكة الشرايين والأوردة والأوعية الدموية الدقيقة التي تنتشر فيه والتي تساعد على القيام بعمله بالغ الحساسية والدقة..

ولأنه يستمد طاقة ما، ولأن الطاقة لا تفنى ولا تستحدث من عدم؛ فمن الضروري أن يبيت المخ تلك الطاقة مرة أخرى على هيئة موجات كهرومغناطيسية محدودة..

تلك الموجات التي يمكننا تسجيلها عبر رسام المخ الكهربى لترسم لنا تلك المنحنيات العلمية الطبية التي يستعين بها الأطباء لتحديد حالة المخ وأمراضه ومشكلاته المزمنة والمؤقتة..

وتلك الموجات أيضاً هي سبب النظرية التي تتحدث عن تأثير أجهزة الهواتف المحمولة في المخ؛ فهي تفترض أن الموجات الكهرومغناطيسية التي تبثها تلك الأجهزة تؤدي إلى شوشرة موجات المخ والتعارض مع خلاياه ما يؤدي إلى خلل لم يتم تحديده طبيئاً بعد..

والواقع أن هذه النقطة محيرة للغاية مع تعارض آراء العلماء حولها؛ ففي الوقت الذي يؤكد فيه الأستاذ الدكتور «أحمد صبري» رئيس قسم جراحات المخ والأعصاب في مستشفى الملك فهد أن هذا لم يثبت بعد علمياً نجد أن الأستاذ الدكتور «محمد علي أحمد» رئيس قسم الفيزياء التجريبية بكلية علوم القاهرة والحاصل على أعلى درجة علمية في العلوم يؤكد ويصر على حدوث هذا الضرر وإن طال الزمن..

وبغض النظر عن حدوث الضرر من عدمه؛ فقد تعامل العلماء مع الطاقة الكهرومغناطيسية الصادرة من المخ باعتبارها طاقة يمكن استغلالها بشيء من الحكمة..

وشيء من العلم أيضاً..

في البداية استخدموا طاقة المخ لإضاءة مصباح صغير للغاية..

وأضاء المصباح..

نجح العلماء في تحويل الطاقة الكهرومغناطيسية إلى طاقة ضوئية..

وسال لعاب العلماء..

وأرادوا المزيد..

والمزيد..

والمزيد..

ومع تطور الإلكترونيات، وابتكار مضخات الإشارات داعبت العلماء فكرة استغلال طاقة المخ في أمور أكثر أهمية..

وأكثر حيوية..

وأصبحت القضية كلها هي تطوير مضخات الإشارة؛ بحيث تلتقط إشارة كهرومغناطيسية صغيرة، وتحولها إلى طاقة كبيرة كفيلة بتحريك لعبة أطفال إلكترونية..

ولقد تحقق لهم هذا بالفعل..

ففي ملجأ للأطفال المعاقين في ألمانيا، استخدم العلماء أجهزة خاصة يرنديها الأطفال كالخوذات على رؤوسهم لتعمل على تكثيف الطاقة الكهرومغناطيسية المنبعثة في أمخاهم، واستخدامها كطاقة محرّكة للألعاب التي يلعبون بها..

ونجحت التجربة تمامًا..

ولكن المشكلة أن العلماء لا يكتفون، ولا يتوقفون عند أحلامهم قط، وإنما ينتقلون من حلمٍ إلى آخر، ومن طموح إلى طموح..

لذا فقد كان نجاحهم في تشغيل لعب الأطفال مجرد بداية لحلم جديد..

وكبير..

وفي «ديترويت» في الولايات المتحدة الأمريكية تمت تجربة أول سيارة تسير بالطاقة الكهرومغناطيسية للمخ وحده..

كل ما عليك هو أن تركيبها، وتضع على رأسك خوذة تتصل بلوحة القيادة وتفكر..

نعم تفكر في وجهتك والخوذة تأخذ الطاقة الكهرومغناطيسية التي تبعثها أفكارك وتضخها أو تستخدمها لتسير السيارة بسرعة خمسين كيلو متر في الساعة..

دون وقود..

أو بطارية..

فقط بالمخ..

\*\*\*

في عام 1400م في (تركيا) تم كشف حجر طبيعي لديه القدرة على جذب بعض أنواع المعادن إليه على نحوٍ خلب لبّ مكشفيه ودفعهم إلى تسميته باسم المغناطيس ولخمسة قرون تالية تم التعامل مع

المغناطيسية باعتبارها ظاهرة طبيعية يتميّز بها حجر طبيعي حتى تم التوصل إلى الكهرباء وإلى قدرة أي ملف كهربي منتظم على تحويل الحديد الطبيعي إلى مغناطيس..

وهنا اتخذت المغناطيسية مسارًا آخر وراحت ترتبط بأمر لم تخطر قط على بال ذلك الذي كشف الحجر المغناطيسي الأوّل..

وبسرعة كما يحدث دومًا في تيار العلم راح التعامل مع المغناطيسية يتطوّر ويتطوّر ويتطوّر..

ودون أي مبررات علمية ارتبط اسمها بأمر لا تمت لها بصلة مثل التنويم المغناطيسي والمغناطيسية الأرضية وغيرها..

ثم كان الكشف الأعظم..

فكل شيء - علميًا - له طبيعة مغناطيسية أو كهربية وبالذات الجسم البشري الذي يحيط به طوال الوقت مجال كهرومغناطيسي لا يمكن رصده فحسب، ولكن رؤيته أيضًا بوسائل وأجهزة وتقنية حديثة ومتطورة..

ومع كشف المجال المغناطيسي للجسم البشري بدأ العلماء دراسة جديدة تمامًا منذ أكثر من ثلاثين عامًا..

دراسة التغيرات المغناطيسية للمجال الحيوي البشري مع الانفعالات والمشاعر المختلفة..

وبدا الأمر مثيرًا..

وإلى أقصى حد..

فكل لحظة يواجهها العقل البشري تؤثر في مجاله المغناطيسي الحيوي..

كل انفعال..

كل غضب..

أو فرح..

أو ثورة..

وحتى مع الموت يتلاشى المجال الحيوي تدريجيًا بحيث يمكن بوساطته تحديد زمن الوفاة تقريبًا..

ومع تطوّر الدراسات والنتائج نشأ علم جديد..

علم المغناطيسية.. الحيوية..

ولأن العسكريين ورجال الأمن في الدول المتقدّمة هم أوّل من يفيد من التطوّر العلمي في المعتاد فقد تحوّلت المغناطيسية الحيوية بسرعة إلى أحد أهم وسائل كشف الكذب..

فالجهاز القديم المعروف باسم (جهاز كشف الكذب) أو (البوليغراف) أصبح موضة قديمة ووسيلة يمكن التعامل معها..

وخداها أيضًا..

لذا ظهر جهاز كشف الكذب الحيوي..

ثم جهاز فحص الانفعالات البشرية..

والرصد الحراري..

وتطوّرت المجالات المغناطيسية أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

ومع بدايات التسعينيات طرح لأول مرة ذلك السؤال الذي قلب علم المغناطيسية الحيوية رأسًا على عقب..

فلو أننا نستطيع رصد الانفعالات البشرية عبر المجال الكهرومغناطيسي الحيوي..

فهل يمكننا التأثير فيه أيضًا؟!

العلماء الذين طرحوا السؤال توصلوا عبر مجموعة هائلة من التجارب إلى حقائق جديدة تمامًا..

فكل ما حولنا يؤثر في مجالاتنا الحيوية..

الثلاجات..

الغسالات الكهربائية..

أجهزة التليفزيون..

والراديو..

ومصابيح النيون..

وحتى الجاذبية الأرضية..

والمغناطيسية الأرضية أيضًا..

كل ما حولنا يربك مجالاتنا المغناطيسية الحيوية..

ويفسدها..

ويغيّر طبيعة عملها..

وتأثيرها..

وبالذات اتجاه المغناطيسية الأرضية الذي تتفاعل معه البوصلة العادية لتحديد الشمال المغناطيسي..

فلو أن الجسم البشري ينام ليلاً ورأسه في اتجاه الشمال المغناطيسي تتحسن وظائفه ويهدأ نومه وتطيب أحلامه و...

وكان لا بُدَّ من الانتقال إلى النقطة التالية..

نقطة العلاج..

وأيضًا بالمغناطيس.

ولهذا حديث آخر..

\*\*\*

كل جسد بشري له مجال مغناطيسي حيوي يتميز به عن أي جسد آخر..

وذلك المجال يتغيّر كثيرًا في حالات المرض..

رصده أثبت أنه يضطرب ويتغيّر ويتبدّل كلما عانى الجسد من أية اضطرابات في مساره الطبيعي..

عمقه ..

وألوانه ..

وشدته ..

كل عوامله تختلف باختلاف نوع المرض وطبيعته وشدته ..

ومنذ منتصف التسعينيات غرق العلماء في دراسة كل ما يتعلّق بارتباط المجال المغناطيسي الحيوي بالأمراض ..

ثم بدأوا في التعامل مع الموقف ..

عبر العلم ..

ففي الفلزات يمكن ضبط المجال المغناطيسي المضطرب بوساطة مجال مغناطيسي آخر يتم استحداثه بدقة؛ لتحقيق التوازن المنشود ..

لماذا لا يحدث هذا مع الجسد البشري أيضًا ..

ومنذ الوهلة الأولى أثبتت التجارب إمكانية حدوث هذا ..

إمكانية إضافة مجال مغناطيسي ما إلى الجسم البشري لضبط مجاله الحيوي الأساسي ..

ولعلاج اضطراباته ..

وأمرضه أيضًا ..

وجاءت النتائج مذهشة بكل المقاييس ..

فالمجال الحيوي الإضافي ضبط بالفعل المجال الحيوي الرئيسي وساعد في معادلة وهزيمة بعض الأمراض المؤدية إلى، أو الناشئة بسبب اضطرابه ..

وعلى رأس تلك الأمراض جاءت الاضطرابات النفسية ..

والذهنية ..

والعصبية ..

كل حالات التوتر الانفعالي والاكتئاب الذهاني تم تحسينها أو حتى علاجها تمامًا عبر تعديل المجال المغناطيسي الحيوي المضطرب..

وكذلك اضطرابات المعدة..

والقولون العصبي..

وعدم انتظام ضربات القلب..

والآلام الروماتيزمية..

واضطرابات النوم..

والعجز الجنسي في بعض الأحيان..

وعلى الرغم مما سنجده من عشرات الدراسات العلمية الجادة حول العلاج بالمغناطيسية؛ فإن التعامل مع الأمر تجاريًا أصبح مثيرًا للضحك والسخرية على كل المستويات..

فمن المستحيل علميًا أن تتجح قطعة مغناطيسية في علاج كل أمراض أو أوجاع أي شخص؛ إذ إن الأمر دقيق إلى درجة لا يصلح معها العبث؛ فلا بُدَّ أولاً من دراسة المجال المغناطيسي الحيوي للشخص، وتحديد نوع وطبيعة اضطرابه بالضبط..

وبعدها تأتي مرحلة تحديد العلاج..

فالمجال المغناطيسي الإضافي لا بُدَّ وأن يتوافق تمامًا مع احتياجات المجال المغناطيسي لكل شخص بصورة خاصة جدًا..

أو بمعنى أدق لا بُدَّ من تفصيل مجال كهرومغناطيسي إضافي لكل حالة مرضية بحيث يتناسب معها دون سواها..

هذا ما قاله العلم..

وما استخدمه..

وما أثبتته..

أما العشوائية أو استخدام قطعة مغناطيسية غير مدروسة؛ فهو لن يؤدي إلى ضعف احتمالات الشفاء فحسب بل وربما يكون سببًا في منشأ اضطرابات جسدية جديدة أيضًا..

أو أعراض جانبية أسوأ من المرض الأصلي نفسه..

وهنا سنحتاج إلى علاج جديد..

ومغناطيسي جديد..

ودراسات جديدة..

والعلاج بالمغناطيسية بدأ ينتشر بالفعل في دول العالم المتقدّمة حتى أن أوروبا تضم أول مستشفى متخصص بالكامل في العلاج بالمغناطيسية..

أما العلماء فقد انتقلوا - كالمعتاد - إلى المرحلة التالية..

إلى التوسّع في استخدام التأثيرات المغناطيسية أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

وسيدشك أنهم قد وضعوا أول تخطيط لمدن المستقبل المغناطيسية و..

ولننتقل إليها..

\*\*\*

## عالم الغد كله يسير بالمغناطيس..

هذه المقولة ستجدها في مواضع شتى على شبكة الإنترنت وبالذات في المواقع العلمية..

فمع الكشوف المدهشة التي توصل إليها العلماء أمكنهم بناء عالم كامل يعتمد مباشرة على المغناطيسية..

عالم تسير فيه القطارات بسرعة الرصاصة فوق قضيب معلق واحد يحمل شحنة مغناطيسية تتساوى مع الشحنة التي يحملها تجويف ملائم أسفل القطار نفسه..

فلأن الأقطاب المختلفة تتجاذب والمتشابهة تتنافر؛ فالقضيب سيتنافر بشدة مع التجويف..

وينطلق القطار بطاقة التنافر المغناطيسية..

وهذا النوع من القطارات موجود حاليًا في (اليابان) بالفعل، وكذلك في عالم (ديزني) في (فلوريدا) بالولايات المتحدة الأمريكية..

ولكن الجديد هو أن السيارات أيضًا ستخضع للمنطق نفسه..

ففي عالم المستقبل ستجد في الشوارع كلها ألواحًا مغناطيسية أشبه بقضبان قطارات منفردة أو بشرائح قوية عريضة، وستنطلق فوقها السيارات بسرعات هائلة وفقًا للنظرية نفسها..

وعلى الرغم من تلك السرعة الفائقة سينخفض معدل الحوادث إلى حد مدهش..

وهذا أيضًا بسبب المغناطيسية..

فكل سيارة من سيارات المستقبل ستكون لها طرقها أو ستحمل رقم الطريق الذي تسير عليه أو تحدد مسارها مسبقًا ليقوم كمبيوتر دقيق بتوجيهها وتسييرها وضمان عدم تعارض مسارها مع مسار أية سيارة أخرى..

أما عند إشارات المرور وتقاطعات الطرق فستجد أية سيارة مستقبلية سيتحول تدريجيًا من التنافر إلى التجاذب..

أما طرق المستقبل فلن تتكوّن من الأسفلت التقليدي الذي نعرفه، وإنما سيتم صنعها من مادة خاصة لها قدرة أكبر على تحمل تلك السرعات الكبيرة وصالحة أيضًا لزرع تلك الشرائح المغناطيسية الطولية التي تحرك السيارات و...

وكل ما سبق يبدو لكم بالطبع مجرد فكرة مجنونة أو خيالاً علمياً بحت..

ولكن الواقع أنه ليس هذا أو ذلك..

فمدينة المستقبل أصبحت حقيقة علمية من خلال منطقة تجريبية أنشأتها وكالة الطاقة الأمريكية في صحراء (أريزونا)..

هناك ستجد كل ما تحدثنا عنه..

وأكثر قليلاً..

فالطاقة الرئيسية التي تمد المدينة مولدة من سواقٍ مغناطيسية كبيرة تدور أيضاً بنظرية التناثر المغناطيسي..

أنوار الشوارع..

والمنازل..

والمتاجر..

وحتى محطات تنقية المياه كلها بالمغناطيس..

بتكلفة أقل..

وطاقة أكبر..

والعلماء هناك - ككل العلماء - شرهون طماعون لا يكتفون قط بما توصلوا إليه؛ لذا فهم يسعون إلى المزيد..

والمزيد..

والمزيد..

ولأن قدرات المغناطيس محدودة في النهاية؛ فقد بدأوا في التفكير في المواد التي تولد الطاقة المغناطيسية..

وفي الصفات الفيزيائية لها..

وفي قفزة علمية مدهشة اتخذوا أخطر قرار في تاريخ العلم..

السعي لتغيير خواص المواد..

نفس الفكرة التي حلم بها الكيميائيون قديماً بتحويل التراب إلى ذهب..

ولكن هذه المرة من أجل المغناطيسية..

ومن أجل العلم..

وفي أفران خاصة تبلغ درجات حرارتها ما يزيد عن خمسة آلاف درجة مئوية وضعوا تلك المواد لساعات..

وأيام..

وأسابيع..

وجاءت النتائج مذهلة..

\*\*\*

منذ حدثتنا درسنا العناصر الفلزية والكيمائية، وحفظنا عن ظهر قلب الخواص التي تميز كل عنصر عن الآخر..

نحن فعلنا..

وقبلنا وبعدها فعل العلماء..

والباحثون..

والمبتكرون..

وبينما اكتفينا نحن بالحفظ تجاوزوا هم هذا إلى دراسة المزيد من خواص المواد ومحاولة العثور على مميزات جديدة بها..

ولعقود من الزمان راحوا يدرسون..

ويدرسون..

ويدرسون..

وفي المكتبات ظهرت عشرات النظريات وآلاف الكتب التي فنّدت خواص المواد حتى تصوّرنا أننا قد بلغنا ذروة العلم..

ولكن العلماء - بطبيعتهم - لا يعترفون بالذروة في أي فرعٍ من فروع العلم..

حتى المسلمات يرون أنها ما زالت تحتل المزيد..

والمزيد..

والمزيد..

لذا فقد أخذوا تلك المواد ذات الخواص المعروفة ووضعوها في أفران خاصة جدًا وسط درجة حرارة تبلغ خمسة آلاف درجة مئوية على نحو متصل لساعات..

وأيام..

وأسابيع..

وفي البداية ذابت تلك المواد..

وذابت..

وذابت..

ثم ومع تواصل الحرارة أخذت تتكثف..

وتتكثف..

وتتكثف..

ومع تكثيفها تغيّرت خواصها الفيزيائية وتحوّلت إلى عناصر مختلفة..

عناصر يمكن للعلم أن يقفز بوساطتها قفزات هائلة..

فمع المواد المعالجة حراريًا أمكن خفض سرعة التوصيل عبرها إلى درجة مقبولة ساعدت على إنتاج المعالجات الكمبيوترية المتفوقة..

ربما لم تبلغ نسبة الخفض العشرين في المائة حتى هذه اللحظة، إلا أن هذا بالنسبة للعلماء مجرد بداية..

بداية تعني أن الانخفاض سيزيد مع الوقت..

ومع تطوّر العلوم الأخرى..

والمواد الجديدة وبالذات (الفرّات) أثبتت فاعلية مذهشة في التعامل مع الأنسجة السرطانية إذ أن تلك الأخيرة تتبخّر تقريبًا عند حقننا بالأولى..

وهناك مواد جديدة مضادة للمغطة..

وأخرى معتادة لموجات الرادار..

وثالثة تضاعف من متانة ما تطلّى به..

ورابعة تتغيّر ألوانها مع تغير انفعالات الجسم البشري تأثرًا بمجاله الحيوي المغناطيسي..

وخامسة..

وسادسة..

وسابعة..

كل هذا قرأت عنه وتابعته في الدوريات العلمية، وعبر شبكة الإنترنت، ومن خلال الكتب حديثة الإصدار..

ولكنه لا يقارن أبدًا بما رأيته بعيني..

ففي تجربة (مصرية) مذهشة تم طلاء الهواء بالدوكو (وهو نوع من الطلاء)..

وهذه مقولة علمية حقيقية وليست مجازية أو عبثية..

ففي طفرة مذهشة، وبوساطة التعرض الحراري الطويل، أمكن إنتاج مادة لها نفس كثافة الهواء..

ومن تلك المادة تم صنع طلاء..

ولأن ذلك الطلاء له نفس كثافة الهواء؛ فهو يتعلّق به ولا يسقط عنه..

وهذا يعني أن المصريين قد دهنوا الهواء بالدوكو..

فعلياً..

ليس هذا فحسب، بل إنهم استخدموا المواد نفسها في إنتاج طلاء له تأثير مذهل..

للغاية..

\*\*\*

في الميثولوجيا النروجية القديمة توجد أسطورة عن فارس شجاع بلغت جرأته حد مواجهة سيد العالم السفلي وهو قزم بشع يمتلك أسلحة رهيبة مكنته من السيطرة على العالم أجمع..

ومن بين تلك الأسلحة كان رداء الإخفاء..

ورداء الإخفاء هذا كما تقول الأسطورة هو رداء خاص عندما يضعه أي مخلوق على جسده يختفي تماماً عن الأبصار..

كان هذا أول ذكر لفكرة الإخفاء في التاريخ المعروف، وأول مرة يرتبط فيها الاختفاء بالقوة والقدرة على السيطرة على الآخرين..

بعدها جاءت الأساطير الإغريقية الأخيرة لتروي لنا قصة (بيرسيوس) ذلك الشاب نصف الإله الذي واجه وحش (الميدوزا) صاحب رأس الأفاعي والذي يحول كل من ينظر إليه إلى تمثال من الحجر مسلحاً بعدد من الأسلحة بينها خوذة الإخفاء..

ومن الأسطورة ووحيتها كتب (ه.ج. ويلز) رائعته (الرجل الخفي) التي كانت بداية لسلسلة من الأفلام التي تتناول حلم الإنسان في الاختفاء والقوة وحماية نفسه من مهاجميه وأعدائه..

وفي روايته تحدّث (ويلز) عن أحد العلماء الذي ابتكر وسيلة مدهشة لإلغاء معاملي الانكسار والانعكاس عن جسده تماماً بحيث يتحوّل إلى حالة الشفافية المطلقة التي يستحيل معها رصده أو تحديد موقعه في حين يمكنه هو رؤية من حوله والتعامل معه مما يمنحه قوة خارقة بالنسبة لهم..

ولكن العلماء لا يكتفون بالأحلام، وإنما يعشقون السعي لتحويلها إلى حقائق علمية وواقعية مهما بدت خيالية وهمية..

ومن المؤكّد أن رواية (ويلز) كانت وما زالت تحفة أدبية رائعة تعبّر عن خيال عبقرى بالنسبة للزمن الذي ظهرت فيه، حتى أن بعضهم يؤكّد أنه لم يحظ كاتب من كتّاب الخيال العلمي -على الرغم من كثرتهم في القرن العشرين- بخيال يفوق هذا..

ولكن العلماء اعترضوا بشدة على نظرية (ويلز)..

فمن وجهة نظرهم - العلمية طبعًا - سيكون الرجل الخفي الذي ينشأ بهذا الأسلوب شخصًا عاجزًا بئسًا يحتاج إلى من يرشده ويمد له يد العون والمساعدة، ولن يصبح أبدًا شخصًا خارقًا كما جاء في رواية (ويلز)..

هذا لأن وصول الجسد إلى درجة الصفر المطلق بالنسبة لانكسار أو انعكاس الضوء يعني أن الضوء لن يجد وسيلة للسقوط على شبكية العين ما يعني أن رجل (ويلز) الخفي لن يتمكن من الرؤية أبدًا، وأنه سيصبح مجرد رجل أعمى..

ولكن هذا الاعتراض لم يمنع التأثير الذي تركته رواية (ويلز) في الأذهان..

ولأن فكرة الإخفاء ليست معجزة علمية؛ فقد درسها العلماء في جدية تامة، وتوصلوا في منتصف الأربعينيات إلى فكرة مدهشة ألا وهي إحاطة أي جسم بمجال كهرومغناطيسي يؤدي إلى منع انكسار الضوء أو انعكاسه ما يجعل الجسم الذي أحيط به خفيًا بالنسبة للعين البشرية..

وفي (فيلادلفيا) بالولايات المتحدة الأمريكية جرت أول تجربة إخفاء عام 1943م..

ففي بدايات أربعينيات القرن العشرين قام بعض العلماء بمحاولة عملية للتوصل إلى حالة الاختفاء التام، واستخدموا في هذا الموجات الكهرومغناطيسية القوية التي أحاطوا بها مدمرة حربية لإخفائها تمامًا عن عيون العدو أثناء المواقع البحرية..

ولكن التجربة باءت بفشل ذريع..

ليس لأن المدمرة لم تختف، ولكن لأن البشر على متنها لم يمكنهم احتمال هذا المجال الكهرومغناطيسي الرهيب الذي أحاط بهم..

لقد أصابهم رعب بلا حدود بلغ ببعضهم درجة الجنون وبلغ بالبعض الآخر مرحلة الانهيار وبالبعض الثالث مرحلة الأمراض النفسية العنيفة..

بعضهم شاهد مخلوقات عجيبة، والبعض الآخر التقى بأقاربه الراحلين والبعض الثالث شاهد عوالم أخرى مجهولة..

هذا ما قاله الشهود عن تلك التجربة الرهيبة التي أطلق عليها اسم تجربة (فيلادلفيا)..

ومع فشل التجربة توقفت مؤقتًا محاولات العلماء لإخفاء الأسلحة الحربية..

توقفت حتى بدايات السبعينيات عندما قرّر أحد العلماء خوض التجربة من جديد مع تقادي كل أخطاء تجربة الأربعينيات الفاشلة..

وفي أبحاثه الجديدة أدرك الرجل أن المخلوقات الحية لا يمكنها أن تحتل المجالات الكهرومغناطيسية القوية، وكذلك الآلات الإلكترونية أو التي تدار بالكهرباء؛ إذ إن المجال المحيط بها يفسدها تمامًا ويوقف عملها أو يصيبها بالخلل..

وهذا ينطبق على كل ما يستخدم المغناطيسيات أيضًا..

وهنا بدأ الرجل تجاربه حول أجسام صلبة وجامدة فحسب..

ونجحت التجارب تمامًا..

كل الأجسام الجامدة أمكن إخفاؤها تمامًا عن طريق إحاطتها بمجال كهرومغناطيسي قوي..

نجحت التجارب، ولكنها لم تحظ بالاهتمام على الرغم من هذا؛ لأن ما ارتبط بها من محاذير آدمية وتكنولوجية جعلها غير صالحة كسلاح حربي بأي حال من الأحوال..

فقط أصبحت صالحة كعامل إبهار أو كوسيلة لجذب انتباه العامة وهذا ما حدث بالفعل عندما استخدمها الساحر العالمي (دافيد كوبر فيلد) لإخفاء بعض الأجسام أمام عيون المشاهدين، حتى إنه قد قام بإخفاء تمثال الحرية نفسه على نحو اتسعت له عيون الكل في معظم أنحاء العالم دون أن يدرك مخلوق واحد أن ما يراه أمامه هو علم..

مجرد علم محض..

وهكذا نجحت فكرة الإخفاء، ولكنها فشلت في تحقيق أي فائدة علمية..

كل ما أفادت به هو ألعاب الحواة والسحرة الذين اعتادوا إخفاء أشياء كبيرة باستخدام المجالات الكهرومغناطيسية، وإبهار المشاهدين العاديين غير العلميين..

وظلّ العلماء طوال نصف قرن من الزمان يبحثون عن وسيلة أكثر عملية للإخفاء..

وعبر وسائل معقدة منها المرايات العاكسة من كل الاتجاهات، والأزياء المزوّدة بكاميرات تنقل أمامها ما يدور خلفها والعكس بالعكس أمكنهم تزييف حالة اختفاء وهمية.. وباستثناء (دافيد كوبر فيلد) ومن تبعه من السحرة المحترفين والهواة أيضًا لم يحاول أحد الانتفاع بنظرية الموجات الكهرومغناطيسية هذه والتي خف الاهتمام بها وبفكرة الإخفاء نفسها حتى أواخر تسعينيات القرن العشرين عندما عاد الأمر إلى الأذهان فجأة..

وبمنتهى القوة..

ثم تطوّرت الأساليب..

والعلوم..

والأفكار..

ومع فكرة تطويع المواد وتغيير كثافتها وسماتها الفيزيائية من خلال تعريضها لحرارة متصلة تبلغ ما يزيد عن خمسة آلاف درجة مئوية، ولفترات قد تبلغ عدة شهور عاد الأمل يبرز من جديد..

وفي هذه المرة على يد عالم مصري وأستاذ للفيزياء في واحدة من كليات العلوم المصرية..

ولأن هذا العالم المصري متخصص في الجوامد الفيزيائية والفيزياء التجريبية والمواد ذات التأثيرات المغناطيسية؛ فقد عمل على تغيير الخواص الطبيعية لبعض المواد عن طريق التسخين لدرجات حرارة عالية جدًا، ولفترات طويلة نسبيًا؛ بحيث حصل على مواد ذات خواص جديدة تمامًا، وقدرات مغناطيسية مختلفة..

ومن هذه المواد، وبالاشتراك مع أحد أساتذة كلية الفنون التطبيقية صنع الاثنان طلاءً خاصًا لا يمتص أية درجة من درجات الضوء أبدًا..

وبدون الدخول في تفاصيل علمية يكفي أن نعرف أن هذا الطلاء الجديد الذي يشبه أي طلاء عادي يمتلك قدرة مذهلة على إخفاء أي جسم يتم طلاؤه به..

إخفائه تمامًا..

يكفي إذاً أن نحضر قطعة قماش كبيرة ونرشها بذلك الطلاء ثم يرتديها جندي ما ليصبح خفيًا تمامًا..

وقبل أن تتدهشوا أو تستكروا، ينبغي أن تعلموا أن هذا قد حدث بالفعل، وأن النتائج تفوق كل تصور..

وهذا يعني أن أصبح باستطاعتنا أن نمتلك جيشًا خفيًا يعجز أي عدو عن رصده في الأماكن المفتوحة كالصحارى والجبال..

وكل هذا بوساطة طلاء..

ورداء..

بوساطة العلم بدأت رحلة تحقيق ما جاء في الأسطورة النرويجية القديمة..

أصبح هناك بالفعل رواد إخفاء..

رداء من قماش بسيط يُطلى بمادة خاصة؛ فيخفي من يرتديه عن الأَبصار إلى حدِّ كبير..

التجارب حتى هذه اللحظة تخفى الأجسام بنسبة خمسين في المائة تقريباً أو ما يزيد قليلاً..

وهذه مجرد بداية..

وحتى تلك البداية تبدو كافية تماماً إذا ما استخدمناها لإخفاء أسلحة كبيرة في قلب صحراء شاسعة إذ سيصبح من العسير أن تلتقطها العيون الفاحصة..

أو حتى عدسات الأقمار الصناعية..

والعلماء لن يكتفوا طبعاً بنسبة الإخفاء تلك..

سيعملون حتماً على تطويرها أكثر..

وأكثر..

وأكثر..

وبومًا ما سيخفي الرداء من يرتديه تماماً..

وتتحول الأسطورة إلى حقيقة.

\*\*\*

علم تغيير خواص المواد وحده يمنح المستقبل صورة عجيبة لا يمكننا حتى أن نتصورها الآن؛ إذ إنه باب جديد قادر على تغيير وجه العالم كله، وقلب مقاييسه ومعاييره العلمية كلها رأسها على عقب..

يكفي أن تعلم أن بعض المواد يتم تغيير خواصها الآن لتبلغ مقاومتها الصفر في درجة حرارة الحجرة، وهذا يعني إنتاج جيل جديد من المواصلات الخارقة التي ستضاعف قدرات وإمكانيات وسائل الاتصال وأجهزة الكمبيوتر أكثر من ألف مرة!

هل يمكنك أن تتخيل هذا؟!!

لو أن هذا بإمكانك، وأنت تمتلك بالفعل خيالاً خصباً؛ فدعني أفاجئك بما يعجز خيالك الجامح هذا عن تصديقه..

أو حتى تصوّره..

في ستينيات القرن العشرين بلغ التنافس الصناعي بين الصين والاتحاد السوفييتي ذروته، وراحت كل منهما تحاول إثبات تفوق تقنياتها على الأخرى بوسائل شتى..

وفي وقتٍ واحدٍ تقريباً أقامت كل منهما معرضاً للمنمنمات الفنية بهرنا جميعاً؛ إذ قدّم الصينيون في معرضهم حبة أرز مرسوم عليها خريطة العالم بكل تفاصيلها حتى خطوط الطول والعرض فرداً عليها الاتحاد السوفييتي بشطرنج كامل على رأس دبوس!

وحتى يثبت الروس تفوقهم الصناعي أهدوا إلى الصين في أحد أهم أعيادها السنوية شعرة من الصلب طولها متر كامل؛ كدليل على مدى ما وصول إليه في تكنولوجيا الطرق والسحب..

وتقبّل الصينيون الهدية السوفيتية بصدر رحب، ثم أرسلوا إلى الروس شعرة مماثلة منقوبة من منتصفها بكامل طولها!

وتابعنا نحن ما أطلقنا عليه اسم حرب المنمنمات، ورحنا نضحك ونتندرّ و..

ولكن العلماء لم يضحكهم هذا أبداً..

لقد استفزهم..

استفزّ طبيعتهم العلمية وتحديّ علمهم وعقلهم، ودفعهم إلى إبداع فرع جديد من العلم والتكنولوجيا تحت اسم (تكنولوجيا المنمنمات).. (نانو تكنولوجيا)..

ولأن الهدف الرئيسي لتكنولوجيا المنمنمات هو تصغير الأشياء إلى أقصى درجة ممكنة؛ فقد حصل العلماء على تمويل ضخم لمشروعهم هذا من كل الهيئات الصناعية والعلمية والعسكرية..

وبالذات العسكرية..

ومنذ السبعينيات بدأت تكنولوجيا المنمنمات تؤتي ثمارها من خلال ظهور أجهزة جديدة أصغر حجماً، وأكثر كفاءة في الأدوات المنزلية بالتحديد مثل أجهزة الصوت والتلفاز والتليفون وغيرها..

أما في مجال الفضاء؛ فقد ساعدت تلك التكنولوجيا على تصغير حجم الأقمار الصناعية ووزنها بالتالي من طنين إلى طن واحد مع مضاعفة الإمكانيات ثلاث مرات على الأقل..

ثم بدأت عجلة التطوير تدور بسرعتها التصاعدية كالمألوف، وبسرعة فوجئنا في الثمانينيات والتسعينيات بأجهزة تلفاز في حجم الكف وأجهزة تسجيل أقل حجمًا، وانخفض وزن القمر الصناعي إلى نصف الطن مع مضاعفة كفاءته وإمكانياته عشرين مرة..

وفي ذلك المضمار ظهرت الدوائر السليكونية المطبوعة، وأجهزة اللاسلكي الصغيرة ثم التكنولوجيا الرقمية والأشياء تصغر..

وتصغر..

وتصغر..

وجاء علماء آخرون واخترعوا أجهزة قياس أكثر دقة، ووسائل تصنيع أكثر حيوية وأصغر حجمًا، وأصبح التلفاز في حجم ساعة اليد، وظهرت أجهزة الكمبيوتر اليدوية وأجهزة التليفون الخلوية التي راحت بدورها تتطور..

وتتطور..

وتتطور..

وفي القرن الحادي والعشرين بلغت تكنولوجيا المنمنمات حدًا مذهلاً ساعد على أن يصبح حجم القمر الصناعي مثل قبضة اليد، ووزنه لا يتجاوز المائة جرام وقدراته تزيد ألف مرة عن قدرات القمر الصناعي الأول الذي بلغ وزنه الطنين..

ومع هذا الحد من تكنولوجيا المنمنمات أصبح من الممكن أن تحمل في يدك جهاز تليفون خلوي صغير الحجم يحوي بنك معلومات، وآلة تصوير رقمية ومسجل رقمي وعشرات الأشياء الأخرى..

أما ساعة اليد؛ فقد وضعت فيها شركة يابانية شهيرة كل هذه المميزات دون أن تغيّر حجمها أو الكثير من شكلها الخارجي..

وبالنسبة لعقدٍ واحدٍ مضى يعتبر هذا التطور مذهلاً بكل المقاييس..

إلا أنه ليس كافيًا..

من وجهة نظر العلماء على الأقل..

فمن أهم مميزات كل عالم أنه طماع..

ربما يسعده التوصل إلى كشف علمي خطير..

ولكنه دومًا يسعى إلى المزيد..

والمزيد..

والمزيد..

لذا فقد أدار العلماء عيونهم إلى ما أطلقوا عليه اسم القطب الأحادي أو (مونوبول)..

ووفقاً لأبحاثهم التي حققت الكثير من النتائج حتى لحظة كتابة هذه السطور يبدو أن المنمنمات ستصل إلى مستوى جديد..

مستوى يفوق كل خيالك..

ألف مرة.

\*\*\*

فمن الناحية العلمية وبناءً على تجارب فعلية، ونتائج إيجابية أصبح العلم قادرًا على تصغير كل شيء لأكثر من أربعمئة مرة!!

بمعنى أدق: يمكن أن يتحوّل الإنسان بالفعل إلى عقلة إصبع..

بل إلى ما هو أصغر من هذا..

العلم استطاع أن يجعل مبنى ارتفاعه أربعمئة متر، ينكمش إلى متر واحد دون أن يفقد بناءه الخلوي الداخلي..

ليس البناء وحده وإنما الإنسان..

والحيوان..

والأشياء..

وحتى الأسلحة والمعدات..

لا تستنكر هذا أو تتكره أو تبادر باعتباره مجرد هزل، وتذكّر أننا لو حاولنا التنبؤ بالهواتف الخلوية التي يمكنها نقل الصور الملونة منذ عشر سنوات فحسب لاتهمنا الكل بالخبل والكذب واختلاق الأمور..

فالعالم اليوم يدرس ما يعرف باسم (التوحيد القطبي) أو (Mono pole) أو (القطب الأحادي) -لولا شئنا الدقة-، وفكرة هذا الأمر باختصار شديد هي إزالة الفراغات الخلوية والذرية من الكائنات الحية والآلات؛ بحيث يتم اختصار حجمها بأكملها..

ولو علمنا أن الفراغات الخلوية والذرية هي التي تحتل المساحة الأعظم من أي جسم لأدركنا أن إزالتها تعني انخفاض حجم الجسم إلى درجة يصعب تصوُّرها..

باختصار: يمكن للعالم في غضون عامين أو ثلاثة أن يقوم بتصغير جيش كامل بكل أفراد ومعداته إلى ما يكفي لوضعه في حقيبة شخصية بسيطة ونقله إلى منطقة الهدف ثم إعادته هناك إلى حجمه الأصلي ليُشن حربه من داخل الهدف وليس من خارجه!

أيضاً سيتمكّن العلم في تصغير الطيور والحيوانات بحيث لا تحتاج إلى قدر ضئيل من الطعام..

وعندما يكتمل نموها وتبلغ الحد المطلوب يتم إعادتها إلى حجمها الأصلي بعد أن انخفضت مصروفات تربيتها وتسمينها إلى أدنى حدٍّ ممكن..

تكلفة النقل والشحن أيضاً ستبلغ حدًّا لم يحلم به أكبر عقل اقتصادي في التاريخ فالآلات والمعدات الضخمة يمكن تصغيرها لتصبح في حجم لعب الأطفال ونقلها في حقائب يد صغيرة ثم إعادة تكبيرها في مواقع العمل..

وحتى مشكلة الإسكان، وتزايد أعداد المواليد ستصبح عديمة القيمة في وجود تكنولوجيا مذهلة قادرة على استيعاب كل سكان (الصين) مثلاً في فدان واحد من الأرض في أية منطقة بسيطة..

مشكلة مياه الشرب أيضاً ستنتهي تماماً؛ إذ أن قطرة ماء واحدة ستكفي أسرة لعدة ساعات طويلة..

عشرات المشكلات ستنتهي وتتلاشى فقط عندما تبلغ تكنولوجيا التصغير والقطب الأحادي مبلغها..

والمدهش أننا لن ننتظر عشرات السنين حتى يصبح هذا الخيال واقعاً..

كل ما نحتاجه هو أعوام خمسة على أكثر تقدير..

المهم أن نتاح لنا تلك التكنولوجيا عندما تكتمل..

فكما اعتدنا يصرُّ العسكريون دوماً على الاحتفاظ لأنفسهم بأي تطوّر تكنولوجي يصلح كسلاح فريد في الحاضر أو في المستقبل القريب أو حتى البعيد باعتبار أن مقتضيات الأمن لها الأولوية دوماً قبل أي أمر آخر..

حتى لو كان هذا الأمر هو رفاهية الدنيا كلها..

عزاًؤنا الوحيد هو أن هذا سيحدث لفترة محدودة فحسب كما حدث لكل الابتكارات الهامة من قبل فأفضل وأروع ما في التطور العلمي هو أنك لا تستطيع أن تخفيه طويلاً..

ولا تستطيع أن تحتكره أبداً..

فالقواعد العلمية واحدة والعقول العلمية متشابهة والمبدأ العلمي يقول: إن البدايات المتشابهة تصنع نتائج متشابهة..

وكل الأبحاث تبدأ على نحوٍ عَليّ..

وكلها في زمننا هذا يتم نشرها عبر شبكة الإنترنت..

وهذا يجعلها متاحة للجميع..

لكل متصفح شبكة الإنترنت..

وكل عالم في الدنيا كلها..

وما دامت البداية معروفة فهناك عالم آخر سيلتقط طرف الخيط، ويبدأ أبحاثه بدوره في نفس الوقت الذي سيفعلها فيه عالم ثانٍ وثالثٍ ورابع..

وخلال عامٍ واحدٍ -على الأكثر- ستصبح هناك قاعدة علمية ضخمة تبحث الأمر نفسه وتتصل ببعضها البعض وتعاون لتطويع الفكرة وتحسينها وتقويتها..

والجهات العسكرية مهما بلغت قوتها لا يمكنها أن تحجب العلم أو تحتكره أو توقف تطوره..

لذا فالعلم سيتطور ويتقدم ويمنحنا في كل عام.. بل وفي كل أسبوع فكرة جديدة أو كشفًا جديدًا قادرًا على قلب حياتنا كلها رأساً على عقب..

بمعنى أدق: لو أنك حاولت أن تتخيل ما سيكون عليه العالم بعد عشر سنوات فحسب من الآن على ضوء المعلومات المتاحة والتطورات العلمية المحتملة لوجدت أن هذا أمر عسير للغاية..

فالعالم سيكون مختلفاً تمام الاختلاف عن عالم اليوم حتماً..

ولكن هذا لن يعني أن العلم قد بلغ مبلغه أو وصل إلى أفضل ما يمكن الوصول إليه..

ستكون هناك دوماً نظرة إلى المستقبل..

وسيظل التساؤل المثار حوله قائماً..

التساؤل عما إذا كان ما يحمله لنا المستقبل حقيقةً أم..

أم خيالاً!

\*\*\*

### ويأتي الغد

أجمل ما قرأت في حياتي كلها عن التطور العلمي عبارة تصفه بأنه: «إهانة مستمرة للذكاء البشري»..

والمقصود بالعبارة أنه في كل مرحلة من مراحل التطور العلمي يتصور الإنسان أنه قد توصل إلى كشف سر من أسرار الكون، ويبني كل تطوره وقناعاته على ما توصل إليه، ويبدو له أنه بهذا قد فك العديد من الألغاز، وأجاب العديد من التساؤلات التي حيرته طويلاً..

ثم يمضي الزمن..

ويأتي الغد..

وتتطور العلوم والمعارف..

كل العلوم..

وكل المعارف..

ومع التطور يتوصل الإنسان إلى نظريات وحقائق جديدة تحل جزءاً استغلق عليه من قبل، وتجيب تساؤلاً حار طويلاً في البحث عن جوابه..

ولكن المشكلة أن تلك الحقائق نفسها تهدم الثوابت التي بنى عليها معارفه كلها..

وهكذا تتغير الثوابت وتختلف القناعات ويضع الإنسان قواعد جديدة..

ولأنه لا يتعلم الدرس فهو يثق تماماً في قناعاته الجديدة ويبنس عليها كل حقائقه وأبجدياته و..

ويأتي غد جديد..

وتطور جديد..

وتدور الدائرة مرة أخرى..

والمشكلة هنا لا تكمن في العلم ولا في الإنسان نفسه، ولكنها تأتي في إطار الحقيقة الأزلية التي تؤكد أننا لم نؤت من العلم إلا قليلاً..

فمادامت الحياة تمضي فالعلم معها سيأتي..

ويتطور..

ويتغير..

ففي القرن الثامن عشر مثلاً وضع أستاذ الفيزياء الإنجليزي سير (إسحق نيوتن) نظريته الشهيرة عن الحركة والجاذبية والتي تعرف حتى الآن باسم قوانين نيوتن..

وهلّ العالم كله للعبقري واعتبره فلتة من فلتات الزمان، وأصبحت قوانينه هي الثابت الأساسي في كل الدراسات الفيزيائية والكونية..

ثم تطوّر الزمن وأتى الغد..

ومع الغد وفي بداية القرن العشرين، أتى (ألبرت آينشتين) ليضع نظرية النسبية الخاصة..

وواقع أن نظرية (آينشتين) هذه كانت تحفة رائعة، وخاصة عندما فسرت العديد من ألغاز الكون وبخاصة ما يتعلق بنظرية الانفجار الكبير..

ونظرية الانفجار الكبير هذه لمن لا يعرفها هي نظرية خاصة بمنشأ الكون، وتفترض أن الكون كله كان كتلة واحدة ملتهبة ذات طاقة عالية ثم تفجرت تلك الكتلة وتناثرت بفعل الانفجار لتصنع الكون كله بمجراته ونجومه وكواكبه وتوابعه..

والنظرية ليست بهذه البساطة إذ تحوي العشرات من التفاصيل العلمية الدقيقة الخاصة بالجاذبية والطررد المركزي والأفق الكوني وغيرها؛ ما يحتاج إلى مجلد كامل لشرحه، ولكن كل ما يهمنا منها هي أنها كانت تفسر منشأ الكون منذ الثانية بعد الأولى وحتى الآن..

أما الثانية الأولى فلم يجد لها العلماء أي تعليل علمي حتى الآن..

وسيجيب معظم بالطبع أن هذا أمر طبيعي؛ لأن ما حدث في تلك اللحظة الأولى هو الخلق الإلهي نفسه وهذا أمر لا تفسير علمي له..

ولكن هذا يوقعنا في الخطأ نفسه الذي وقع فيه أينشتين على الرغم من عبقريته الفذة..

لقد حشر قناعاته الدينية في علمه..

وقبل أن يستتكر أحدكم هذا دعونا ننظر إلى أنفسنا..

كان من الممكن أن يخلقنا الله سبحانه وتعالى كما خلق آدم من طين مباشرة إلا أنه (سبحانه) جعلنا نأتي عبر منظومة من نطفة فعلاقة وهكذا..

وأرادنا أن ننتبه إلى هذا وندركه وندرسه؛ لأن في دراسته طريق إلى الإيمان به وبعظمته (عز وجل)..

المهم أن (أينشتين) جاء ووضع قوانين جديدة لتفسير منشأ الكون وفي نظريته هذه كان يحتاج إلى ثابت ما لقياس كل ما حوله..

وفي أي علم أو تقييم لا بُدَّ من وجود ثابت ما؛ فنحن لا نستطيع أن نقول إن هذا الرجل طويل أو قصير مثلاً ما لم يكن لدينا ثابت طولي نحدّد معه الأطول والأقصر..

وفي نظريته وضع أينشتين الضوء كثابت قياسي باعتبار أن نتائج من سبقوه كانت تؤكد أن سرعة الضوء لا تتغير سواء كنا نبتعد عن مصدره أو نقترّب منه..

وهكذا ولأوّل مرة في علم الفيزياء وفي نظرية أينشتين أصبحت سرعة الضوء هي الثابت الكوني الذي يقاس عليه كل شيء..

ومنذ ذلك الحين تعامل كل العلماء والباحثين مع سرعة الضوء باعتبارها ثابتاً أساسياً، وبنوا كل قناعاتهم وأبحاثهم على هذا لما يقرب من قرن من الزمان..

ولا بُدَّ وأن نعترف هنا أن هذا قد قفزَ بالعلم قفزةً كبيرةً جدًّا وحلَّ عشرات الألغاز..

ولكن ليس كلها..

هذا لأن أينشتين وهو يضع نظريته حشر فيها قناعاته الشخصية والدينية..

ولهذا قصة..

\*\*\*

عندما وضع أينشتين نظريته كان الإيمان السائد هو أن الكون أبدي سرمدي بلا بداية أو نهاية..

وهذه القناعة تحتم أن يكون الكون ثابتاً لا يتمدد أو ينكمش..

ووفقاً لنظرية الانفجار الكبير، ومع غياب المقاومة وعوامل الاحتكاك يكون من الطبيعة أن يتمدد الكون باستمرار مع موجة التضغوط الناشئة من الانفجار والتي لا يمكن أن تتلاشى قبل مليارات السنين..

ولكن التمدد هذا يضع أينشتين في مأزق كبير..

فالتمدد أي تمدد لا يمكن أن يستمر إلى أبد الأبد..

فكل تمدد ينتهي حتماً برد فعل انكماش..

تماماً مثل الخيط المطاطي يمكنك أن تجذبه فيتمدد إلى مسافة طويلة، إلا أن هذا يحتم ارتداده مرة أخرى بنفس قوة الشد..

وهذا بالضبط ما سيحدث للكون لو أنه يتمدد..

ولكن هذا يتعارض تماماً مع قناعات أينشتين الدينية..

لذا فقد لوى العبقري الألماني بعض معادلاته وأوجد علاقة بين قوة الطرد المركزي وقوة تجاذب الأجسام ليصل إلى نتيجة تقول: إن الكون ثابت، إلا أنه في حالة حركة مستمرة..

العبارة السابقة ستبدو غريبة محيرة ومتناقضة للوهلة الأولى، ولكنك تستطيع فهم معناها بأن تضع جسمًا ثقيلًا في راحة يدك وتمد يدك أمامك في ثبات..

في هذه الحالة، ومع تجاهل حركة تدفق الدماء في عروقتك واختلاجة أنفاسك، ستجد أن يدك في حالة ثبات، على الرغم من الجهد الذي تبذله للمحافظة على فرد يدك والقوة التي يضغط بها الجسم الثقيل على راحتك..

وخرجت نظرية أينشتين وبهرت العلماء كلهم وأقنعتهم..

إلا عالمًا واحدًا..

أليكسندر فريدمان الروسي المولد والدارس في جامعة كامبريدج انتبه إلى هذا الخطأ الحسابي في نظرية أينشتين، ونشر مقالاً يصحح فيه بعض معادلاته ليصل إلى النتيجة العلمية الواضحة وهي أن الكون سيتوقف عن التمدد في يومٍ ما ثم يبدأ مرحلة الارتداد بعد مليار سنة أخرى..

وفور نشر المقال غضب أينشتين بشدة، وكتب لأول مرة في حياته مقالاً غاضباً فيه من الثورة أكثر مما فيه من العلم..

وارتبك فريدمان الذي تصوّر أن أستاذه سيشكره على أنه قد كشف الخطأ ففوجئ به يثور عليه بمنتهى الشدة والعنف..

وبكل ألمه ومرارته أرسل فريدمان رسالة عتاب رقيقة إلى أينشتين يوضح فيها وجهة نظره..

ولأن أينشتين عالم فذ فقد خضع للأمر هذه المرة واعترف في مقال تال بأن معادلات فريدمان صحيحة، وأنه هو قد وقع في خطأ حسابي لم ينتبه إليه..

وهكذا تعدّلت الثوابت وتغيرت..

ونشأ تفسير جديد..

وبعد قرن كامل من الزمان، وبينما كان الدارس (جواو ماكيويجو) يراجع نظريات فيزياء الكون خطرت بباله فكرة عجيبة..

لقد تم حساب كل المعادلات الكونية باعتبار أن الضوء هو الثابت الكوني الأساسي وعلى الرغم من هذا فمازالت هناك نقاط غامضة عديدة في نظريات الكون وأمور لم يمكن تفسيرها فماذا لو أن الثابت ليس ثابتاً؟!

كان افتراضاً جريئاً إلى حد الجنون، إلا أن ملك عقل (ماكيويجو) بشدة فقضى عمره كله لدراسة الفكرة المجنونة..

وفي كل لقاء علمي، كان العالم يشير إلى نظريته الجديدة الخاصة بتغيّر سرعة الضوء والتي أطلق عليها VSL أو Variable Speed of Light..

ولقد استنكر العلماء كلهم فكرته وسخروا منها، ووصفوا مصطلح بأنه Very Silly باعتبار نفس الحروف..

وكان هذا الرفض أمراً طبيعياً للغاية..

فالناس دوماً أعداء ما يجهلون وما يتعارض مع قناعاتهم.. ونظرية (ماكيويجو) تهدم أهم ثابت في قناعاتهم..

الثابت الكوني..

ولكن (ماكيويجو) لم يستسلم، وإنما واصل أبحاثه مع زميل شاركه أفكاره وجنونه الجامح وهو (أندي ألبريخت) وراح الاثنان يجاهدان لإثبات صحة نظريتهما التي تتعارض مع كل الثوابت الفيزيائية الأساسية..

ولم يكن الصراع هينًا أو بسيطًا..

إلا أنه لم يضع هباء..

فمع الأفكار والمعادلات والحلول كان لا بُدَّ وأن يدخل الأمر دائرة الضوء، وأن ينتقل من المعارضة التامة إلى الانقسام بين التفكير وإعادة الحسابات والمعارضة المتخاذلة..

والعنفية أيضًا..

ثم بدأت النظرية الجديدة تجد مستمعين ومفكرين ومناقشين..

ومؤيدين أيضًا..

وهكذا انقلبت الأمور كلها رأسًا على عقب..

وبدأ عصر علمي جديد..

وثابت علمي آخر..

ولكنها حتمًا ليست آخر المطاف..

فمن الممكن أن تحل النظرية الجديدة عشرات الألغاز..

وتخلق عشرات أخرى..

وأخرى..

وأخرى..

عشرات من ألغاز ستحير العلماء، وتخلق تحديات جديدة، وربما تقود إلى نظرية أخرى أقوى وأدق وأبسط..

نظرية توجد حلولًا جديدة..

وتحديات جديدة..

عندما يأتي الغد..

\*\*\*

فهرس المحتويات

فلسفة الخيال ٥

لعبة جينات ١١

ثقب في الزمن ٣٣

التجربة الرهيبة ٥٩

الذي رأى الغد ٨٣

الانفجار الغامض ١٠٩

تلك الكائنات العجيبة ١٣٣

الفراعنة... ولعننتهم ١٦٥

فوق العقل ١٨٥

فوبيا ٢١٩

المستقبل.. حقيقة أم خيال؟! ٢٤٧

ويأتي الغد ٢٧٩